- ألفريد روزمير -

موسكو في ظل لينين

1924-1920

ترجمة جوزيف سماحة

الإعداد الإلكتروني: "المناضل-ة" http://www.al-mounadhil-a.info

1- أوروبا عام 1920

في بداية عام 1920 كنت في طولون عند صديقي مارسيل مارينيه (Marcel Marinet) عندما وصلتني رسالة من باريس تعلمني أنه قد تم اختياري من قبل لجنة الأممية الثالثة للذهاب إلى روسيا السوفياتية. كان الوقت ضيقا إذ كان يتوجب علي أن أكون مستعدا للذهاب خلال أسبوع. وكان هذا يفوق الوقت الضروري لتحضير حاجاتي. فبالنسبة لي، كما بالنسبة لكل الذين عاشوا السنوات الطويلة لما كان يسمى الحـــــرب الكبـــرى، كانت الثورة الروسية هي الثورة المنتظرة – الثورة التي ستتبع الحرب – لقد كانت فجر عهد جديد وبداية حياة جديدة، ولم يعد كل ما كـان سابقا لها يملك أية جاذبية: لقد فقدت الاهتمام بكتبي، وبكراستي، وبأعمالي التي أحضرها، ,أصبحت أكثر من مستعد، أصبحت ملتهفـا للذهاب.

لم تفارق تفارق هذه الرحلة إلى موسكو أفكارنا إطلاقا، وخاصة أفكاري، لأن اختياري للقيام بها تم مسبقا. غير أن هذا كان مشروعـــا صعبا، خصوصا بالنسبة للفرنسيين. فقد كانت فرنسا كليمنصو وبوانكاري، بين جميع الأمم، الأكثر سخطا على جمهورية السوفيات. فقد ادعى كليمنصو أنه سيعزلها عن العالم، وعاملها باعتبارها جمهورية موبئة يجب إحاطتها «بنطاق صحي» من أجل خنقها ومن أجل حماية الشعوب ضد العدوى، وكنا نكتفي بالغيرة مـن الإنكليز أو الأميركيين الذين يستطيعون تجاوز كافة أنواع الحواجز التي تشكل في الواقع هذا «النطاق».

إلاّ أنه كان بمقدورنا أن نميز الصواب من الخطأ في هذا الركام من المعلومات التي تنشرها الصحف. **لقد فاجأت ثورة أوكتوبر البورجوازية**، ولم يستطع ممثلو هذه البورجوازية حتى الأذكياء منهم، أن يفهموا منها شيئا. كيف تستطيـــع هذه النواة الصـغيرة من المهاجرين الذين سمحت لهم الحكومة المؤقتة بالعودة إلى روسيـا، أن تحتفظ بالسلطة؟ إنه لكابوس حقا، إلاّ انه لن يدوم سوى بضعة أيـــام.

لقد انتقل مراسلوا الصحف من بتروغراد إلى عواصم البلدان المجاورة، إلى ريغا، وستوكهولم، وفرصوفيا، حيث كانوا يرسلون يوميا أخبارا قاتمة: أعدم لينين تروتسكي، أو على العكس، حدثت ثورة ضمن القصر وأعدم تروتسكي لينين، فكل شيء يدور حول هذين الاسمين اللذين سرعان ما انفصلا عن الآخرين. لقد كان جهلهـم يسمح لهم بتصديق الإشاعات الأكثر غرابة، حتى إذا ما علموا الحقيقة ذات مرة بالصدفة، فإنهم كانوا يعرفون أن أرباب عملهم لن يسمحوا لهم بقولها.

إن قراءة برقيات ذلك العصر والتعليقات التي قيلت حولها ضرورية لتكوين فكرة محددة عن الغضب الحقود الذي دفعت ثورة أوكتوبر البرجوازية إليه، فقد كانت هذه البورجوازية تقدر أن كل الوسائل جيدة لتدمير الثورة، كما أنها كانت تستمد عزاءها من الجـوع الذي سوف يمتد، كما تزعم، في طول البلاد وعرضها. وحدث ذات مرة أن وجدت نفسي، في قطار العودة من مرسيليا إلى باريس، وبعد انتهاء إجازتي، بقرب ثلاثة نقباء، في يوم كانت الصحف قد قررت أن تنشر فيه خبر استيلاء البلاشفة على السلطة وقد كان جيراني شديدي السخط، وتناوبوا على إنزال الشتائم الغليظة بقادة الانتفاضة الذين يجهلون أسماءهم، وكان هذا مأخذا إضافيـــــا. وأخيرا استخلص أحدهم: «سيموتون جوعا... فهـــم لا يملكون مؤونة لثلاثة أيام!»

لقد كنا محصنين ضد الأكاذيب المتنوعة لمراسلي ريغـــا، إذ اننا نعرف جيدا هؤلاء «المجهولين»، فأسماؤهم وأفكارهم ليست غريبة عنا. فلقد عاش البعض منهم في فرنسا أثناء الحرب، تروتسكـي بالدرجة الأولى، وقد عاش منذ تشرين الثاني 1914 حتى اليوم الذي نفاه فيه وزير الداخلية زميل الوزيرين الاشتراكيين جيســد وسمبات (أيلول 1916)، وأنطونوف-أوفسينكـو مدير اليومية التي أصدرها في فرنسا، طيلة الحرب، الاشتراكيون الروس من مختلف الاتجاهات والذين تجمعوا على قاعدة معارضة الحرب الامبريالية والدفاع عن الأممية البروليتارية، ودريزون–لوسوفسكي، وغيرهم أيضا.. لقد التقينا للمرة الأولى في خريف 1914، عندما سمحت لنا مناسبة طارئة بأن نلاحظ اننا نملك، حول المسائل الكبـرى التي تطرحها الحرب، موقفا أساسيا مماثلا. كان تشيتشيرين وليتفينوف في لندن، ولينين وزينوفييف في سويسرا. لقد تم الاتصال بين اشتراكيي مختلف البلدان الأمينين للأممية في مؤتمري زيمفرالد (أيلول 1915) وكينتال (نيسان 1916). وكنا نسخر من الأخطاء التي يرتكبها، جهلا، صحافيوا «الصحافة الكبيـــرة»، الذين يضعون في السيرة الحياتية، ويقعون في اختلاطات فائقـة، ويخطؤون حتى في تحديد أسماء الأشخاص الظاهرين في الصور.

رغم كل شيء، كان يحدث بعض الأيام أن تجد ثقتنا في صلابة النظام الجديد صعوبة في الصمود أمام دقة البرقيات التي تعلن سقوط بتروغراد، أو حتى اندحار الجيش الأحمر أمام هجمة ناجحة لواحد من جنرالات الثورة المضادة، وقد قادتنا

محاولة اغتيال لينين، في 30 آب 1918، وعندما لم يعد الشك مسموحا، إلى الانغمـــــــاس في القلق والحيرة، هل ستنجح الثورة المضادة أخيرا في الانتصار؟

كان الوضع أيام رحلتي إلى الجمهورية السوفياتية في ربيع 1920 قد أصبح ملائما، إذ نجح النظام في مقاومة هجمات أعدائه اللدودين الذين اضطروا للاعتراف بأنهم ارتكبوا خطأ جسيما في تقدير البلشفية إذ أنهم لم يروا فيها سوى انتفاضة حضرتها قبضة من الديماغوجيين توصلوا بفضل ظروف استثنائية إلى انتصار سهل، إلا انه انتصار يسهل تدميره. لقد أصيبوا بدهشة مريرة عندما اصطدموا بحركة جديرة بخلق نظام جديد راسخ الجذور في الأرض التي بالأمس إمبراطورية القياصرة. فلأول مرة منذ أوكتوبر **كان سوفيات العمال والفلاحين والجنود يتنفس بحرية،** فقد استطاعت الجمهورية، بجهد مضن ومثير، أن تتخلص من التهديد المثلث الذي يرزح فوقها لمدة ثلاث سنوات: إيدونيتش Ioudenitch وكولتشاك Koltchak، ودينيكين Denikine، كما أن البورجوازيـــات المتحالفة خلف هؤلاء قد تم دحرها. لقد تحطم النطاق في إحدى نقاطه، فالمعاهدة المعقودة مع استونيا تمنح جمهورية السوفيـــات نافذة على أوروبا، ومنها على العالم. وكانت بريطانيا، على اثر أميركا، قد تراجعت عن أي تدخل: كان الاحتجـــاج العمالي قد أصبح قويا إلى حد أن لويد جورج أخذ يهيئ الرأي العام البريطاني لعقد اتفاق تجاري مع السوفيات. ولم يمتنع عن ذلك سوى فرنسا التي حافظت في بولونيا على حالة روحية محاربة وشوفينية. فبولونيا التي لم تكد تتوحد بعد تريد إلحاق أوكرانيا. وقد كلف تحريـر هذا البلد الثوري ثمنا لن نستطيع تقديره بدقة سوى لاحقا. أمّا في فرنسا فقد قاد المد الثوري الذي تطور بعد انتهاء الاعتداءات الفلاحين والمثقفين وبعض شرائح البورجوازية الصغيرة والمناضلين السابقين، إلى جانب العمال، المجروحين أم الأصحاء، إلى العودة إلى منازلهم حاملين فكرة محددة عن حساب يجب تسديده: يجب على الحكومة والنظام اللذان أرغماننا طيلة أربعة أعوام على حياة حيوانية في الخنادق من أجل «البلاغ الرسمي» أن يدفعا، لقد تعطلت البرجوازية عن العمل: وبقيت مذهولة أمام نتائج الحـــرب التي لم تكن تتوقعها، **لقد فقدت الإيمان بمصيرها.**

لقد كبح هذا المد الثوري العارم في اتساعه وتصميمه بواسطة الرجال الذين كانوا يقودون، في كل مكان من العالم، التنظيمات النقابية والأحزاب الاشتراكية. لقد نجحوا، مستفيديـن من فقدان الخبرة لدى الوافدين الجدد، ومقنعين أعمالهم بجمل ديماغوجيـــة، في حرف هؤلاء الوافدين عن أي عمل ثوري. ازداد عدد هذه التنظيمات والأحزاب ازديادا ملحوظا، فانتقل عدد الحزب الاشتراكي من 90.000 عضوا في تموز 1914 إلى 200.000، كما أن الـ C.G.T. أو الاتحاد العمالي العام الذي تحول في بداية الحرب، وبفعل التعبئة فقط، إلى نقابات هيكلية، أصبح يستطيع، ولأول مرة في تاريخها، أن يدعي أنه أصبح تنظيما جماهيريا يضم مليونين من النقابيين المنظمين. كان القادة الاصلاحيون يقولون أنه يكفي أن نكون متحدين كي نكون أقوياء، أو جديرين بأن نفرض على الحكام، حول أية مسألة هامة، إرادة الطبقة العاملة. وكانوا يؤكدون – لفظيا – تضامنهم مع الثورة الروسية، إلا أنه ليس ضروريا برأيهم، بالنسبة للأمم الديموقراطية الغربية، اللجوء إلى العنف، إذ يمكن هنا تأسيس نظام جديد بمجرد تحقيق برنامج اقتصادي تصوغه التنظيمات العمالية، ويتوجب على الحكام وأرباب العمل الموافقة عليه. وهكذا يتم تجنب النضالات القاسية، والعذابات، والبؤس التي هي من نصيب البلدان التي تجتاحها الثورات. وقد سنحت لي الفرصـــة، فيما بعد، أن ألاحظ أثناء رحلتي عبر أوروبا أنه كان من السهل نسبيا – خداع الرجال الذين حولتهم الحرب إلى ثوريين بواسطة سراب من هذا النوع.. فلماذا الاقتتال طالما يمكن الوصـول إلى الهدف يدون صراع؟ .. وهكذا استطاع جوهو Jouhoux وأصدقاؤه في القيادة الاتحادية الذين ساوموا مع الاتحاد المقدس في الحـرب التي نعاين الآن أضرارها الواسعة والعميقة، في الاستمرار على رأس الـ C.G.T. (الاتحاد العمالي العام)، في حين تم إبعـــــاد قادة الحزب الاشتراكي زمن الحرب واستبدلوا بعناصر غير أكيدة تهتم قبل كل شيء باللحاق بالتيار.

بين أول إضراب كبير بعد الحرب، إضراب عمال سكك الحديد في بداية 1920، أن المد الثوري لازال قويا، وعبر هذا المد عن نفسه في القيادات الجديدة للتنظيمات المحلية وفي معارضة الإصلاحية المقنعة للقادة الإصلاحيين. وقد كان نضج هذه القيادات الجديدة ملحوظا في بعض الأحيان. وقد أتيح لي أثناء إقامتي في «طولون» أن أتابع عن كثب نشاط الوحدة الاتحادية للنقابات. وعندما أعلن إضراب عمال سكك الحديد، دهشت للذكـــاء الذي أبداه سكرتير هذه الوحدة في تحضير وتنظيم الدعم الواجب تقديمه للمضربين. فعرض بوضوح معنى الإضراب، وبين التطورات التي يمكنه أن يأخذها في وضع عام ثوري موضوعيا، وتنبأ بالتدابير القمعية التي قد تلجأ إليها الحكومة. وشكل في سبيل استمرار العمل العمـــالي فرق بديلة للجن الإضراب. تم هذا ببساطة، وقيل بدون التشدق الملازم لسكان تلك المنطقة واضطرت الشركات التي فوجئت بالحركة وباتساعها وبالحزم والنظامية اللذين يسودان تطورها، إلى الاستسلام سريعا. إلا أن الشركات عادت فانتقمت بعد ثلاثـــة أشهر، تساعدها الحكومة، كما يساعدها قادة الـ C.G.T. (الاتحاد العمالي العام) الذين ضربوا إضرابا تضامنيا فرض عليهم.

2- رحلة موسكو

إن الرحلات عبر أوروبا في فترة ما بعد الحرب شديدة التعقيد. فالأمم الجديدة التي ساهمت في خلقها الإيديولوجية الويلسونية تحتمي داخل حدودها وتدافع عن نفسها ضد التسلل البلشفي، وضد المهربين الذين توجدهم الظروف الصعبة. كان يتوجب الحصول على تأشيرات دخول للوصول إلى هذه البلدان، ومن ثم الحصول على ادونات بالخروج لتركها، ويتوجب تحمل الزيارات الجمركيـــة الدقيقة، والشكليات اللامتناهية وغير المحتملة. ويكون سعيدا من يخرج سليما معافى من كل هذه الصعوبات. أمّا العقبة الأخيرة والأكثر جدية من سواها فهي: إن الأمم المحادية لروسيا والتي انفصلت عنها لا تسمح بالمرور. نتيجة لكل هذه الأسباب دامت رحلتـــــــــي من باريس إلى موسكو ستة أسابيع، ولذا وجدنها طويلة إنما غنية بالمعلومات لأنها تضمنت دورات عديدة قادتني إلى الأمم الجديدة فـــــــي أوروبا الوسطى وألمانيا الجديدة. وقد تمكنت بنفسي من معاينتها، والدخول من ثم في اتصال مع الأحزاب والتجمعات المختلفة التي كانت قد انضمت للأممية الثالثة أو التي تطرح الانضمام إليها، والتعرف إلى الرجال الذين سأعود فأجدهم فيما بعد في موسكو.

خصصت في البداية بضعة أيام من مهلة الأسبوع التي حصلت عليها للقيام برحلة إلى كاتالونيا. فثمة أهل وأصدقاء لي هناك أريد رؤيتهم قبل الذهاب. لا أفكر اليوم، أكثر مما فكرت في السابـــق، في تضخيم مخاطر الرحلة الطويلة التي كنت سأقوم بها ولا بالنتائج التي ستترتب عليها، فالحقيقة إن مجرد التفكيـــر بأني سأكون **في قلب الثورة السوفياتية** كان يمنعني من التوقف عند ذلك. إلاّ أن هذه المخاطر كانت موجودة، ولم تكن كلها خيالية. وأتاحت لي هذه الزيارة السريعة أن أرى بنفسي الحالة الراهنة للحركة النقابية القوية جدا في هذه المنطقة. في طريقي، وجدت صدفة في مكتبة محطة «جيرون» (Gerone) كتابا، ظهر للتو، حول النقابية الثورية والاتحاد الوطني للعمل (C.N.T.) يقدم هذا الكتاب معلومات محددة هامة عن المؤتمر الأخير لهذه المنظمة ذات الميول الفوضوية النقابية المنعقد في مدريد (كانون الأول 1919) والذي تقرر خلاله الانضمام إلى الأممية الثالثة وصوت على القرار بالإجماع، وأعلن المؤتمر، بالإضافة إلى ذلك، تأييده لديكتاتورية البروليتارية وهذا حدث هام جدا يمكننا بواسطته قياس المضاعفات التي تركتها في العالم ثورة أوكتوبر. لقد كان قادة الانتفاضة المنتصرة ماركسيين، واشتراكيين ديموقراطيين، ولو أنهم من النوع الذي صادفناه حتى هذا الوقت في الحركة الاشتراكية العالمية. ولم يتردد هؤلاء النقابيون الثوريون الاسبانيون، أعداء «السياسيين»، والأحزاب السياسية، عـــن التجاوب مع ندائهم. ويقول جواكين مورين في تعليقه اللاحق على هذه القرارات: «لقد عرفت الحركة النقابية تحولا فعليا» إن وضعهم هو مثل وضع النقابيين الثوريين في إيطاليا، ومثل وضعنا.

كنت في اسبانيا عندما استطاع النقابيـــون عقد مؤتمر علني كبير في مدريد في حين كان التنظيم نفسه، وفي الوقت نفسه، محلولا في برشلونة. كان أعضاء التنظيم هنالك ملاحقين من قبل الشرطة العادية ومن قبل شرطة خاصة أوجدتها تنظيمات أرباب العمل، وكان ثمة قانون يمنح الشرطة الحق في الإعدام العلني للرجال الذين تقرر إعدامهم. وكان الفوضويون النقابيون يردون باغتيالات فردية تطال المسؤولين عن هذه الجرائم والوشاة وكان هذا نضالا قاسيا ومستمرا. ووجدت صعوبة كبيرة في الالتقاء ببعض الأصدقاء الذين كنت قد تعرفت عليهم في رحلات سابقة. وقد أكدوا لي، وأكملوا ما كنت قد عرفته من خلال الصحف والمراسلات حول الحركة العمالية أثناء الحرب. لقد عرفت كاتالونيا في ذلك الوقت فترة ازدهار استثنائية اذ كانت مصانعها تعمل بملء طاقتها من أجل المتحاربين، أي من أجل ألمانيا وفرنسا على حد سواء. لم ينجح هذا الازدهـــار في تخدير الوعي الثوري لدى العمال، بل أثاره.. وجاءت الثورة الروسية لتحمله إلى حده الأقصى، ما أدى إلى حصول إضـــراب عام في سنة 1917 هدد في المدى الذي وصل إليه النظام كله.. بالمقابل، لم تكن كاتالونيا الصناعية العمالية المنطقة الوحيدة التي يثيرها اضطراب داخلي، فقد عرفت المقاطعات الزراعية الجنوبية، ولو على مستوى أدنى، محاولات تمردية ضد ملاك الأراضي الكبار وخاصة في أندالوزيا Andalousie لم تكن المهمة العاجلـــة بالنسبة للثوريين سوى التنسيق بين هاتين الحركتين. أمّا الآن فان العمل السري يستغرق جهودهم كلها. فبينما كنت أشرب فنجـــان القهوة الأخير كان باعة الصحف المسائية يعلنون نبأ اليوم: اغتيال أحد أرباب العمل في سان جيرفازيو.

* * *

في باريس التقيت بالرفيق الروسي الذي دبر لي، الرحلـة ستسنح لي الفرصة للكلام عنه في الصفحات اللاحقة، وللكلام عن اختفائه المبكر عن المسرح السياسي حيث لم يلعب سوى دور لا شأن لـه. عرض علي المخرج الذي تخيله: كان الحزب الاشتراكي الإيطالي قد قرر لتوه إرسال بعثة هامة إلى روسيا ويشترك فيها قادة الحزب والزعماء النقابيون الرئيسيون ستكون البعثة كبيرة إذن وسترحل دون صعوبات بجوازات سفر عادية وبكافة التأشيرات الضرورية. فالاشتراكيون هم الحزب الأكثر

عددا في البرلمان، ونفوذهم واسع جدا في المدن والأرياف، وقد بدت الحكومة مستعدة لتسهيل رحلتهم، ولم يبق سوى الاستفادة من هذه الظروف لإرسالي ضمن البعثة. وهذا، في الواقع، بسيط، وقد بدا لي جميلا جدا، لذا اتفقنا على موعد في ميلانو.

لقد كان لي بالضبط الوقت الكافي للوصول، فقد استطعت اللحاق، في مودان، بالقطار الأخير المسموح له بالرحيل قبل إيقاف العمل – بعد أن أعلنت النقابة إضرابا. كان المجلس الوطنـــي للحزب الاشتراكي مجتمعا تلك الأيام في ميلانو. طلبت بورديغا الذي كنت افترضه قريبا جدا منا: انه قائد الشق الإستنكافي أو الممتنع، وهو يدافع بنجاح عن موقفه في أسبوعية تعبر عن هذا الاتجاه، «السوفيات». وقد أصر مباشرة، خلافا لما كنت أتوقع، علـــى الابتعاد بوضوح عنا. وشرح لي مطولا بفصاحة يحسده عليها في المؤتمرات المختزلون، انه ليس متفقا تماما معنا، وانه يعتبر النقابية الثورية نظرية خاطئة معادية للماركسية، وبالتالي خطرة. فوجئت بهذا الانفلات غير المنتظر، إلا أنني اطلعت جيدا على وجهة نظر هذه المجموعة المعادية للبرلمانية. قادونا فيما بعد إلى المنزل الشخصي «لسيراتي» (Serrati) مدير الـ Avanti – يومية الحزب – حيث كان يجري لقاء حميم وذو طابع مختلف. إن «سيراتـــي» هو أحد أكثر المتأثرين بمؤتمر زيمرفالد نشاطا، كما أن صحيفته الممتازة هي الأكثر إطلاعا حول الحركة الأممية ، وكان قد جاء إلى باريس أثناء الحرب حيث إلتقيته في مكتب ميرهايم، أيام كان هذا المكتب مكان لقاء جميع البلدان. كان موجودا هناك، عدا سيراتي ونائبين إيطاليين، بعض الهنغاريين والنمساويين، وروســي، وبلقانين: روماني وبلغاري، وفرناندو لوريو، الزعيم الاشتراكي للزيمرفلديين الفرنسيين الذي وصل في العشية، إنها عناصر مؤتمر أممي فعلي كما نرى.

إن هذا المؤتمر الصغير، والمؤتمرات من هذا النوع التـــي سوف أشارك فيها في طريقي إلى موسكو، هي، قبل كل شيء، اجتماعات لتبادل المعلومات. كان كل واحد من المشتركين يعرف بصورة عامة ما حصل في أوروبا والعالم، إلاّ أنه كان متشوقا ليعرف المزيد، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالأمم البلقانية وأمم أوروبا الوسطى التي هزتها الحرب، أكثر من غيرها، كما هزتها الحركات الثورية لفترة ما بعد الحرب، وليعرف كيف تطورت أوروبا الولسونية هذه... هذا العالم الخيالي لمثقف أميركـــي ليبرالي، الأستاذ كالفاني، وكان رفاقنا البلقانيون من جهتهم متشوقين للمعلومات حول الحركة العمالية في أمم أوروبا الغربيـة الكبيرة. غير أن الانتباه تركز على إيطاليا، إذ أننا موجودون في ميلانو في وقت تمر به البلاد في وضع ثوري. وعندما طلبنا من «سيراتـــي» أن يقدم عرضا لذلك اعتذر، وطلب من النائب «ساسيـــــردوس» أن يقوم بذلك. قدم لنا هذا نوعا من تقرير إداري أورد فيه عـــدد النواب الاشتراكيين، والبلديات الاشتراكية، والمناطق والمدن والأرياف المكتسبة إلى الاشتراكية، والنمو المطرد للنقابات، والاضرابات العامة التي تتدخل الطبقة العاملة بواسطتها في الحياة السياسية عندما يطرح أي موضوع هام. وكان هذا هاما، ومؤثرا ومشجعا إلاّ أننا كنا ننتظر شيئا آخر. وقد أدرك «سيراتـــي» ضرورة التعليق، فاستنتج من المعطيات الإحصائية التي دونهـا: «إننا نسيطر على المدينة والريف، ويستجيب العمال لنداءاتنـــا، وليس الفلاحون أقل حماسا ففي عدد كبير من القرى الريفيـــة استبدل رؤساء البلدية، في بلدياتهم صورة الملك بصورة لينيـــن. إننا نملك قوة، ونملكها إلى حد لا يسمح لأحد بإنكار ذلك، والمشكلة الوحيدة بالنسبة إلينا هي استعمال هذه القوة» إنها في الواقـــع المشكلة الكبيرة لدى عمال جميع البلدان، إلاّ أنها مطروحة هنا بصورة أكثر إلحاحا من أي مكان آخر.

تعرفت في ميلانو إلى أشخاص جدد، بالإضافة إلى الذيـــن كنت أعرفهم في السابق: الفوضوي ايريكو مالاتيستا، وسكرتير الاتحاد النقابي الإيطالي، أرماندوبورغي. إن مالاتيستا هو أحد الأوجه الساطعة للفوضوية، وقد اضطر أكثر من مرة للهرب إلى ايطاليا تخلصا من القمع إلا أنه كان يعود فيظهر عندما يصبح الوضع مناسبا – كانت عودته هذه المرة مفروضة على الحكومة المترددة أمام تهديد المسجلين البحريين بالإضراب – ويستعيد نشاطه كمـــا لو أنه سافر في العشية. كنت أعرفه جيدا، وقد قرأت له منذ مدة طويلة عندما قابلته، للمرة الأولى، في لندن، حيث وجد ملجئا عندما كانت الحياة في إيطاليا لا تطاق بالنسبة له وقد عرفت الحركة التمردية التي كانت تهز إيطاليا بعمق عشية الحرب العالمية، كل مداها وأهميتها في «أنكون» (Ancone) حيث يصدر مالاتيستا مجلة أسبوعية Volonta وأصبح، هو وأصدقاؤه، سادة المنطقـــة المجاورة والمدينة لمدة أسبوع. وقد سحقت القوى الحكومية التمرد الذي ضايقه القادة الاصلاحيون، واضطر مالاتيستا مرة أخرى للهرب إلى ملجئه اللندني. عاد من ثم إلى ايطاليا في الأيام الأولى من 1920، وأقام في ميلانو، حيث أخذ يستعد لإصدار جريدة يومية «الإنسانية الجديدة» وقد ذهبت لرؤيته هناك. تتألف مكاتـــب الجريدة من غرفة مربعة تتسع بالضبط لأربعة طاولات، واحدة في كل زاوية، يجلس إليها المحررون. كان مالاتيستا يعمل على طاولته وكان الجميع في غمرة تحضير العدد، فاتفقنا على موعد في المساء. وقد صحبت معي أرماندو بورغي من الاتحاد النقابي.

كان مالاتستا قد خصص مقالته للأممية الثالثة، وكان يطرح هذا السؤال: ما هي؟ كان يطرح السؤال بتعاطف وتأييد، غيـــــر أنـــه لا يجب أن يطلب منه في هذه اللحظة أكثر من ذلك، إنه يريد في البداية أن يطلع قبل أن يقرر الانضمام. كان الحزب الاشتراكـــــي قد انظم بلا تحفظ، وكان ينشأ بين المستجيبين لنداء موسكو نوع من التعاطف تخف بعده التناقضات

القديمة. لكن مالاتيستا الذي يعرف جيدا قادة الحزب الاشتراكي الإيطالي يستطيع أن يتساءل كيف وافقت بعض عناصر الحزب وخاصة القادة الاصلاحيون ل
«Confederazione General del Lavaro»

على هذا القرار، وهذا التساؤل هو، بلا شك، أحـــــــــد أسباب انتظاره. إن الصراحة هي واحدة من الصفات التي يعطيها قيمة كبيرة، وقد كان هو نفسه غير جدير بإخفاء تفكيره أو التخفيف منه، وقد قدم الدليل على هذا أثناء الحرب عندما أخذ موقفا معاديا لكروبوتكين Kropotkine وللفوضويين الذين التحقوا بالحرب في مقال قاس بعنوان «فوضويو الحكومة»، ورغم أنه كان يكن إعجابا كبيرا للنقابة الثورية فإنه كان يصر دائما على أن يحدد أن النقابية والفوضوية مفهومان متميزان بالمقابل، لم يتأخر بورغي وتنظيمه النقابي الثوري عن الانضمام، فقد صوتوا على هذا القرار مثل رفاقهم الاسبانيين ومثل أقلية الـ C.G.T. (الاتحاد العمالي العـــام) في فرنسا.

في اليوم التالي حدث حوار واسع مع «ايفان» (الاسم الـذي أطلقه على مرافقي) والشيوعي الروسي الذي إلتقيناه في اللقـاء الأممي عند «سيراتي» إنه يختلف اختلافا شديدا عن «ايفـــان»، ولو أني لا أملك معلومات عن أصوله وسيرته السياسية فإنني أستطيع أن أتصور أنه ينتمي إلى هذه الفئة من المثقفين والتقنيين الذين أعادتهم ثورة أوكتوبر إلى العمل الثوري، والذين يمثل المهندس كراسين نموذجا كاملا لهم. وهو يعمل مع «سيراتي» في إصدار المجلة الشهرية Comunismo، ويقول: «تسبب لي المجلة عملا شاقا، إذ يتوجب علي أن أفعل كل شيء، ولهذا لم أستطع الذهاب إلى أي حفل موسيقي منذ أن جئت إلى هنا!»

ظهر سريعا خلال نقاشنا أن الحيلة الرائعة المتخيلة لتسهيل رحلتي قد سقطت وذلك بمجرد أن تكلمنا عنها بصورة محددة. فالاشتراكيون الإيطاليون، لأسباب عديدة، غير مستعدين إطلاقا لأن يعرقلوا أنفسهم بي، فهم ينتظرون أن يرحلوا كمواطنين محترمين ومزودين بجوازات سفر موثوق بها، ليصلوا إلى موسكو كزائرين في ThosCook أصبح من الواجب إيجاد طريقة أخرى. وكان البديل المرتجل يتضمن انعطافا طويلا عبر فيينا، مع توقف في البندقية حيث يجب على «ايفان» أن يوافينا.

عدنا والتقينا، إنما في ظروف أوحت لي بشكوك جدية حول مؤهلات ايفان كمنظم لرحلات سرية. إذ انه لم يصل في القطار الذي اتفقنا عليه ولا في الذي يليه، ولم نشاهده سوى في منتصف اليوم الثاني، وصدفة، أثناء نزهة عبر المدينة وكان واقفا يتابع سيـر غندول في القنال الكبير.

3- أول أيار في فيينا

تعين الحدود النمساوية بوضوح الانتقال إلى أوروبا الأخرى، وكان من الضروري صرف صباح بكامله للانتهاء من الرقابات، والتحقيقات، والزيارات التي لا تنتهي. كان القطار مؤلفا من قاطرتين تكدسنا فيهما، وأخيرا أقلع. كانت مشيئته توفر لي الوقت الكافي للإعجاب بالمنطقة الرائعة التي كنا نجتازها لولا طلاقة لسان رفيقي، فقد كان ثرثارا روى لي كل أنواع القصص، وهي قصص لا يخلو بعضها من فائدة، اعترافه لي مثلا باحترامه لكروبسكايا. لقد عمل في سويسرا سنوات طويلة، وكاد ينغمس في حياة لهو سخيفة لو لم تنقده كروبسكايا بنصائحها العاقلة، وبالتأثير الخفي الذي تمارسه رفيقة لينين على كل من يقترب منه، خاصة إذا ما تذكرنا بساطة حياته.

إلاّ أن هذا كان مجرد استثناء، إذ انه كان يكذب ببلاهة: «لاتزال المجاعة موجودة فر روسيا، إلاّ أن كل ما نجده هو من الطراز الأول» في حين أنه كان يعرف أنني سوف أجد هناك خبزا رديئا أسود. كان هذا كريها، فقد كنت أتوقع أن تكتفي روسيا السوفياتية بمبعوثين ثقاة، إلاّ أن اكتشاف هذا البلشفي ترك في نفسي انطباعا سيئا. فحول المسألة التي يعرفها أكثر مني، والتي كان يمكنه الكلام عنها كلاما ذا فائدة، كان يبدو شديد التحفظ. ففي المؤتمر الذي عقده الحزب الشيوعي الألماني الشاب، في أوكتوبر مؤتمر هايدلبرغ – انشق الحزب حول البرلمانية والتنظيم النقابي. فقد أعلن قسم محترم من المندوبين، وبقوة، أنهم ضد أية مشاركة في العمل البرلماني، ومع ترك النقابات الإصلاحية التي اقترحوا استبدالها بتنظيمات عمالية جماهيرية جديدة. اصطدم هؤلاء المندوبون بقيادة متصلبة، وأبعدوا عن الحزب، إلاّ أنهم سرعان ما أسسوا حزبا آخر. الحزب الشيوعي العمالي الألماني. لم أكن أملك حول هذا الموضوع سوى معلومات عامة وملخصة، وكان بودي معرفة المزيد، إلاّ أن «ايفان» كان يتهرب عندما أسأله، فهو يعرف أنني، كنقابي، معاد للبرلمان، ويخاف جدا أن أتأثر بهذا الانشقاق.

كان الوضع في فيينا، هذا الربيع من 1920، رهيبا. البؤس المنتشر في كل مكان يؤذي من يراه، ويتجلى هذا البؤس في الثياب الممزقة وفي الإنهاك الجسدي الظاهر على أجساد العاملين، وفي واجهات المحلات ذات الصناديق الفارغة. ما أن انتهت الحرب حتى سارع المهربون من كل مكان لنهب عاصمة الإمبراطورية الكبيرة المنهارة، وكان الإيطاليون، بحكم قربهم، أول الواصلين، وكان يزيد من تمتعهم كونهم يسرقون «العدو الوراثي». كان كل ما نراه ونسمعه موجعا.

كانت الأيام الثلاثة التي قضيناها نسخة من إقامتنا في ميلانو: اجتماع أممي صغير وزيارة لفوضوي معروف جدا. كان الهنغاريون يسيطرون هنا على الاجتماع، وهم الذين نجحوا في الهرب عندما انهارت الجمهورية الشابة أمام هجوم مرتزقة الحلفاء الرومان، والذي كان من نتيجته أسر بيلاكون Belakun كان موجودا بينهم الاقتصادي أوجين فارغا الذي يملك بعض المعلومات عن فرنسا، وقد سألني أسئلة متعددة بينها، واحد عن فرانسيس دولايزي وكتابه «الديموقراطية وأصحاب الأموال» الذي يؤكد فيه أن سادة فرنسا، ليسوا الحكام «الديموقراطيين» بل الحكام هم أصحاب الأموال، هذا العدد الصغير من الرجال الذين نجدهم في المجالس الإدارية لكل المشاريع الكبرى – هذا ما أصبح فيما بعد، أيام الجبهة الشعبية، موضوعة «المئتى عائلة» عرف هذا الكتاب الخفيف والسطحي بعض النجاح في فرنسا، وتجاوز الحدود كما أتضح لي الآن. تصدر هذه المجموعة الشيوعية في فيينا مجلة Kommunismus إلا أنها على عكس Comunismo ميلانو، ذات اتجاه «يساري» كما أن تحريرها أكثر طرافة وشخصية وأقل ارتباطا بالمواقف المعتبرة إذ ذاك رسمية.

كان الفوضوي الذي زرته فيما بعد مختلفا تماما عن مالاتيستا إنه رجل مكتبات بالإضافة إلى كونه رجل نشاط. وكان قد كتب، بين كتابات أخرى، كتابا حول باكونين دون أن يجد له ناشرا، أو أنه لم يحاول أن يبحث لأنه ذو عنفوان متشكك ويكره التوسل، فاكتفى بأن طبع منه عددا محددا مخصصا للمكتبات الكبيرة حيث يكون بمقدور البحاثة والمؤرخين والدارسين مطالعته. لقد أثرت عليه سنوات الحرب الطويلة تأثيرا قويا بالتحريمات التي تفرضها وبإجباره على عدم الخروج من النمسا. لم يكن غنيا، إلاّ أنه يملك مصادر كافية ليعيش على سجيته متجولا من مكان إلى آخر طالبا الانشراح وملبيا حاجات الأبحاث التي تفرضها أعماله. وكان قد جمع حول الحركة العمالية بصورة عامة، وحول الفوضوية بصورة خاصة، عددا هاما من الأعمال التي كانت موجودة في مستودعات مدن عديدة كان هذا هو اهتمامه الكبير. عندما وصلت إلى منزله كان مشغولا في تحضير عشائه: صحن فاصولياء.. وإذا كنا خارجين سوية لاحظت أن ثمة شيء ما على قبعته، فقال لي: «هذا بغية عدم نسيان توزيع السجائر، إذ أنني لا أدخن وأبادل السجائر ببعض الغذاء» تلك كانت الحياة في فيينا، في شهر نيسان 1920 وهذه هي الحالة التي أصبح فيها رجل حر بفضل الحرب ومحروماتها.

ذات مساء، إذ كنا نتنزه في ضاحية فيينا استوقفنا نيتلو وقال بلهجة تشوبها المرارة: «من هنا يمكننا أن نرى ما يسمى تشيكوسلوفاكيا» لقد كان موقفه من الحرب مثل موقف كروبوتكين، إنما مقلوبا، فهو مع الدفاع عن الحضارة الجرمانية ضد البربرية الآسيوية. توقفنا في إحدى الحانات التي يقصدها الناس العاديـــون كل نهار أحد، إلاّ أن الزبائن كانوا قليلين، وقد كفى كأس نبيذ أبيض وبعض حلوى لتغيير وجه صاحبنا، فتوردت خدوده وحل محل تحبير الحزن والتعب الذي لم يفارقه نوع من الحيوية.

كنا وصلنا في أول أيار، وكانت المظاهرة التقليدية مؤثرة إذ انها ارتدت طابعا أمميا بمشاركة الإيطاليين والهنغاريين فيها. وكان الهنغاريون، رغم كونهم مهزومين، يؤثرون بقوة، إذا كانوا ينشدون «الأممية» بوقع دقيق، ومختلف تماما عن الغناء الرتيب العادي، ترافقه مشية إيقاعية.

4- تشيكوسلوفاكيا مازاراك

تقدم براغ نقيضا مطلقا لفيينا: ففيها حلت الوفرة محل البؤس والفرح محل الحزن، تفيض المخازن بالمؤن، وتولد الدولة الجديدة بالقدر الذي استطعنا فيه أن نلاحظ ذلك في يوم واحد، ضمن شروط ملائمة جدا. والود الذي يبديه الأهلون للفرنسيين يصل إلى حد الإزعاج، إذ لا يمكنك منع أحد الشبان التشيكيين من الاستيلاء على حقيبتك ووضع نفسه تحت تصرفك ليدلك على المدينة. ورغم أني لم أتأثر أبدا بمطالب الاستقلال القومي، فلقد وجدت أن لهذه الحيوية المرحة التي تبديها هذه الأمة الشابة جانبا لطيفا. كان التشيكيون والنمساويون يصطدمون في كل شيء، حتى داخل المؤتمرات العالمية، ويخلق اصطدامهم الحاد، كاشتراكيين ونقابيين، منازعات كثيرة، إلا أن التشيكيين المطالبين بتمثيل قومي مستقل، يستطيعون بعد اليوم العيش كجيران طيبين.

إلا أنه ليس من الضروري البقاء طويلا في براغ للشعور بشكوك جدية حول هذا الموضوع. فالصراف الذي قدمت إليه عملة نمساوية أعادها لي باحتقار قائلا أنه لا يتلقى عملة من هذا النوع.. في فيينا قمنا بزيارة لسكرتيرة الفرع النمساوي للرابطة الأممية للنساء من أجل السلم والحرية، وقد ناضلت في سبيل أفكارها رغم كل المخاطر، أثناء الحرب، رغم الضيق النمساوي والتقسيم السخيف الذي جعل النمسا أمة غير قابلة للحياة، مخلصة لأمميتها المسالمة. إلا أن المرأة التشيكية التي أرسلتنا إليها لا تشبهها في شيء. فزوج هذه الأخيرة يحتل مركزا مرموقا في الدولة الجديدة – إذ أنه كان يوجد مناصب عديدة شاغرة بعد التحرير، وكانت هي نفسها تدير مؤسسة حديثة: وليس مطروحا بالنسبة إليها المشاركة في نشاط أممي.

كان التشيكيون فخورين برجلي الجمهورية الكبيرين: مازاريك وبينيس، وبالإعجاب الذي يكنه ويلسون لهما، وكانوا يتكلمون عن الثورة الروسية بنفور واحتقار: سوف تظهر تشيكوسلوفاكيا للعالم ما هي الديموقراطية الحقيقية. يمكن التصور، بواسطة هذا المثال، شوفينية التشيكي العادي. تتضمن الدولة الجديدة عددا من الأقليات القومية، ليس أقل مما كان في النمسا القديمة، ويخشى ألا تعاملها بصورة أفضل.

كانت براغ شيئا مختلفا تمام الاختلاف: لم يحصل فيها، كما في ميلانو وفيينا، اجتماعا أمميا، إذ لا توجد أسباب تدعو الشيوعيين للمجيئ إليها، في حين يوجد أسباب تدفعهم لتجنبها. كان مازاريك، الكبير – عدائيا حيال البلشفية وثورة أوكتوبر، كما ان المساجين التشيكوسلوفاكيين الذين سمحت لهم الحكومة السوفياتية بالعبور عبر سيبريا وفلاديفوستوك تحولوا فجأة ضدها وانضموا إلى كولتشاك. لم أستطع سوى تدبير لقاء مع الصحفيين الاشتراكيين. كان هؤلاء ينتمون إلى اليسار وكان الصراع محتدما داخل الحزب، فالقادة يريدون المحافظة على الائتلاف الذي تحقق أثناء الحرب بين البرجوازية الوطنية – مازاريك، بينيس – والحزب الاشتراكي الديموقراطي، رغم نقد معارضة قوية تطالب بالانفصال والعودة إلى سياسة الصراع الطبقي الاشتراكية (تم الانشقاق بعد بضعة أشهر في أيلول 1920، وأسس الجناح اليساري في الحزب الاشتراكي الحزب الشيوعي الذي انظم إلى الأممية الثالثة في أيار 1921). لقد ذهلت للطريقة التي تحدث بها هؤلاء الصحافيون عن بوهومير سميرال Bohumir Smeral – الذي سيصبح زعيم الحزب الشيوعي، وهو انتهازي أكيد، وقد برهم على ذلك عندما كان نائبا في البرلمان أيام حكم آل هابسبورغ. لقد كانوا محرجين، دون أن يستطيعوا لإنكار إعجابهم بحنكته كسياسي داهية. ورددوا مرة أنه«لا يمكن فعل شيء بدون سميرال» كما لو أنهم يجيبون على اعتراض حاضر أبدا.

5- كلارا زيتكين – شليابنكوف، تظاهرة ضخمة في برلين

في برلين وجدنا «إيفان» الذي فقدناه تماما منذ فيينـــــا، إذ وقعت له مصاعب غير منتظرة على الحدود التشيكوسلوفاكية المحروسة أفضل مما كان يعتقد. كانت زيارتنا الأولى لكلارا زيتكين وهي تسكن عادة في شتوتغارت وتحتفظ بمسكن صغير في برلين بالقرب من Potsdamerplatz وتسهر سكرتيرة شابة علـى راحتها: «لا تجعلوها تتكلم كثيرا، فهي تعبة في هذه اللحظة» غـير أن هكذا طلب لا يوجه إلينا، ف كلارا زيتكين تتكلم باندفاع ليس من السهل وقفه. قدمت لنا عرضا مثيرا للاهتمام للوضع العام فـــي البلاد وللحياة الداخلية وبمختلف الأحزاب الاشتراكية، وهو عرض قريب من أسلوب خطابات الاجتماعات العامة، أي أنه لم يصل إلى عمق الاختلافات بل بقي في العموميات، وثم، عندما أردنا الانسحاب صرخت بنا«أتعرفون، إن لجسمي مقدرة مذهلة على التمـــدد، وذلك بلا شك، لأن الدم الفرنسي يجري في عروقي!».

نصحتنا كلارا بأن نرى بول ليفي الذي يقود، معها، الحزب، والمنخرط أكثر منها في حياته الداخلية. لم أكن أعرفه، إلاّ أن شيوعيا هولنديا كنت قد إلتقيته وهو على إطلاع واسع على الحركة الاشتراكية الألمانية، رسم لي صورة عنه. إنه محام، ابن مصرفي، غني نوعا ما، يسكن شقة مريحة، وقد عاش في سويسرا أثناء الحرب وتقرب من لينين والبلاشفة، وشارك في مؤتمر كينتال، وناضـــل منذ عودته إلى ألمانيا، إلى جانب كارل ليبكنيخت وروزا لوكسمبورغ وكان في الوقت نفسه محاميها. إنه رجل مثقف، مطلع، جديـر بتحاليل لامعة، إنما عاجز عن الاستنتاج وحتى عن صياغة النتائج الطبيعية لتحاليله. ويبدو أن أصوله وطريقته في العيش تمنعه مـــن أن يصبح قائد حزب عمالي ثوري. وإذا كانت كلارا زيتكين قد بدت متفائلة وملأى بالحماس، فإنه كان متشائما ونواحا. وكـــان الشيوعيون الذين قاوموه في هايدلبرغ خصمه اللدود، كان معقدا منهم، كما أن النزاع بينهم يأخذ طابعا شخصيا. فهو يـــرى أن النقابيين ليسوا رفاقا أكيدين من الوجهة السياسية إذ يمكن لهم أن ينجذبوا نحو العداء للبرلمانية الذي يمثله الحزب الشيوعـــي العمالي. حاولنا أن نتكلم في أمور أخرى لأن النقاش أصبح مضنيا ومستحيلا، ويعود باستمرار إلى هذا التعارض المخيف.

توقفت البعثة الإيطالية، التي تركت ميلانو بعدي بقليل، في برلين. وكان الشيوعي الروسي الذي وجدته لدى سيراتي هنـــــا وقد طلب مني أن أذهب لأراه. وإذا كنت ذاهبا إلى العنوان الذي أعطاه لي التقيت صدفة بسيراتي. «لقد رجوني أن أنتظر فـــي الشارع. هذا سخيف. أنا لا أجازف بشيء فمعي جواز السفـــــر، أمّا هو.. ما هذه الطرق التآمرية الخاصة» وكان يتحرق غيظـــا عندما أتوا لأخذنا. والغريب في الأمر هو أنهم يكونوا يملكـــــون ما يقولونه لنا، باستثناء بضعة نصائح سطحية من أجل بقية الرحلة.

التقينا في برلين بمسافرين آخرين يقصدون موسكو، وكانوا ينتظرون، مثلنا، اكتشاف طريق ممكن. وبينهم انجيل بيستالنـا Angel Pestana سكرتير الاتحاد الفوضوي – النقابي الاسباني، والبلقانيون الذين رأيتهم في فيينا، وفي يوم آخر التقينا ببلغاريين ثلاثة بينهم كولاروف، وهم شيوعيون من نمط جديد من حيث مسلكهم وثيابهم، ويشبهون الأغنياء والتجار الموسرين: لا خطر من أن تستجوبهم الشرطة أثناء المداهمة. إلاّ أنهم يدعون الانتماء إلى البلاشفة، ويدافعون عن الاشتراكية والصراع الطبقي. أمّا في الحقيقة فلم يكن ذلك أكثر من نزاع بين جيسد وجوريس كما سوف تظهر التجربة. اتصلنا بعدد كبير من مناضلي الشبيبة الشيوعيـــــــة، كانوا جميعا لطفاء ومتحمسين. وكانت لهم مآخذ على قيادة الحزب ومأخذ ضد الأممية الشيوعية أيضا – إلاّ أنها ليست مآخذ الحزب الشيوعي العمالي الألماني، فهم يأخذون عليها بشكل خاص أنهـا ليست ثورية كفاية.

كنا في الوقت الذي غزت فيه، مرة أخرى، بولونيا بيلسودسكي Pilsudski أوكرانيا وحاولت إلحاقها بها. لقد كان العـــدوان صريحا إلى حد دفع بحكومة لويدجورج إلى رفض كل مساعدة لبولونيا، وقاد قادة الأممية الثانية إلى الطلب من فروعهم فضح المغامرة بواسطة اجتماعات عامة، ومن النقابات الامتناع من نقل وشحن المؤن نحو فرصوفيا. ونظمت الأحزاب الشيوعية والاشتراكية الألمانية مجتمعة تظاهرة في برلين. وكان مكان تجمع المواكب الساحة الكبرى الواقعة في وسط المدينة بين القصر الإمبراطوري القديم والكاتدرائية والمتحف، ولبت جماهير غفيرة هذا النداء وتجمعت، حسب انتماءاتها، أمام حوالي عشرة منصات وكانت الخطابات كلها تطور موضوعة واحدة وتردد لهجة واحدة، لقد أيقظ بيلسودسكي الكراهية الكافية لدى الألمانيين حتى الاشتراكييـــن منهم حيال البولونيين، وكان للألمانيين مأخذ جديد على البولونيين، انه مأخذ «الرواق» الذي منحته معاهدة فرساي لبولونيا والذي يقطع ألمانيا إلى قسمين منفصلين. وساعة انتهاء الاجتماع دوى صوت بوق، وتمت قراءة قرار والتصويت عليه في الوقت نفسه وفي كل الأمكنة في ظل الهتافات. وانتهت الخطابات معا في

كل المنصات باستثناء منصة الشبيبة حيث إستمرة الخطابة حتى بعد إنـــذار البوق، وأخيرا انتظم هذا الموكب وسار في خطى حثيثة على وقع نشيد الأممية...

كان شليابنيكوف[1] ذلك الوقت في برلين، وكان قد قدم إليها بصفته مندوبا للـ .C.G.T (الاتحاد العمالي العام) في روسيا إلى مؤتمر نقابة عمال المعادن الألمان ومدد إقامته مستفيدا من هذه المناسبة النادرة لجمع الحد الأقصى من المعلومات حول هذا الغرب المقطوع عن موسكو، وليسأل المسافرين المتلهفين لإكمال طريقهم والمضطرين للبقاء في برلين. أعطاني موعدا في مقر النقابة وجعلني أنتظر طويلا قبل أن يأتي، إلاّ أنه عندما وصل كان مغتبطا حدا وقال لي ضاحكا: «أتعرف من كان في مكتبي؟ كاشين وفروسار». ولم يكن هذا بالنسبة لي تعويضا عن الانتظار ولا سببا للاغتباط. فكاشين هو مدير «الإنسانية» Humanite، وفروسار هو سكرتيـــر الحزب الاشتراكي الذي قرر في مؤتمره الأخير المنعقد في ستراسبورغ إرسالهما إلى موسكو «للإستعلام» قبل تقرير الانضمام إلى الأممية الثالثة، مكتفيا بالانسحاب من الأممية الثانية. لم أكن أستلطف لا الأول ولا الثاني، فكاشي رجل لا شخصية له وقد كان شوفينيا متعصبا في بداية الحرب كما قان بمهمات لدى موسوليني بتكليف من الحكومة الفرنسية، ومن ثم سار مع التيار وأخذ يدعـــي أنه بلشفي رغم أنه أدان في مقالاته انتفاضة أوكتوبر وأنه يكن، في أعماقه، كرها شديدا للبلاشفة. أمّا بالنسبة لفروسار فيكفي هنا أن نقول أنه نسخة فقيرة من برياند، وقد ابتدأ متعاطفا مع الزيمفراديين لينتهي وزيرا لدى لافال وحتى بيتان، وسوف نعود فنلتقيه في سياق هذا البحث.

لم تكن الإقامة معدومة الأهمية إلاّ أنها طالت كثيرا ولم نكن نملك لتهدئة قلة صبرنا سوى المحادثات بين المندوبين، إذ كان يصل باستمرار مندوبون جدد. في مقهى باور كانت القهوة رديئة إلاّ أننا كنا نجد فيه صحف كافة البلدان، استقبلت مجموعتنا الصغيرة بسرور الإشاعات التي تدل على قرب الرحيل. لقد نظمت الشبيبـــــــة مسألة العبور، فسنقوم بدورة عبر اسكندينافيا وصولا إلى مورمانسك إلاّ أنها أمل خائبة، واستمر الانتظار، وأصبح من الضروري الرضوخ والاهتمام بالمدينة، وبمحاولات ماكس رينهاردت المثيرة للاهتمام في هذا السيرك الواسع حيث يقدم عرضا متنوعا، من Tisserands إلى «اورفه في الجحيم» ويكون العرض جميلا عندما تتوافق القطيعة مع الإطار، كما بالنسبة ليوليوس قيصر. لم أكن أحب تقديم Tisserands التي سررت بها مسبقا عندما قدمها أنطوان على مسرح صغير في باريس. وفي Lessinger Theater كان إخراج وتمثيل Peer Gynt ضعيفا. كما أننا استمتعنا في الأوبيرا بأمسيات حلوة عزفت فيها الحان فاغنر. بالإضافة إلى ذلك قمنا بنزهات خارج المدينة نحو البحيرات الموجودة داخل الغابات واستطعنا الوصول إلى بوتسدام بواسطة الباخرة.

[1] مناضل نقابي، وزعيم «المعارضة العمالية»، ومفوض العمل في بداية الثورة.

6- من ستيتين إلى ريفال (تاللين)

أخيرا، أخطرنا فجأة، بيستينا وأنا، بأنه يجب علينا الانطـــلاق بلا تأخر، كان ذلك في ساعة متأخرة من الليل، وكان من الواجب علينا أن نستقبل في الصباح أول قطار إلى ستيتين. ومر كل شيء بالطريقة الأكثر بساطة في العالم – باستثناء النهاية حيث طرأت عقبة غير منتظرة، سافرنا في باخرة رائعة أوصلتنا إلى ريفال (التي أصبحت تالين)، واستمتعنا بالتسكع على الجسر، وبمآكل طيبة بعد «الريجييم» الذي فرض علينا في فيينا وبرلين، ولم يزعجنـــــا سوى رؤية مسافرين آخرين سريين، الإنكليزي مورفي والأميريكي فرينا، يجازفان بالخروج من عنبر الفحم ذات مساء، حيث أرغما على البقاء. ورغم أن لا علاقة لي بالأمر فقد استمر مورفي حاقدا علي.

كانت الرحلة ممتعة والبحر هادئ طوال ثلاثة أيام، أمّا في ريفال فكان الصباح سيئا. كانت جوازات سفرنا جيدة ومقبولة إلاّ أننا لم نكن قد طلبنا تأشيرات الدخول الاستونية في برلين، ولذلـــك تم عزلنا عن بقية المسافرين واقتيادنا إلى مقر الحكومة. لقد اتفقت الايديولوجية الولسونية وإرادة التضييق على روسيا السوفياتيـــة لجعل الدول البلطيقية أمما مستقلة، ويترافق مع هذا الإنبعـــــاث، كما رأينا في تشيكوسلوفاكيا، شوفينية تتزايد بقدر ما تكون مساحة البلاد صغيرة وهنا جاء وزير الخارجية بنفسه يتهددنا ويتوعدنا ويصرخ قائلا: «يريدون عدم الاعتراف بنا، إلاّ أننا لن نسمـــــح لهم بذلك!» وعندما حاولنا أن نشرح له، بالتواضع المناســـــب، أن هكذا فكرة بعيدة جدا عنا لم يؤد ذلك إلاّ إلى استثارته وجعله يصرخ بصوت أعلى: «لقد قررنا فرض احترام الآخرين لنا!» كان رجلا صغير القامة وقد أخذ يذرع غرفة مكتبه ملوحا بيديه ورافعا صوته بقدر ما يقترب منا. كان ذلك مشهدا سخيفا وحتى مضحكـا، إلاّ أننا لم نكن في وضع يسمح لنا بالحكم على ذلك، إذ إننا كنا نتساءل عما إذا سنفشل ببلاهة على مقربة من المرفأ. وأخيـــرا، دعينا إلى الانسحاب ريثما يدرس وضعنا على أن يتم إبلاغنـــا بالقـــرار.

ذهبنا إلى البعثة السوفياتية نقص حكايتنا. كان الوزيـــــر جالسا إلى طاولة مع عائلته ومساعديه. دعونا إلى الجلوس والأكل على أن نتكلم عن مغامرتنا في نهاية الغداء. وقادتنا إحدى السكرتيرات إلى مكتبها حيث يتوجب علينا أن ننتظر قرار الحكومة. ومضت الساعات، وكان بيستانا قد وجد موضوعا للحديث، وهو موضوع يسر دائما لتوسيعه: الوضع الحالي في اسبانيا الأكثر ملائمة أكثر من أي وقت مضى لقلب النظام الألفونسي، فالتحـــرك الثوري لم يعد محصورا في كاتالونيا، بين العمال، إذ إنه أخذ يتطور في المناطق الزراعية في الجنوب الخاضعة للنظام الإقطاعي، فالفلاحون يتمردون وحركتهم تتوسع إلى حد جعل الربط بين الحركتين لا ممكنا فحسب بل ملحا. وكانت السكرتيرة تبدو مهتمة بهذا الموضوع الذي قطعه المجيء المفاجئ لرسول يحمل خبرا مشجعا، لم يكن القرار الحازم قد اتخذ بعد إلا أنه يبدو أن المعارضة أخذت تضعف، وقد اسرعت السكرتيرة في الاختفاء مما دفعنا للاعتقاد بأنها لم تكن مهتمة بالمشاكل الاسبانية بالقدر الذي جعلتنا نفترضه.

قضينا صباحا كاملا في اجتياز استونيا، من ريفال إلى الحدود، لا لأن المسافة تفرض ذلك بل لأن سكة الحديد كانت في حالة سيئة في أكثر من مكان، فثمة جسر لم يكد ينتهي إصلاحه يقضي المرور عليه بذل احتياطات جدية. لم يكن قد مر زمن طويل على مرور ايدونيتش من هنا... أوقفوا أيضا في نورفا بسبب شكليات الخروج ووصلنا أخيرا إلى روسيا السوفياتية في ايامبورغ. قفزنا جميعا بحماس من القطار وأسرعنا عبر الطريق نحو بناء المحطة. شكلنا مجموعة صغيرة جدا لأن المندوبين، الذين لم نكن قد رأيناهم بعد، ظهروا فجأة، وأثار الفرح الذي شعرنا به أكثر الناس هدوءا ووجد تعبيرا عن نفسه في عناق عام.

كان الاحتفال الذي جرى في المحطة بسيطا جدا، فعلـــى الجدران لم يكن ثمة ديكور سوى صور كبيرة أربع: لينين، تروتسكي، زينوفييف، لوناتشارسكي. وعاد الشيوعيون الروس الذين جاؤوا لاستقبالنا، معنا، مما حول قاطرتنا وبسرعة إلى ناد للنقـــــاش. وكان فرينا فخورا بأن يرينا كتبا ضخما، مجموعة مقالات لينين وتروتسكي، كان قد جمعها ونشرها واستطاع أن يحملها معـــــه إلى هنا، وهذا شيء جدير بالثناء طبعا. حاول شيوعي روســـي جاهدا إقناعي بالمسألة البرلمانية، وكانت ذريعته في ذلك ترجمة الموضوعات التي لم يكن يملك منها سوى النص الإنكليزي. وقد اجتهد كاتب هذا الموضوعات، كما يبدو بوضوح، أن يصـــــوغ عددا من الأحكام المحددة لا يعود بالامكان لأي من أعضاء الحزب، إذا ما انتخب ذات مرة، أن يتهرب من نظام الحزب ويمارس سياسة شخصية مستخدما نيابته لينجح في مهنته، كما يوجد أمثلة عديـدة على ذلك. عندما أنهيت قراءتي أبدى عدد من جيراني ارتياحهم وفوجئوا برؤيتي غير مهتم، فسألوني «ألا تجد هذا النص ممتازا؟» أجل، إنه جيد جدا، إلاّ أننا نكون قد قمنا بالثورة في فرنسا قبل أن ننجح في فرضه، فجماعة ميلليران وبرايند يضحكون من النواب الأكثر حزما ويقدمون درسا يستفيد منه كل من يريد تقليدهم. وهنا عاد النقاش فاحتدم، وتدخل رفاق آخرون، وخف الأصدقاء الروس للنجدة. «إذا كنت تجد هذا النص غير كاف فاقترح تدعيمه، وثـــق أن تعديلاتك ستعتمد.»

أصبحت الرحلة سريعة الآن بفضل هذه النقاشات المرتجلة القافزة من موضوع إلى آخر، وأخذنا نستمتع برؤية المنظر، منظر روسيا الجديد المنتقلة فجأة من القيصرية المباشرة إلى الثورة المحررة التي تتعلق بها أنظار الثوار في كافة بلدان العالم. عندما استطعت أن أهرب من النقاش للحظة صغيرة، التقيت في الممر بصحافية إنكليزية تراسل، كما قيل لي، الدايلي نيوز، وهي جريدة ليبرالية يومية كانت قد استخدمتها مرارا للحصول على معلومات هامة حول روسيا السوفياتية. ما أن رأيتها حتى دخلت في موضوع الأممية الثالثة، وفي المؤتمر الذي ستعقده قريبا. إلاّ أن رفيقا روسيا فرقنا بصورة خفية، وبعد أن استفسر عن الأسئلة التي طرحتها علي قال لي: «تجنبها، إنها مشبوهة بالنسبة إلينا، لقد جاءت إلى هنـــــا بعد أن أمضت فترة في بولونيا، كما أن الاهتمام الذي تبديه بالأممية الثالثة يزيد عن اشتباهنا بها. – ولكن لماذا تدعونها تدخل؟ - لأنـــه ثمة مصلحة كبيرة بالنسبة إلينا في كشف الجواسيس، فالحكومات البورجوازية تعسى لإدخال عملاء إلى داخل الأممية الثالثة، بالإضافة إلى ذلك، وخاصة، يجب علينا الحفاظ على أمن المندوبين الذين جاؤوا إلى هنا بصورة غير شرعية».

7- بيتروغراد – زينوفييف

وصلنا إلى بتروغراد في بداية السهرة، وهي واحدة من السهرات التي لا تنتهي، إذ أننا كنا في عصر ليالي السهر. وكنا قد قمنا بتجربة ذلك على الباخرة. لم تكن الألغام قد انتزعت بعد بالكلية من خليج فنلندة ولذا اقتربت الباخرة بحذر من الشواطئ. كـــــان كل شيء غريبا، الانتقال عبر جزر الأند والمشية البطيئة للقطبان الذي يقودنا، والليل الذي لا يأتي.. لم يكن بوسعنا تقرير الانتقال إلى غرفتنا للنوم فيها. وحدث الأمر نفسه في بتروغراد. فما أن وصلنا إليها حتى أسرع «إيفان» حاملا معه نصا توجب علي إصلاحه فورا. كان هذا، حسب رأيه، نصا رائعا، كما أنه كان متأكدا مـــن أني سأسر لدى قراءتي له. وقد قلت له، وأعدت، أثناء مناقشاتنـــا أنه يبدو لي مستحيلا بناء حزب شيوعي بواسطة قادة الحزب الاشتراكي، خاصة أولئك من نمط كاشين، الذين تخلوا عـــن الاشتراكية وخانوا العمال في الساعة العصيبة، وتحولوا إلـــى شوفينيين متعصبين، وإذا ما كانت ثورة أوكتوبر قد هزتهم فليـــس ذلك لأنهم تملكوا أنفسهم بصدق، بل لأنهم يريدون البقاء في قيادة الحزب. لم يكن النص العتيد سوى رسالة مفتوحة لأعضاء الحزب الاشتراكي الفرنسي تذكر وتدين بصراحة وبدون نسيان أي شيء جحود قادتهم، وهكذا يصبح متوجبا على المؤتمر مخاطبة الطبقة العاملة من فوق رأس قادة الحزب. ويبدو واضحا أن الرسالة «تحضر» لعودة كاشين وفروسار إلى فرنسا. لم أستطع أن أحنق حول هذا الموضوع خاصة لأني كنت أريد الاهتمام بشيء آخـــر. وقد وصل فيكتور سيرج في الوقت المناسب لإنقاذي قائلا: «دع عنك ذلك، إنه من اختصاصنا».. كان من الفوضويين الذين أجابـــوا على نداء ثورة أوكتوبر والأممية الثالثة. كان قادما من بعيد إذ انه انتمى في شبابه إلى التيار الفوضوي الفردي، غير أنه مر بتجارب قاسية. عندما اندلعت الثورة في روسيا كما هو في اسبانيا، وأسرع بالرحيل آملا الوصول إلى بيتروغراد عبر فرنسا. غير أنه أوقف وسجن في إحدى المعسكرات. واستطاع أخيرا الوصول إلى بيتروغراد بعد أن التحق بقافلة من المعادين. عين في تحرير مجلة الأممية الشيوعية حيث تجد معرفته للغات ومواهبه ككاتب ومشاركته في الحركة العمالية في بلدان مختلفة مجالا للتوظيف. وكان بالنسبة إلينا أفضل الأدلة. وكانت الأسئلة تنهمر عليه من كل مكان إذ اننا كنا نملك الكثير منها لطرحها عليه، أما هو فكان ملتهفا ليعرف أين أصبحت ديموقراطيات الغرب، إذ أن الاتصالات لا زالت صعبة، كما أن الصحف لا تصل بانتظام، بالإضافة إلى كون المراســـلات لا تستفيد سوى من ظروف استثنائية. ويكفي مثل واحد ليبين مدى ندرة المواصلات وصعوبة الإطلاع الدقيق. في الوقت الذي استطاعت فيه «الحياة العمالية» - وكانت تمثل آنذاك الاتجاه النقابي الثوري المنضم إلى الأممية الجديدة – أن تعود إلى الصدور، ظهرت أسبوعية جديدة تحت العنوان الغريب التالي: «العنوان المراقب» مما يسمح بالاعتقاد أن العنوان الذي منعته الرقابة هو «البلشفي»

كانت هذه الصحيفة من صنع فوشيه دوكليمانصو الصغير وماندل، وكان هدفها الأكيد معاكسة «الحياة العمالية» وخـداع العمال. وكان الأمر متفقا إلى حد جعل بعض الريفيين الفرنسيين يؤخذون به. ولذا فإن فيكتور سيرج مغدور إذا ما أدرجها في واحدة من حولياته ضمن الدوريات التي تدافع عن روسيا السوفياتية والأممية الشيوعية.

قادتنا نزهتنا عبر المدينة إلى أماكن أعرفها جيدا من خلال مطالعتي، كانت أثار الحرب موجودة وعديدة، فالمدينة تعرضـت أكثر من غيرها، نتيجة موقعها الجغرافي الذي جعل مسألة تموينها والدفاع عنها مسألة صعبة مما سبب عذابا شديدا لأهلها. مشينـــا على جادة نيفسكي الشهيرة حيث نرى في طرفها الأقصى سهم الـ Amiraute الذهبي، ورأينا كاتدرائية كازان وأبوابها الضخمة، وقصر الشتاء الذي جعلنا نفكر بيوم 22 كانون الثاني المأساوي: الجماهير السلمية التي يقودها الكاهن غابون تحمل التماسا إلى نيقولا الثاني فيكون إطلاق النار هو الرد.

عبرنا نيفا بواسطة جسر ترويتسكي المحاذي لقلعة بطرس وبولس الرهيبة، ودخلنا في ضاحية فاسيلي أوستروف الثورية. وانتهينا إلى ساحة القديس إسحق، إلى فندق استوريا حيث يسكـن قادة سوفيات بتروغراد وحيث كان يملك فيكتور سيرج غرفة. شاهدنا في نهاية الرواق رشاشا موجها نحو المدخل، فقد عاشت المدينة منذ وقت قريب أياما قلقة، إذ إنها كانت مهددة بهجوم جيش ايدونيتش، وكان الإحساس بالحرب الأهلية لا يزال موجودا، كما أن جنود بيلسودسكي كانت قد اجتاحوا أوكرانيا لتوهم.

كان من المفروض أن يذهب زينوفييف في الغد إلى موسكو فاللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية مدعوة، وسوف يأخذ معه المندوبين الذين وصلوا إلى بتروغراد محاولا أن يستفيد من الرحلة ليتصل بهم ويسألهم. كان زينوفييف مطابقا للصورة التي رسمناها عنه: ويعطيه رأسه العريض وكتفيه العريضتين الصلبتين شكل الخطيب الكلاسيكي. كانت المناقشات صميمة تماما، وكان يبدو مسرورا خاصة عندما تتوفر له مناسبة للمزاح غير المؤذي، وقال ضاحكا، لمندوب رفض صحن حساء: «يجب أن تأكل، هذا هو النظام!».

8- موسكو – في اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية. سادول – راديك – بوخارين

في موسكو، نقلنا بسيارات إلى مقر الأممية الشيوعية. وكـــان قد وصل عدد كبير من أعضاء اللجنة التنفيذية، وبينهم جاك سادول (Jaque Sadoul) وكان سابقا في روسيا مع البعثة العسكرية الفرنسية وكان البير توماس مخبره الشخصي. كان سادول ينتمي قبل الحرب إلى أكثر الأجنحة اعتدالا في الحزب الاشتراكي، إلاّ أنـــه تأثر بثورة أوكتوبر وانتقل إلى صف البلاشفة. وتظهر الرسائـــل التي كتبها عندئذ إلى صديقه توماس أنه اضطلع بمهمته بذكاء خارق وهو، إذا ما اعتبرنا الفرنسيين الموجودين في روسيا في ذلك الوقت، أحد القليلين الذين فهموا معنى الأحداث التي شهدوها. وقد حصل البلاشفة على نسخ من هذه الرسائل أثناء حملة تفتيش، ونشروها. وهي رسائل يتوجب استثمارها لمعرفة تاريخ بدايات الثورة. وكانت قراءة هذه الرسائل عام 1918، في اجتماعاتنا في باريس وفرنسا كلها، تثير الحماس: إنها أفضل رد على أكاذيب مراسلي ريغـــا. وكان سادول يعرف ذلك إلاّ أنه سر كثيرا عندما أكدت له ذلك. وقال لي: «كيف أصبحت صديقا **لتروتسكي** إلى هذا الحد؟، فهو يتكلـــم عنك وعن رفاقك النقابيين بحماس دائم، على الرغم من أني أذكر أنه، عندما كنت في فرنسا، لم يكن الاشتراكيون والنقابيون يحبون بعضهم أبدا؟» وأردف قبل أن يتسع لي الوقت للإجابة «إلاّ أنـــــك لن تستطيع رؤيته، فقد غادر موسكو، وهو الآن في إحدى المحطات» وما أن تركت سادول حتى التقين براديك، وقال لي منذ الكلمات الأولى لحديثنا: «لا تنتظر رؤية تروتسكي، فهو مريض ويتوجب عليه أن يرتاح خارج المدينة». كان يفترض في هذه الكلمات أن تجعلني أضطرب، إلاّ أنني لم أكن أملك، في هذا الصباح الكثير الحركة، وقتا للتفكير فيها، كما أنني كنت أعرف أنني سوف أرى تروتسكي.

قبل قليل من بدء الجلسة دخل رجل نحيف بسرية. فقال لـــي إيفان الجالس بقربي: «**بوخارين** إنه زجاجنا الصافي» والتفـــــت إلي جاري الآخر الذي سمع الملاحظة وأضاف مكملا: «للأسف إنك لم تكن هنا بالأمس عندما ظهر كاشين وفروسار سوية أمام اللجنة المركزية للحزب، لقد ذكرهما بوخارين بشوفينيتهما، وبخيانتهمـا في أيام الحرب، كان ذلك مؤثرا جدا، فقد أخذ كاشين يبكي». فأجبتـــه أن دموع كاشين سهلة «فلقد بكى عام 1917 في ستراسبورغ أمام بوانكاريه أثناء الاحتفال بعودة الألزاس إلى فرنسا.»

كان **راديك** سكرتير الأممية الشيوعية في ذلك الوقت. قـــرأ قرارا يعالج المسألة النقابية إذ إنها الموضوع الرئيسي للاجتماع، ويفسر هذا وجود لوسوفسكي الذي لا ينتمي إلى اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية بل انه كاتب النص المطروح للنقاش. والمطروح هو تجميع كافة العناصر النقابية المؤيدة لثورة أوكتوبر وللأممية الجديدة وهذه العناصر موجودة حاليا في التنظيمات النقابية الفوضوية التي انظمت إلى الأممية الثالثة، وفي النقابات الإصلاحية حيث تشكل أقليات كبيرة إلى هذا الحد أو ذاك، اقترح إنشاء «مجلس عالمي مؤقت للنقابات الحمراء» تكون مهمته تسهيل الاتصال بين هذه العناصر وتنسيق عملها. وأثارت جملة في المقدمة تشير إلى خيانة القادة النقابيين جميعا ملاحظة من بيستانا: يجب أن نحدد إذ لا يمكننا مثلا أن نجعل الاصدقاء في الـ .C.N.T بهذه الخيانة. فأيدته وأضفت إلى المثل الذي قدمه مثل .I.W.W في أميركا حيث يلاحق أعضاء هذه المنظمة ويسجنون بسبب نشاطهم الثوري ضد الحرب ومـن أجل الثورة الروسية. في النهاية عدل راديك النص ولو مضطرا، وفي نهاية الاجتماع قال لي أنه لا يفهم رفضي لوم جوهو على موقفه أثناء الحرب، في حين أنهم، أي الاشتراكيين الديموقراطيين، لا يتأخرون حتى عن فضح كاوتسكي. لقد كان مطلعا نوعا ما إنما أقل مما يعتقد، وأظهر لي بملاحظته هذه أنه لم يفهم شيئا من مداخلتنا.

قادونا إلى الفندق الذي يجب علينا ان نسكن فيه أثناء المؤتمر ويقع على مقربة من الكريملين، بعد المدينة الصينية، ويسمى ديبلوفوي دفور Dielovoi Dvor وهو مرتب ترتيبا كاملا: نموذج للبناء الوظيفي، يحتوي على طابقين من الغرف المجهزة ببساطة: سرير، ومكتب، وكرسيين. وتحتل غرفة الطعام القسم الأكبر من الطابق الأول، ويوجد في الطابق الأرضي غرفة اجتماعات. لقدتم ترتيبه بسرعة لإيواء البعثة الكبيرة للنقابات البريطانية التي كانت قد غادرت عندما وصلنا...

كانت البعثة الإيطالية الكبيرة قد استقرت، وكان قادة الحزب والنقابات قد وصلوا في قطارهم المحمل بالمؤن، لقد سمعوا الكثير عن المجاعة إلى حد جعلهم يحتاطون لذلك. كما أنهم احتاطوا أيضا ضد التيفوس بتحضير علاجات ممزوجة ووضعها في المفاصل للإحتماء ضد العدوى. وقد سخرنا منهم بلطف من أجل ذلك، إذ أنهم الوحيدين الذين احتاطوا، رغم أن التيفوس ليس، للأسف، مـــن اختراع مراسلي ريغا. وكان يوجد في بعثتهم: سيراتي، وغرازيادي وبومباشي، كممثلين للحزب الاشتراكي، وبعض الزعماء النقابيين مثل أمناء .C.G.L واتحادات عديدة أخرى: أراغونا، دوغوني، كولومبينو، الذين جاؤوا ليشاهدوا المؤتمر لا ليشاركوا فيه، وبعض الزعماء الآخرين الذين سرعان ما انسحبوا، ولم يصل بورديغا زعيم الجناح الاستنكافي سوى لاحقا ومثله أرماندو بورغي سكرتير الاتحاد النقابي الإيطالي.

كنا نحاول، بعد هذه الساعات الملأى، أن نجمع الانطباعـــات التي تركتها فينا هذه الأحداث واللقاءات، وعندما وصل إيفان وسألنا، أنا وبيستانا، أن نذهب للكلام عن الأممية إلى جنود الجيش الأحمر المرابطين في ضاحية موسكو. اجتازت السيارة حـــــــدود المدينة، ودخلت في الغابات ووصلت فجأة إلى منطقة لا شجر فيها حيث كان الجنود الذين ينتظروننا متجمعين. وضعونا في الوسط وحاولنا، بقدر ما نستطيع، أن نعرض ما كانته الأممية الشيوعية بالنسبة إلينا، وما فعلناه من أجلها في بلداننا وما كنا ننتظره منهـا. ولقد انفعلنا، رغم أن بيستانا معتاد، أكثر مني، على الخطابة أمام الجمهور.

9- تروتسكي

عندما كنا ندخل إلى الفندق قال لي المدير أن تروتسكي تلفن طالبا مني الذهاب لرؤيته ما أن أصبح حرا، وكانت الرحلة قد رتبت تماما، إلاّ أنه يتوجب علي أولا أن أذهب إلى الكريملين. سرعـــان ما غادرت السيارة المدينة، وجرى عبر الريف سباق مجنون، وهذه هي الطريقة العادية في القيادة بالنسبة لسائقي موسكو كما تسنـــى لي أن ألاحظ بعد ذلك، غير أن ذلك كان يسبب على طريق رديئة قفزات فجائية مستمرة، وكانت الطريق تمر عبر قرى مبنية منازلها من الخشب. سرنا على هذا المنوال مدة نصف ساعة قبل أن ندخل في غابة، وسرعان ما خففت السيارة سرعتها: كان تروتسكـي على طرف الطريق مع ابنه الكبير، ليون. لقد كان من حقي ألاّ أقلق: فالرجل الموجود أمامي ليس مريضا.

كانت العائلة تسكن في بيت يملكه أحد أثرياء موسكـــــو. وقد تم تحويل غرفة الاستقبال الفسيحة في الطابق الأرضي إلى متحف عام جمعت فيه كافة اللوحات التي كانت موجودة في المنزل، ولم يكن يوجد بينها صور نادرة بالطبع. كان تروتسكي يسكن، مع عائلته، في غرفتين كبيرتين من الطابق الأول، يستطيع المرء منهما أن ينظر بعيدا في الريف المحيط بالمنزل وصولا إلى التلال التي تحل السهل في الأفق البعيد. كان درج الشرف مخربا والأنابيب معطوبة بفعل التجميد، مما يجعل الراحة في هذا «القصر» مسالة نسبية جـــدا. ولا يمكن السكن في هذا المنزل سوى في الصيف. صعدنا إلى الطابق بواسطة درج «ملائم جدا «للسادة» الجدد السوفياتييـــن» حسب تعليق ساخر لتروتسكي.

استقبلني تروتسكي بانتقاد ملطف: «حسنـــا! لم تعجلوا في المجئ، فثمة ثوريون، وصحفيون يأتون من مختلف أرجاء العالم باستثناء فرنسا». وعندما جلسنا جميعا إلى الطاولة للعشاء قالت ناتاليا ايفانوفنا «ها نحن من جديد كما لو كنا في باريس» فأجبتها: نعم، مضيفا «إن أمور معينة جرت منذ ذلك الوقت». عدنـــا بالذاكرة إلى حوادث جرت أيام الحرب، إلى الفندق الكائن في شارع الأميرال موشيز، وإلى المنزل الصغير في سيفر على حدود الغابة، وإلى المسكن المتواضع في شارع اودري، والمراقبة البوليسية المزعجة التي سبقت المنفى. كان أمامنا يومان بكاملهما لمحاولة الاجابة على الأسئلة التي كان يطرحها كل واحد على الآخر. سألني تروتسكي عن الرجال الذين تعرف عليهم في باريس. وكان اثنان بينهم مونان ولوريو، في السجن منذ ثلاثة أشهر وكانا سيمثلان أمام محكمة الجنايات: إذ أن مليران القلق بشأن تقدم الشيوعية اختلق «مؤامرة ضد أمن الدولة»، وهذا شكل عادي في هذه العمليات البوليسية. لقد وفر إضراب عمال سكك الحديد الذي جرى بقيادة زعماء الاتحاد العمالي العام الذين يتمنون سقوطه، وفر للدولة الذريعة التي تنتظرها لتسجن المناضلين الاشتراكيين والنقابيين الذين يدافعون عن ثورة أوكتوبر والأممية الشيوعية. لم أكن أملك الشيء الكثير عن الحوادث لأطلعه عليه: فقد أتاحت له السنتان اللتان قضاهما في باريس الإطلاع عن كثب ومن الداخل على السياسة الفرنسية ورجالاتها وعلى تطور مختلف الاتجاهات داخل الاتحاد العمالي العام والحزب الاشتراكي. ويكفي تروتسكي الإطلاع على بعض الصحف من وقت لآخر ليضع نفسه تماما في مجرى الأحداث.

أمّا أنا فلدي الكثير لأعرفه، إذ لم تكن معلوماتنا عن المراحل الاساسية للثورة، وعن الانتفاضة، وعن بريست- ليتوفسك، وعن الجيش الأحمر والحرب الأهلية، وعن تنظيم عمل السوفيـــات، سوى معلومات غامضة وعمومية جدا، لقد كان لمؤتمر بريست ليتوفسك ضجة كبيرة في بلدان الحلفاء وفي الإمبراطوريات الوسطيـــة، ولم يقصر ممثلوا البرجوازية في وصف المؤتمر بأنه خيانة مما أصاب بعض العمال بالاضطراب، فلقد استغل أحسن استغلال اللقاء الذي تم حول طاولة واحدة بين ممثلي روسيا السوفياتية ورجال الهوهنزوللرن للمناقشة حول شروط السلم والتوقيع على معاهدة سلمية، وكان أكثر من استغل هذا الأمر الاشتراكيون الذين خانوا الطبقة العاملة في آب 1914. أوضح لي تروتسكي ما كان تكتيكـه في ذلك الزمن: لم يكن بوسع روسيا أن تبقى في الحرب، فالمؤن ناقصة، وتجهيزات الجيش تصبح شيئا فشيئا غير كافية، ويبدي الجنود رغبة في عدم القتال. ولم يبق أمامنا سوى الاستفادة حتـــى الحد الأقصى من دعوتنا إلى السلم. لم يكن الجواب غير هـــام، إلاّ أنـه، للأسف، غير كاف إذ أن الاضرابات التي اندلعت في ألمانيا لم تذهب حتى التمرد العام ضد الحكومة، فقد عمل القادة الاشتراكيون والنقابيون، بكل قوتهم لكبح الحركة. وهكذا أصبح موقف لينين محتما: يجب القبول بالشروط التي يفرضها الألمانيون، تبع ذلك نقاش حاد داخل الحزب، وفي اللجنة المركزية، وبرزت معارضة ثابتة تطالب بالحرب الثورية ضد ألمانيا، وخرق الاشتراكيون الثوريون اليساريون، الموجودون في الحكومة مع البلاشفة، الاتفاق وتركوا مفوضياتهم. قدم لي تروتسكي وصفا حيا للرجال الذيـن قابلهم في بريست ليتوفسك: الجنرال هوفمن وهو غبي محـــدود أخذ يضرب على الطاولة عندما فهم ماذا تريد وتفعل البعثة البلشفية وفون كوهلمن وهو ذكي ولين وذو حركات ومبادرات لطيفة («اني مسرور لأنك جئت، فمن الأفضل أن يتم التعامل مع القادة»)، إلاّ أنـــه قلق بشأن نتيجة الحرب.

إلا أن تروتسكي بقي كتوما جدا حول النقاشات داخل الحزب وحول الاتجاهات التي يمكن أن تظهر. لم يكن يستسيغ الثرثرة إطلاقا، ولا النكات، وكان يراعي بدقة القواعد التي يقبلها إراديا المنضمون إلى الحزب. وهكذا، لم أستطيع أن أعرف شيئا عن الصراع القاسي الذي خاضه ضد ستالين ومؤيديه أثناء فترة الحرب الأهلية، كما أنه لم يقل لي شيئا عن خلافه مع لينين حول العمليات العسكرية الهامة الجارية ضد بولونيا. أمّا فيما بعد، وعندما أرغمه النقاش داخل الحزب على ذلك، قال تروتسكي انه كان ضد الزحف على فرصوفيا.

وجدت في موسكو، فيما يتعلق بالقصص الصغيرة، مخبرا ممتازا: هنري غيلبو، كان قد ذهب إلى جنيف عام 1915 كمسالم و«رولاندي» إلاّ أنه تطور تدريجيا حتى البلشفية تحت تأثير الثوريين الروس الذين التقاهم في سويسرا. وهو يعرف شخصيا عددا كبيرا من القادة السوفيات، وكان مهتما بجمع الشائعات والنكات، مبديا اهتماما أكبر حيال الأشخاص منه حيال الأفكار، يحركه في ذلك تعاطف ونفور معلنان، وكان، قبل كل شيء، كاتبا. كانت تلخيصاته نتيجة ذلك، ملخصة. وقال لي أثناء أحد النقاشات:«لينيـــن (وهو يكن له إعجابا كبيرا) هو اليسار، زينوفييف وكامينيف هما اليمين، إلاّ أن لينين يصر على وجودهما في المكتب السياسي من أجل ذلك بالضبط، أمّا تروتسكي فلا يمكن تصنيفه، في حين أن بوخارين هو اليسار الحقيقي». وذات يوم، فيما كنت أنقل هذا الحديـــث لتروتسكي قال لي: «هذا صحيح نوعا ما، إن بوخارين دائمـــا في الطليعة، إلاّ أنه يلتفت دائما وراءه ليتأكد إذا لم يكن لينين بعيدا» وعندما تعرفت على الرجلين استطعت أن أتصور مشهدا مناسبا لهذه التقديرات: لينين، قباس، قصير، يسير بخطوة متزنة، وبوخارين رقيق، يقفز أمامه، إلاّ أنه يشعر دائما بالحاجة إلى وجوده.

10- في الكرملين – لينين

نهار عودتي إلى موسكو دعاني لينين إلى الكرملين. لقد كان متلهفا ليقيم اتصالا مباشرا مع المندوبين، وليتعرف شخصيا على كل واحد منهم، وليسألهم، كما أنه يهيء المقابلة منذ وصولهم. لم أكن قد رأيته قبل ذلك. إلاّ أن الشيء الذي فاجأني أكثر من غيره في هذا اللقاء هو الراحة التي هيمنت عليه منذ بدايته واستمرت حتى النهاية. كما أني فوجئت أيضا ببساطة لينين، وبالطريقة التي قال لي بها، أنا الذي لا يكاد يعرفني، : «لقد كتبت حماقة».

كانت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية قد أطلقت نداء «إلى كل الشيوعيين وكل الثوريين!» تطلب منهم فيه إرسال مندوبين إلى المؤتمر الثاني الذي حدد موعده ومكانه بجسارة: يوم 15 تموز في موسكو. إلاّ أن الحصار بقي لأجل هذه الأسباب، وبقيت كل الحدود عقبات وحواجز جدية.

كان طقس موسكو في هذا الشهر – حزيران – من عام 1920 مثيرا، فالإحساس برعشة الثورة المسلحة ما زال موجودا. وكان بعض المندوبين القادمين من كل البلدان ومختلف الاتجاهات السياسية يعرفون بعضهم البعض، أمّا غالبية المندوبين فإنهم يلتقون بعضهم للمرة الأولى في موسكو. ولقد ولدت فجأة بينهم روح رفاقية. كانت المناقشات حادة لأن نقاط الاختلاف كثيرة، إلاّ أن ما يسيطر هو، عند الجميع، تعلق مطلق بالثورة وبالشيوعية الوليدة.

كان لينين يراقب من الكريملين، وبانتباه، الأعمال التمهيدية للمؤتمر، إذ إنه كتب اثنين من الموضوعات الرئيسية المطروحة للنقاش في هذا المؤتمر، وقد قرر أن يشارك بنشاط في المداولات في اللجنة وفي الاجتماع العام. إذ أنها المرة الأولى منذ الثورة التي يتاح له فيها الاتصال بشيوعيي أوروبا، وأميركا، وآسيا. ولهذا فقد كان متلهفا لاستجوابهم، فما أن يصل أحدهم حتى يذهبوا بع إلى مكتبه في الكريملين.

في طريقنا من الفندق إلى الكريملين كنا نتساءل عن الرجل الذي سوف نقابله. لم تكن كتاباته، باستثناء الأخيرة منها، معروفة جيدا لدينا، أو أنها لم تكن معروفة على الإطلاق، كما أننا لم نكن نملك سوى معلومات غامضة عن الصراع الذي دار بين مختلف تيارات الاشتراكية-الديموقراطية الروسية. تنم كتاباته عن أنه ثوري من نمط جديد: مزيج مدهش من «الدغمائية» - من الأفضل القول تعلق متين ببعض المبادئ الأساسية – والواقعية المتطرفة، والأهمية المعطاة للتدبير و«المناورة» - وهذا تعبير لينيني نموذجي – في المعركة ضد البورجوازية. لقد حضرنا أسئلة وردودا، وثم وجدنا أنفسنا فجأة في نقاش حميمي عائلي مع رجل كنا نراه للمرة الأولى كما لو أننا كنا نعرفه منذ زمن طويل. لم تقصر هذه البساطة وهذه الراحة في الاستقبال في التأثير على المندوبين، وبوسعنا أن نكون أكيدين من أنهم سيبدون ويختمون حديثهم عن الزيارة، متى عادوا، بالإشارة إلى هذا الانطباع.

كان يجب علينا، قبل أن نصل إلى غرفته، أن نجتاز غرفة أمانة السر وهي غرفة مربعة كبيرة. وقد استطعنا أن نلاحظ أثناء مرورنا أن الشيوعيين العاملين هناك هم، باستثناء قلة، من النساء قامت إحداهن لتقول لي أن لينين قد وصل. عندما دخلت، كان قد قطع حواره مع ملحقين من مفوضية الحرب يحملان له آخر أنباء العمليات العسكرية. قال لي «سأجعله تنتظر قليلا فاعذرني.» وعاد سريعا إلى زائريه الواقفين أمام خارطة كبيرة يتتبعان عليها حركة الجيوش.

كان الجيش الأحمر يطارد في هذه الأيام جنود بيلسودسكي بعد أن طردهم من المواقع التي احتلوها، مرة أخرى، أثناء غزو أوكرانيا. وكان تقدم الجيش الأحمر صاعقا، إذ انه يتطور بشكل يذهل العسكريين المحترفين، وبشكل لا يستطيع أن يقوم به سوى جيش مسيطر عليه الحماس الثوري.

استمر الحوار أمام الخارطة بضعة دقائق أخرى، ثم جاء لينين وجلس بقربي ونقل لي، بكلمات قليلة، أهم أبناء الجبهة التي وصلت إليه. وقد كان، رغم الأهمية الحماسية لهذه المعركة بالنسبة للثورة، هادئا تماما ومتمالكا لنفسه، ومستعدا للانتقال من موضوع إلى آخر، إذ انه سرعان ما سألني عن الوضع في فرنسا.

في تلك اللحظة، لم أدون أية ملاحظة من هذا الحوار الأول، وعندما أحاول الآن أن أستعيده بأمانة فأني أتذكر أنه اكتفى بأسئلة قصيرة مطروحة بذكاء ودالة على أنه يتجه إلى وضع معقد. إلاّ أني استطعت بواسطة ملاحظة أبداها فجأة أن أفهم مرة واحدة سر موقعه الاستثنائي في حزبه، والنفوذ المهيمن الذي اكتسبه فيه. فبينما كنا نتكلم عن الأقلية الزيميرفالدية في الحزب

الاشتراكي الفرنسي وعن منظوراتها، قال لي: «لقد حان الوقت بالنسبة لها للخروج من الحزب وتشكيل حزب شيوعي فرنسي، لقد انتظرت طويلا.» فأجبتـــــــه أن هذا ليس رأي قادة هذه الأقلية، فقد كانوا في السابق متلهفين للخروج بتكتل من الحزب، إلاّ أن مؤتمر ستراسبورغ الأخير أفادهم إلى حد جعلهم يعارضون رأيهم السابق، فهم يأملون بالتحول إلى أكثرية سريعا. فقال: «إذا كان الأمر كذلك، فإن الموضوعة التي كتبتها هي حماقة، أطلب نسخة من أمانة الأممية الشيوعية وأبعـث لي بالتعديلات التي تقترحها.»

هكذا كان الرجل. لم يكن يدعي معرفة كل شيء، رغم أنه كان يعرف الكثير، إن فهمه للحركة العمالية في الغرب نادر، ولو أن عددا كبيرا من الثوريين يعرفون، مثله، لغات أجنبية، وقد أمضوا سنوات طويلة في المنفى، فليس يوجد سوى القليلين ممن اختلطوا إلى هذا الحد بحياة مختلف الأحزاب الأوروبية وتوصلوا إلى القدر الذي توصل هو إليه. كان هذا يسمح له بمتابعة الأحداث الجارية وتقييمها تقييما صحيحا، واعطائها معناها الدقيق. ولكن، بما أنه يعرف الكثير، فإنه مستعد دائما لاستكمال معلوماته عندما تحين له الفرصة، وليعترف ببساطة، وهذا شيء غير اعتيادي بالنسبة «لقائد»، بأنه أخطأ.

فيما بعد سنحت لي فرص كثيرة برؤية لينين، في المؤتمر أولا، وفي اللجان بعد ذلك. لقد كان العمل معه في اللجنة ممتعا حقا. فهو يتبع النقاش أولا بأول، مستمعا بانتباه إلى كل واحد، مقاطعا من وقت لآخر، محتفظا بنظريته الحادة والساخرة.

إننا نعرف أنه يستطيع أن يكون، إذا كان الأمر واجبا، قاسيا وغير رحوم، حتى بالنسبة لمعاونيه الأكثر قربا، خاصة فيما يتعلق بالأمور الحاسمة، حسب رأيه، لمستقبل الثورة. لم يكن يتورع عن تقديم الأحكام الأكثر قساوة، ولا عن الدفاع عن القرارات الأكثر فظاظة. غير أنه يشرح في البداية بصبر، فهو يريد الإقنـــاع. لقد كان متوجبا عليه أن يحارب، منذ وصوله إلى بتروغراد حتى أيام أوكتوبر العظيمة، وبضراوة شديدة قسما من اللجنة المركزية لحزبه عام 1920، كانت سلطته واسعة، فقد برهنت الأحداث في كافة الظروف الخطرة أنه كان يرى صحيحا، وهو يبدو في نظر الجميع على أنه الدليل الأكثر ثقة للثورة، إلاّ أنه بقي كما هو، رجلا بسيطا جدا، وديا، ومستعدا ليشرح حتى الإقناع.

كانت بعض النسخ من كتاب لينين «الدولة والثورة» قد وصلـت إلى فرنسا في بداية 1919. لقد كان الكتاب رائعا، إلاّ أن مصيره كان خاصا: فلقد هوجم لينيـــن، الماركسي والاشتراكي-الديموقراطي، من قبل نظريي الأحزاب الاشتراكية الذين يدعون الانتماء إلى الماركسية: «هذه ليست ماركسية!»، هذا خليط من الفوضوي والبلانكية. غير هذه البلانكية كانت بالنسبة للثوريين الموجودين خارج الماركسية الأرثودوكسية، للنقابيين والفوضويين، شيئا ممتعا. إذ أنهم لم يسمعوا أبدا كلاما كهذا من فم الماركسيين الذين يعرفونهم، ولذا أخذوا يقرأون مرة وثانية هذا التفسير لماركس، وهو تفسير لم يكونوا متعاودين عليه. فلقد كانت ماركسية جيسد ولافارغ، في فرنسا، فقيرة بصورة خاصة وكانت الاتجاهات المختلفة داخل الحزب الاشتراكي الموحد، المؤسس عام 1905، مستمرة في التصـادم، وكان السجال محتدما وقاسيان إلاّ أن الجميع متفقون حول الأساسي: التحقيق التدريجي للاشتراكية بواسطة الإصلاح. كانوا يتكلمون عن الثورة غير أن ذلك لم يكن سوى كليشيه، سوى إشارة اتفاقية تختم نداء ما. (لم تكن الكلمة قد فسدت بعد كما حدث منذ الفاشيـــة، وكانت لم تزل تعني العنف العمالي والانتفاضة). ولم يكن الأمر مختلفا في ألمانيا، المعتبرة أرضا مفضلة للماركسية، وحيث كان كاوتسكي يمثل صورة المدافع عن العقيدة الصحيحة.

إلاّ أن الطابع الثوري للماركسية، هو بالطبع الطابع الذي كنا نجده في «الدولة والثورة»، في نصوص ماركس وإنغلز، وتعليقات لينين. فلقد كانت هذه الاكتشافات بالنسبة إليه حتى نوعا من الاكتشاف. فلقد لاحظ «أن هذه الأشياء مكتوبة من خمسيـــن سنة، إلاّ أنه من الضروري إجراء تنقيبات من أجل الحصول على هذه الماركسية غير المغشوشة وتقديمها للجماهير.» ولكن ما فائدة طرح مسألة الدولة في حين أن الحرب دائرة؟.. هذا ما كتبه لينين في السطور الأولى لدراسته: إن «مسألة الدولة ترتدي في أيامنا أهمية خاصة، إن من ناحية النظرية أم الممارسة. لقد عجلت الحرب إلى أبعد حد في عملية تحول رأسمالية الاحتكارات إلى رأسمالية الدولة الاحتكارية.. تنضج الثورة البروليتارية في حين تكتسب مسالة علاقاتها مع الدولة طابعا من الراهنية العملية – من الراهنية الشديدة الإلحاح».. ثم يورد لينين هذا النص الأساسي المأخوذ من أنتي-دوهرينغ لانغلز «إن أول عمل تتجلى فيه الدولة حقيقة كمميلة للمجتمع كله، وبالتحديد عندما تتملك وسائل الإنتاج باسم المجتمع، هو، في الوقت نفسه آخر من الأعمال الخاصة للدولة. ويصبح تدخل الدولة في الأمور الاجتماعية لا معنى له في ميدان بعد الآخر إلى أن يتوقف هذا التدخل من نفسه. وتحل محل حكم الأشخاص إدارة الأشياء وإدارة عملية الإنتاج. لم «تلغ» الدولة، لقد «ماتت».

يعلق لينين عن هذا النص جملة جملة، ثم يكتب: «إن البروليتارية بحاجة إلى دولة، هذا ما يكرره كل الانتهازيين، والاشتراكيين الشوفينيين والكاوتسكيين، الذين يؤكدون أن هذه هي نظرية ماركس، إلاّ أنهم ينسون أن يضيفوا أنه لا حاجة للبروليتارية سوى إلى دولة في طريقها للتحلل، أي مشكلة بشكل تبدأ معه، بلا تأخير، بالانحلال بدون أن تستطيع الاّ تتحلل.»

«تبدأ هذه الدولة بالانحلال غداة انتصارها مباشرة، إذ إن الدولة ليست ضرورية ولا ممكنة في مجتمع اختفت منه التناقضات الطبقية...» «تدمير السلطة المركزية» هذه «الزيادة الطفيلية»، «قطع» و«تقويض» هذه السلطة المركزية «التي أصبحت نافلة» - بهذه التعابير تكلم ماركس عن الدولة محللا تجربة كومونة باريس عام 1871.» وأخيرا «ليست البروليتارية بحاجة إلى دولة سوى لمدة من الزمن. أننا لا نختلف إطلاقا عن الفوضويين حول إلغاء الدولة كهدف».. وهكذا، لم تكن الثورة الاشتراكية بالنسبة للينين، هدفا بعيدا، او مثالا غامضا يتحقق شيئا فشيئا من خلال شرعية الديموقراطية البورجوازية، لقد كانت مسألة عينية،.. المسألة التي تطرحها الحرب والتي سوف تحلها الطبقة العاملة. عدا هذه النصوص التي يجد فيها الثوريون الفوضويون والنقابيون لهجة قريبة من لهجتهم وتصورا للاشتراكية قريبا من تصورهم، فإن ما كان يعجبهم بصورة خاصة ويشدهم إلى البلشفية هو الإدانة الحازمة للانتهازية وللإنتهازيين المكشوفين، وللاشتراكيين الشوفينيين الذين دعموا حكوماتهم الإمبريالية أثناء الحرب، أو الذين وقفوا في منتصف الطريق ينتقدون سياسة حكوماتهم دون أن يجرؤوا على استخلاص النتائج المنطقية من نقدهم.

كان انهيار الأممية الاشتراكية لدى إعلان الحرب في آب 1914، بالنسبة للينين، بداية عصر جديد. وفي حين كان كاوتسكي يحاول إنقاذ التنظيم المهزوم بحجة أن الأممية لا تفيد سوى في زمن السلم، كان لينين يقول بأعلى صوته: «لقد ماتت الأممية الثانية! عاشت الأممية الجديدة!» ويجب العمل مباشرة على تأسيسها.. وذلك بتجميع البروليتاريين الذين بقوا مخلصين أثناء الدوامة. وبما أن الثورة ستلي الحرب، يجب الاهتمام منذ الآن بدراسة مسألة البناء الاشتراكي.

لم يكتب «الدولة والثورة» سوى في آب – أيلـــول 1918، عندما كان لينين، المطارد من قبل كيرنسكي ووزرائه الاشتراكيين، والمتهم بالخيانة، مختبئا في فنلنده، غير أن هيكل الكتاب ونصوصه الأساسية جاءت مع لينين من سويسرا. فلقد عمل في سويســـرا، أثناء الحرب ، على جمعها والتعليق عليها. وقد كتب، قبل قليل من رحيله من سويسرا/ في 17 شباط 1917، ومن مكانه في زوريخ، رسالة إلى الكسندرا كولونتاي: «إني في طور تحضير (وقد انتهيت عمليا) دراسة عن مسألة علاقات الماركسية بالدولة.» وقد كـــان يعلق أهمية كبرى على هذا العمل إلى حد أنه كتب لكامينيـــف، عندما كانت البلشفية تجتاز مرحلة صعبة في أيام تموز،: «رفيق كامينيف، لندع الأمور بيننا، إذا ما قتلت، أرجوك أن تنشر كتابا بعنوان «الماركسية والدولة» (وهو محفوظ بأمان في ستوكهولم). غلافه أزرق، ومربوط. يوجد فيه كافة أقوال ماركس وانغلز، وحتى أقوال كاوتسكي ضد Pannekock. ويوجد بالاضافة إلى ذلك سلسلة من الملاحظات والإشارات. ولا يبقى سوى التدوين. وأعتقد أن بالامكان نشر هذا الكتاب خلال أسبوع كما أني أعتقد أنه كتاب هام، لأنه لا يوجد من انحرف سوى بليخانوف وكاوتسكي. ولي شرط واحد. أن يبقى كل ذلك بيننا فقط.»

لا شك أن خلافات عديدة استمرت بين لينين ومناصريه الجدد. فلو أنهم كانوا على اتفاق حول انحلال الدولة، إلا أنه يبقى عليهم أن يتفقوا على المرحلة الانتقالية التي يجب أثناءها المحافظة على الدولة في شكل ديكتاتورية البروليتارية. لم يتأخر الاشتراكيون الروس عن القيام بالمراجعات التي يفرضها انهيار الاشتراكية-الديموقراطية، كما كان من واجب النقابيين أن يأخذوا بعين الاعتبار التجربة: تجربة الحرب حيث غرقت النقابية جزئيا، وتجربة الثورة الروسية. لقد أهملوا حتى الآن الدراسة الجدية لهذه المرحلة الانتقالية، إلا أن كتاب لينين، وأكثر من ذلك، أعمال البلاشفة في السلطة، خلق مناخـــا مناسبا للالتقاء. وقد رأينا أن الفوضويين-النقابيين الاسبانيين C.N.T. قد أعلنوا أنهم إلى جانب ديكتاتورية البروليتاريا.

بعد أيام قليلة من وصولنا إلى موسكو تلقينا كتابين أصدرتهما منشورات الأممية الشيوعية. وهما (مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية) من تأليف لينين، و(الارهاب والشيوعية) وهو رد تروتسكي على أحد كتب كاوتسكي الذي نشر بالاسم نفسه. ويشكل الكتابان نوعا من المقدمة والتعليق على الموضوعات المحضرة للمؤتمر. كنت مطلعا على مضمون مرض اليسارية الطفولي نتيجة الحوارات والنقاشات التي سمعتها خلال رحلتي، وبصورة خاصة في ألمانيا: لقد حدث الانشقاق في صفوف الشيوعيين الألمان حول الحزب، والنقابات، والبرلمانية. لدى قراءتي الكتاب وجدت لينين الحقيقي، لينين «الدولة والثورة»، غير أن العدو ليس هنا الانتهازي، أو الاشتراكي الشوفيني، أو الوسطي، إنه شيوعي، أو هو الشيوعي الذي يسميه لينين «يساري». غير أن المرض ليس هو المرض الذي يمر به كل الأطفال، إنه، حسب لينين، مرض الطفولية بمعنى السهولة، وقلة التعقيد فهو يتكلم أكثر من مرة عن «البساطة الطفولية»، عن «سهولة» «الطفولية المعادية للبرلمانية».

غالبا ما تتجلى هذه النزعة، حسب رأيه، في التجمعات الجديدة والأحزاب الشيوعية. فثمة رغبة من صنع أي شيء جديد، بسرعة، في خلق تنظيمات متميزة عن عن تنظيمات عهد بائد. وكان البعض يكره سماع أي كلام عن الديموقراطية أو البرلمان، ويحتفظ بالحزب شرط أن يكون «حزبا جماهيريا» ينتظر المبادرة وتطور النضال الثوري من حيث، لا «حزب قادة» يقود النضال من فوق، ويقوم بمساومات ويدخل إلى البرلمان. وقد رأينا أن الحزب الشيوعي العمالي الألماني تأسس على هذه القواعد، ونجد في أي مكان تجمعات تسير على الخط نفسه بصورة كلية أو جزئية، مثل تجمع Kommunismus في فيينا، والهولنديين مع غورتر، والبورديغيين في إيطاليا. أمّا في فرنسا فقد رأينا نشوء اتحاد السوفييتات، وهو حزب شيوعي التقى فيه النقابي بيريكا Pericat مع الفوضويين.

يقف لينين ضد هذا الاتجاه، ويقطع عليه الطريق، ويحاربه بالقوة نفسها التي حارب بها الانتهازيين والوسطيين في «الدولة والثورة». غير أن هؤلاء هم أصدقاء ثورة أوكتوبر والمدافعين عنها، ومؤيدو الأممية الثالثة. لا شك أن لينين يشير إلى هذا التمايز، إلاّ أن هذا لا يردعه إطلاقا عن نقد هذه المفاهيم التي يعرفها خاطئة، وخطرة لأنها كفيلة ببعثرة القوى التي تحتاجها الطبقة العاملة لتنتصر.

رغم أن طابع الكتاب النقدي وسجالي فإنه غني من حيث مضمونه. وقد قرأه المندوبون بانتباه، فهو يوفر لهم مادة للتفكير والنقاش. كان العرض مؤيدا بقوة، بدون أي اهتمام بالشكل أو حتى بالبناء، إلا أن غياب هذا البناء الذي اعتدنا عليه هو بالضبط طريقة لينين في عرض براهينه، فهو يرجع بلا كلل إلى نقطة النقاش المركزية، ويجد حججا جديدة وتطويرات جديدة تضرب على الوتر نفسه، بدون أن يتردد، إذا ما وجد خصمه في وضع حرج، عن تسديد ضربة الرحمة إليه. يبدأ الكتاب بتأملات عامة حول «البعد الأممي للثورة الروسية»، ويشير إلى «أحد الأسباب الرئيسية لنجاح البلشفية»، ويعرض « المراحل الرئيسية لتاريخ البلشفية»، ويباشر بعد هذه المقدمة الجوهرية في الدراسة النقدية لليسار الألماني الذي نعرف سماته الرئيسية. ويقول لينين عن النزعة المعادية للبرلمانية.

«أن لا يعبر المرء عن «ثوريته» سوى بتوجيه الشتائم إلى الانتهازية البرلمانية، وبمعاداة البرلمانية، هو أمر سهل، ولكن بما أنه أمر سهل فإنه لا يحل المشكلة العسيرة والعسيرة جدا. إن إيجاد فئة برلمانية ثورية فعلا في البرلمانات الأوروبية هي مسألة أصعب بكثير من إيجاد مثل هذه الفئة في برلمان روسيا. بالتأكيد، غير أن هذا ليس سوى سمة واحدة لهذه الحقيقة العامة وهي أنه كان سهلا في روسيا 1917، في ظل وضعها التاريخي العياني والخاص جدا، مباشرة الثورة الاشتراكية، في حين أنه من الأصعب في روسيا، قياسا إلى البلدان الأوروبية، الاستمرار في قيادة الثورة في نهايتها. لقد أتيحت لي الفرصة في بداية عام 1918 لأشير إلى هذا الواقع، وقد أكدت تجربة سنتين صحة اعتباراتي». أمّا أخيرا، فإن الحجة الواقعية، الحجة التي يصعب رفضها هي: «ان ليبكنخت في ألمانيا، وهوغلونذ في السويد قدما مثالا عن الاستخدام الثوري فعلا للبرلمانات الرجعية.»

ولا يقدم عن الاستنكافيين الإيطاليين سوى هذه الملاحظة: «لم تتوفر لي تماما وسيلة الاعتياد على الشيوعية اليسارية الإيطالية إلاّ أن بورديغا وجماعة «الشيوعيين الاستنكافيين» مخطئون في الدعوة إلى الامتناع عن المشاركة في البرلمان. لنلاحظ، مرة أخرى، وفي هذا المجال، الأمانة الفكرية الدقيقة للينين. فلقد بقي متحفظا نتيجة عدم كفاية إطلاعه، وهذا على خلاف سلوك «القائد» الذي يعرف كل شيء، ويقرر كل شيء، ولا يخطئ أبدا.

لا يوجد يتوجب على الشيوعيين البقاء في النقابات الإصلاحية والنضال داخلها لانتصار أفكارهم فحسب، بل يجب عليهم أن يتعلقوا بها عندما يحاول القادة الاصلاحيون طردهم منها، والاحتيال للتسلل إليها عندما يحاولون منعهم من الدخول. «للمرة الأولى ينتقل ملايين العمال في فرنسا، وانكلترا، وألمانيا، من عدم التنظيم إلى الأشكال البدائية (الأكثر بساطة وقبولا لأولئك المتأثرين بالأحلام البورجوازية الديموقراطية) من التنظيم، إلى النقابات، ويرفض شيوعيو «اليسار» الثوريون إنما غير العقلاء، رغم كثرة كلامهم عن «الجماهير» النضال داخل النقابات بحجة «رجعيتها»! واخترعوا «الرابطة العمالية» الجديدة كليا، والنظيفة، والبريئة من خطايا البورجوازية – الديموقراطية – إنما المسؤولة بالمقابل عن الخطايا التعاونية وضيق الأفق المهني – التي ستصبح (ستصبح!)، كما يقولون، واسعة، والتي يكفي الانضمام إليها (يكفي!) «الاعتراف بنظام السوفييات وديكتاتورية البروليتارية». ولا شك في أن السادة غومبرز، وهندرسون، وجوهو، ولوجيين يعترفون بفضل هؤلاء الثوريين «اليساريين» الذين، مثلهم مثل جماعة «المعارضة البدائية» الألمانية (لترحمنا السماء من هكذا مبادئ) أو مثل بعض المناضلين الأميركيين «العمال الصناعيين في العالم» (I.W.W.)، يدعون لخروج العمال من النقابات الرجعية ويرفضون العمل فيها. ولكن لا يجب علينا أن نشك في أن قادة الإصلاحية سيلجأون إلى كل وسائل الدبلوماسية البرجوازية، إلى عون الحكومة البرجوازية، والكهنوت، والشرطة، والمحاكم، لمنع الشيوعيين من الدخول إلى النقابات، ولطردهم منها، ولإزعاجهم بالصعوبات والمتاعب والشتائم والملاحقات، وذلك بغية جعل الحالة غير محمولة بالنسبة لهم. ولهذا السبب كتب لينين الأسطر التي أراد البعض أن يرى فيها مديحا للكذب كما لو أنه أساس الدعاية والنشاط للبلشفيين: «يجب معرفة مقاومة كل هذا، والموافقة على كل التضحيات، وحتى استخدام – في حالة الضرورة – كافة الوسائل، واستخدام الحيلة، وتبني طرق غير شرعية، والسكوت أحيانا، وإخفاء الحقيقة في بعض المرات، وذلك بهدف الدخول إلى النقابات، والبقاء فيها وتحقيق، رغم كل شيء، المهمة الشيوعية.»

إنه ذو دلالة أن نلاحظ، بصدد هذه الجملة الشهيرة، أنها لم تصدم أيا من المندوبين الذين قرأوها للمرة الأولى. فلماذا؟ فهل كانوا جميعا كاذبين مدمنين، أو روادا للزمرة الهتلرية التي كرست الاستخدام اليومي للكذب الهائل؟ على العكس تماما، لقد كانوا يتكلمون ويتصرفون بصراحة، وكانت لغتهم واضحة ومباشرة، كما كان التستر غريبا عنهم إذ أنهم

فخورين جدا بأن يظهروا على ما هم عليه غير أنه من الواجب أن يضع المرء نفسه في جو العصر، في عام 1920. لقد خان هؤلاء القادة الاصلاحيون، الذين يفضحهم لينين، العمال عام 1914، وخانوا الاشتراكية، وتعاونوا مع حكوماتهم الإمبريالية، وتحملوا مسؤولية كل أكاذيب – وجرائم – الدعاية الشوفينية. لقد قاوموا كل إمكانية «لصلح مبكر». وبذلوا كل جهدهم، بعد الحرب، لتحطيم المد الثوري، في النقابات خاصة، ولم يتورعوا أبدا عن خرق قواعد هذه الديموقراطية التي يدعون الدفاع عنها في كل مرة يحسون فيها بخطر معارضة متطورة علنا، وعن استعمال العنف للاحتفاظ بالقيادة ضد إرادة الأكثرية الواضحة، وعن الاستمرار، بخبث، في سياسة الانشقاق النقابي. إلاّ أن ما يجب أن نفهمه هو أن الحالة هذه هي حالة استثنائية، إنها حالة حرب، والحرب تتضمن الخدعة خاصة عندما يتوجب القتال ضد عدو متستر وممتلك لكل جهاز الدولة القمعي. كان عمل لينين ملفتا للانتباه، إلاّ أن أصالته تكمن في هذا الإخفاء الظرفي للحقيقة. فالجديد فيه هو التركيز على **التكتيك**: «يجب على الأحزاب الثورية أن تستكمل تثقيفها. لقد تعلمت أن تهاجم، وعليها أن تفهم الآن ضرورة إتمام هذا الفهم باستيعاب طرق الانسحاب الأكثر ملاءمة.» كان شعار «لا للمساومة» أحد شعارات «اليساريين» الألمان، ونجد شيئا مماثلا لدى البريطانيين. وقد اجاب لينين على ذلك مذكرا بما كتبه انغلز، عام 1874، بصدد بيان 33 عن البلانكيين الذين كتبوا: «نحن شيوعيون لأننا نريد أن نصل إلى هدفنا بدون المرور بالمراحل الوسطية وبالمساومات التي لا تفعل سوى إبعاد يوم النصر وتمديد فترة العبودية». كتب إنغلز يقول: «ما هذه السخافة الطفولية في جعل عدم الصبر الخاص حجة تاريخية!» وأضاف: «أن يرتبط المرء مسبقا، ويقول بصوت عال لعدو أفضل تسليحا منه: سنقاتلك في لحظة معينة، هو شيء سخيف وليس حماسا ثوريا. الموافقة على المعركة عندما لا تكون مناسبة سوى للعدو، جريمة، **والذين لا يعرفون أن يقوموا بمساومات واتفاقات لتجنب صراع خاسر هم قادة فاشلون للطبقة الثورية.**»

وهكذا، تطرح الأسئلة، مع لينين، بصورة مختلفة كليا. وتأخذ الكلمات نفسها معنى آخر أو تجد معناها الحقيقي: «**فالمساومة**» بالنسبة للينين، **عمل دفاعي ذكي**، للمحافظة على القوى، تفرضه الظروف، ويتم لمنع العمال من الوقوع في الأحابيل، أو في فخ ينصبه عدو أفضل تسليحا. كان للكتاب طابع خاص، طابع كتاب استراتيجية وتكتيك ثوريين. ولا شك أن مختلف الحركات الاشتراكية، والنقابات منها خاصة، لم تكن على جهل تام به، فلقد علم النضال العمال بأنه ثمة لحظات ملائمة لإعلان إضراب، في حين أن الفشل مؤكد في ظل ظروف أخرى يتوجب فيها الاكتفاء بالقليل وحتى تقديم تعهدات. إلاّ أن ما نعرفه جيدا هو أنهم لا يحسنون الدفاع عن أنفسهم ضد وسائل أرباب العمل، وقد حدث أكثر من مرة أن ضاع نصر أكيد وضاعت معه مكاسب كثيرة لأن العمال لم يحسنون رفض صراع هم مهزومون فيه أصلا وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها استخلاص وصياغة المبادئ الأساسية للتكتيك بوضوح وتميز. لا يتحرك لينين، على خلاف الاشتراكيين البرلمانيين المهتمين بإبعاد الثورة الاشتراكية لا بمساعدتها، إلاّ ضمن الثورة، كما أن الصراع الطبقي معركة يومية تدفع فيها الطبقة العاملة ثمن أخطاء الرجال الذين يقودونها. **والخلاصة هي أنه يجب تعلم المناورة!**

لم يكن يوجد ثمة ما يقال ضد استبدال التجريبية بالتقنية. فهذه النقطة من عمل لينين لم تكن نثير أي نقد. وكان هذا بالضبط يخفي خطرا ما. وهذا هو التعبير الذي استعمله شيوعي بلجيكي إذ قال لي: «ما هذا الكتاب الخطر، مع لينين لا مجال للمجازفة، فالمناورة، معه، تخدم الطبقة العاملة دائما كما أن المساومة تعقد باستمرار لصالحها، ولكن لنفكر بالشيوعيين الشباب – وحتى بغير الشباب – من الذين لا يملكون أية خبرة أو ممارسة في المعارك العمالية... فهم لن يأخذوا من هذا الكتاب سوى ما هو ثانوي، وما يكون أسهل وأكثر ملاءمة لهم، ويهملون العمل والدراسة وسوف يميلون، نتيجة عدم امتلاكهم الأساس الاشتراكي الصلب الذي ترتكز عليه المناورات والمساومات، إلى أن يروا في هذه المناورات والمساومات الشيء الأساسي، والتبرير السهل لكل أعمالهم.» وقد تبين، بعد قليل من الزمن أن هكذا خطر ليس وهميا: لقد جعلت «البلشفية الزينوفييفية» هذا الخطر ماثلا منذ أن بوشر بها بعد اختفاء لينين، كما أن «الشيوعية» تحولت في ظل ستالين إلى «مناورة» فحسب.

كان الكتاب يتضمن ملحقا هاما. فبعد أن أرسل المخطوطة إلى المطبعة تلقى لينين معلومات جديدة قادته للاعتقاد بأن «اليسارية» هي أقوى مما كان يعتقد، وأقل تمركزا، وأن السجال الدائر ضدها لن يكفي لشفاء الحركة الشيوعية منها. فكتب مضيفا: «يمكن أن نخشى تحول انشقاق «اليساريين» المعادين للبرلمانية، والمعادين غالبا للسياسة ولكل حزب سياسي وللعمل في النقابات، على ظاهرة عالمية، كما حصل بالنسبة إلى انشقاق «الوسطيين»، الكاوتسكيين، واللونغيين، و«المستقلين»، الخ. لنسلم أن الأمر كذلك. فالانشقاق في هذه الحالة أفضل من البقاء في وضع مضطرب ومعيق للتطور الفكري والنظري والثوري للحزب، ولنموه، ولعمله المنظم فعلا والموحد في التحضير لديكتاتورية البروليتارية.

«إن «اليساريين» أحرار في مواجهة الحقيقة في كل بلد وفي العالم قاطبة، وهم أحرار في محاولة التحضير ومن ثم تحقيق ديكتاتورية البروليتارية بدون حزب شديد المركزية يتمتع بنظام حديدي، وبدون أن يحسنوا امتلاك كافة أنواع وفروع ومنوعات العمل السياسي والثقافي. ولسوف تعلمهم التجربة العملية سريعا.

«ولكن ينبغي أن نبذل جميع الجهود كي لا يحدث الانشقاق مع «اليساريين» المصاعب، أو كي يوجد أقل ما يمكن من المصاعب في طريق اندماج جميع العاملين في حركة العمال، ممن يساندون الحكم السوفييتي وديكتاتورية البروليتارية بإخلاص ونزاهة، في حزب واحد، ذلك الاندماج الضروري والمتوقع حتما في مستقبل قريب. لقد كان من حسن طالع البلاشفة في روسيا أنهم، منـــــذ زمن بعيد، قبل النضال الجماهيري المباشر من أجل ديكتاتورية البروليتارية، كانت لديهم فرصة خمسة عشر عاما شنوا فيها ضد المناشفة – أي الانتهازيين و«الوسطيين» وضد «اليسارييـــــن» على حد سواء – نضالا منظما وأوصلوه إلى غايته. ومن الواجب الآن في أوروبا وأميركا أن ينجز هذا العمل ذاته «بخطوات متسارعة»

هنـاك بعـض الأشـخاص، وخاصـة بـين مـدعي الزعامـــــة الفاشـلين، بإمكـانهم (إذا كـان يعـوزهم روح الطاعـة «والصراحـــــة تجاه أنفسهم») أن يصروا على أخطائهم زمنا طويلا. ولكن جماهير العمال تتحد هي نفسها بسهولة وسرعة، عندما يحين الوقـــت، ويوحد جميع الشيوعيين المخلصين في حزب واحد قادر على إقامة النظام السوفييتي و ديكتاتورية البروليتارية»

بعد بضعة أسابيع فقط من كتابة هذه الأسطر، استطـــــــاع لينين أن يقتنع أن مخاوفه كانت مضخمة. لقد استمرت «اليسارية»، خاصة في ألمانيا، إلاّ أنها لم تجمع حولها أبدا في أي تكتل كافة العناصر المؤهلة للارتباط بها، كما أن التنظيم الأكثر أهمية، الحزب الشيوعي العمالي الألماني، قبل في الأممية الشيوعية كعضو مؤيد ومتعاطف.

أمّا كتاب تروتسكي «الإرهاب والشيوعية، أنتي - كاوتسكي» فهو مختلف تماما. إذ أننا نجد هنا شكلا، وبناء، ومضمونـــــــــــا، كنا قد اعتدنا عليها. ففي حين كان لينين يركز انتباهه على الحزب، والتكتيك، ويحذر من الطفولة الثورية وبعثرة القوى في حزب الطبقات، كان تروتسكي يتوجه نحو مسائل النظرية والممارســـــة التي طرحتها الثورة، والحرب الأهلية، وبناء المجتمع الجديد.

لقد كان كاوتسكي، حتى اندلاع الحرب العالمية، معتبـــرا بصورة عامة داخل الأممية الثانية الأستاذ الكبير في الماركســية. وكان نفوذه كبيرا حتى بين الاشتراكيين الروس، البلاشفـــة والمناشفة، ولم يكن يوجد من يجرؤ على الشك في نوعية ثوريته، وعلى الكلام عنه دون إجلال سوى روزا لوكسمبورغ. فلقد عملت إلى جانبه مطولا، واصطدمت مرات عديدة بخوفه في المعارك العمالية، وهي تعرفه أكثر من أي كان. لم تمنعه سلطته المعترف بها من الغرق عام 1914، برفقة أعدائه التحريفيين، ومع أكثرية الاشتراكيين الديموقراطيين الألمان. ولم يذهب، أثناء الحـــرب، عندما أصبح التحالف مع المتطرفين غير محتمل، ابعد من هذه الوسطية التي اكتفت بابداء التحفظات حول مسؤوليات النــــزاع، وبنقد القادة (مثل شيدمان) الذين تحالفوا مع الحكومة الامبريالية ليعودو فيجدوا أنفسهم معهم في كل المراحل الهامة من الحرب، وليقترعوا مثلهم، وليتحدوا معهم لمحاربة السبارتاكية.

في ألمانيا الويميرية البائسة، المتوقفة في منتصف الطريق بين نظام آل هوهنزوللرن والثورة الاشتراكية، وفي ظل الحكومات المطعمة بالاشتراكيين، والليبراليين، والمسيحيين والتي يرأسها ايبرت Ebert، يحاول كاوتسكي أن يستعيد وظائفه العليـــــا كمحافظ على الأرثوذوكسية الماركسية. لقد أعلن باسمها (أي باسم الأرثوذوكسية الماركسية) أن روسيا لم تنضج بعد للثورة الاشتراكية، و«موازين القوى» لا تسمح بها حتى الآن. وكان يتكلـم عن «الإرهاب الأحمر» كما يتكلم المؤرخون البورجوازيون عن إرهاب الثورة الفرنسية، كما أنه أخذ يرسم لوحة مظلمة للاقتصـــاد السوفييتي، وينتقد، ويتصنع، الثورة السائرة كما فعل في السابـق عندما رفض التحريفية البرنشتينية من مقعده الوثير.

كتب تروتسكي رده في قطاره، ولذا نفهم أن تكون له لهجة خاصة. وقد عمل على إتمامه، أو انقطع عنه، أو استعاده حسبمـــا ترك له البيض فرصة لذلك، علما بأن هؤلاء البيض كانوا أحيانا بقيادة المناشفة أو الاشتراكيين الثوريين، ومدعومين من قبل الديموقراطيات الكبرى التي يعجب بها كاوتسكي حاليا.

ولذا لا يمكن استغراب الحدة، والسخرية اللاذعـــــــة، والانفعال الثوري الذي يضيفه تروتسكي على دفاعه عن الثورة.

يتهم الاشتراكيون المعادون لثورة أوكتوبر البلشفية بأنها بلانكية وليست ماركسية، وقد اكتشف فيها كاوتسكي بالإضافة إلى ذلك، بعض البرودونية. ولم يتردد بخصوص الارهاب، عن تصديـق ونشر الأكاذيب الفاضحة والسخيفة المنشورة في الصحف البورجوازية والتي يخترعها مراسلوا ريغا وستوكهولم. ومن جملـــة ما جمعه معلومات عن «اشتراكية نساء» مزعومة وليس أسهــــل من تبيان خطأ هذه المعلومات. وقد استطعنا من جهتنا، اكتشاف اختراعات من هذا النوع. يذكر تروتسكي بالشروط التي ولـــد وتطور فيها الإرهاب: «حدث الاستيلاء على السلطة من قبل السوفيات، في بداية تشرين الثاني

1917، مقابل خسائر لا قيمة لها... وفي بتروغراد قلبت حكومة كرينسكي بدون أية معركة تقريبا. أمّا في موسكو فقد استمرت المقاومة نتيجة أعمالنا غير الحاسمة. أمّا في غالبية مدن الضواحي فقد انتقلت السلطة إلى السوفييتات بمجرد وصول برقية من بتروغراد أو من موسكو. ولو بقيت الأمور عند هذا الحد لما حدث أي ارهاب أحمر... إذ أن حدة الصراع مرتبطة بمجموعة من الظروف الداخلية والعالمية. وبقدر ما تبدو مقاومة العدو الطبقي المقهور شرسة وخطرة يتحول نظام الإكراه إلى نظام إرهابي. وكان لابد للهجوم الذي قاده كيرنسكي- كراسنوف ضد بتروغراد، وهو الهجوم المؤيد من الحلفاء، من أن يدخل إلى الصراع العناصر الأولى للضراوة. وقد أطلق سراح الجنرال كراسنوف بعد تعهد من قبله.. ولو أن ثورتنا قامت بعد أشهر أو حتى أسابيع من استيلاء البروليتاريا في ألمانيا أو فرنسا أو انكلترا على السلطة، لكانت، بلا شك، الثورة الأكثر سلمية، والأقل «دموية» في الثورات الممكنة على هذه الأرض. غير أن هذا النظام التاريخي، الأكثر طبيعية للوهلة الأولى، والأكثر إفادة للطبقة العاملة الروسية، لم ينقض بفعل غلطتنا، وعوض أن تكون البروليتاريا الروسية الأخيرة كانت الأولى. وهذا الطرف بالضبط هو الذي أعطى، وبعد فترة من البلبلة، الطابع الحاد جدا للمقاومة التي أبدتها الطبقات القديمة الحاكمة في روسيا، وهو الذي أرغم البروليتارية الروسية، لحظة المخاطر الكبيرة، والاعتداءات الخارجية، والمؤامرات والانتفاضات الداخلية، على اللجوء إلى أقسى تدابير الإرهاب الحكومي».

أمّا القسم الأكثر حداثة وإثارة بالنسبة إلينا من كتاب تروتسكي هذا، فهو القسم الذي يرسم فيه الكاتب صورة حقيقية للاقتصاد السوفياتي مناقضة للصورة الكاريكاتورية التي رسمها كاوتسكي. تنظيم العمل، دور السوفييتات، والنقابات، استخدام الاختصاصيين. يكتفي تروتسكي، فر رده على كاوتسكي، باستعادة التقرير الذي قدمه إلى المؤتمر الثالث للنقابات في عامة روسيا، ويضيف إليه بضعة مقاطع مستعارة من تقارير أخرى قدمها إلى مؤتمر السوفييتات للاقتصاد الشعبي في عامة روسيا وإلى المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي الروسي. ثمة فصل هام يتعلق بجيوش العمل التي لم تستمر سوى فترة قصيرة إذ أنها اختفت مع نهاية الحرب الأهلية. غير أن الفصل الأكثر اثارة للانتباه هو ذلك المتعلق بالتخطيط الاقتصادي. ويجب في هذا المجال أن نتذكر أننا في آذار من عام 1920. وقد كتب تروتسكي : «يجب تقدير هذا التخطيط لسنوات عديدة. ومن الطبيعي أن ينقسم إلى فترات متطابقة مع المراحل الضرورية للنهوض الاقتصادي للبلد. يجب علينا أن نبدأ بالمهام الأكثر سهولة وأساسية... يرتدي هذا التخطيط أهمية كبرى، ليس لكونه وجهة عامة لتنظيماتنا الاقتصادية فحسب، بل لأنه خط يقود دعايتنا المتعلقة بمهامنا الاقتصادية بين الجماهير العمالية. ستبقى محاولاتنا التعبوية في مجال العمل راكدة ما لم نلمس النقطة الحساسة لكل ما هو شريف في مجال العمل ومندفع في الطبقة العاملة. يجب علينا أن نعلن للجماهير كل الحقيقة المتعلقة بوضعنا وباهدافنا، وأن نقول لها بصراحة أن خطتنا الاقتصادية، رغم كل الجهد العمالي، لن توفر لنا لا غدا ولا بعد غد خبرات كثيرة، وذلك لأننا سنعمل طيلة الفترة القريبة اللاحقة على تحسين وسائل الإنتاج بغية توفير إنتاجية أكبر.. ولا حاجة إطلاقا للقول أننا لن نجنح أبدا نحو شيوعية قومية ضيقة، كما أن رفع الحصار، والثورة الأوروبية كانا سيؤديان إلى تعديلات عميقة في خطتنا الاقتصادية وذلك باختصار مدتها وتقريب مراحل تطورها الواحدة من الأخرى.

إلاّ أنه لا يسعنا التنبؤ عن موعد وقوع هذه الأحداث. ولذلك يجب علينا أن نتصرف ونحافظ على أنفسنا وندعم موقعنا رغم التطور غير المشجع، أي البطيء جدا، للثورة الأوروبية والعالمية».

استلفت انتباهنا أيضا نصوص أخرى تتحدث عن تطور بناء المجتمع الجديد كما يتصوره تروتسكي، الا أن التنبؤ الذي بدأ أكثر جرأة من غيره هو هذا: «إذا كانت الرأسمالية الروسية قد تطورت بدون الانتقال من درجة إلى درجة، بل بواسطة قفزات، وبنت على السهوب مصانع على الطريقة الأميركية، فذلك سبب إضافي لصالح البناء الاشتراكي المتسارع. ولكن ما أن نتغلب على بؤسنا الفظيع، ونراكم بعض الاحتياطات من المواد الأولية والسلع الغذائية، ونحسن وسائل النقل، حتى يكون بوسعنا، بعد أن نكون قد تخلصنا من قيود الملكية الخاصة، أن نجتاز، وبقفزة واحدة، درجات عديدة ونلحق كل المشاريع والموارد الاقتصادية بالخطة الموحدة في البلد كله. ويكون بمقدورنا إذ ذاك إدخال الكهرباء إلى كافة الفروع الأساسية في الصناعة وإلى دائرة الاستهلاك الشخصي دونما حاجة للمرور مجددا بعصر البخار».

لم تفقد «كتب المناسبات» هذه شيئا من قيمتها. ويمكننا اليوم أن نستفيد من قراءتها، وليس ذلك لمجرد الفائدة التاريخية التي تقدمها، بل لأن عددا من المسائل المعالجة فيها له قيمة راهنة وقد كانت هذه النصوص عام 1920، بالنسبة للمندوبين، نصوصا فائقة الغنى، وقد درسوها وناقشوها بحماس بالغ. إذ أن الكاتبين يتمتعان بين المندوبين بنفوذ كبير. فلينين وتروتسكي يسيطران على رجال ثورة أوكتوبر. وذات يوم فيما كنت اقدم ملاحظة بهذا المعنى أمام مجموعة من المندوبين بينهم جون ريد، أبدى هذا الأخير سروره لسماعه رأيا يعتبره رأيه الخاص، وقال: «أتعتقد ذلك أنت أيضا!». لقد كنا جميعا مقتنعين بذلك، لقد جعلتهما الثورة كبيرين كما جعلت كل المناضلين كبارا. ولقد كان من السهل علي ملاحظة ذلك إذ أنني كنت التقي في موسكو أشخاصا ما كنت قد التقيتهم في باريس. والحالة الأكثر نموذجية في هذا المجال هي حالة دريدزو – لوسوفسكي. لقد عاشرته مطولا في باريس حيث كان يبدو رفيقا طيبا، مثابرا وجادا. وقد أكدت أحداث ما بعد 1924 على

أنه ليس واسع الأفق ولا حازم الرأي، إلاّ أنه كان في موسكو عام 1920، واثقا بنفسه، حازما، مطمئنا، وهذه كلها سمات جديـــــدة بالنسبة له.

11 – بين المندوبين إلى المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية

في النقاشات التي سبقت المؤتمر سيطررت على كافة المندوبين رغبة عميقة فيي الاتفاق، فثورة اوكتوبر والأممية الشيوعية ملك مشترك بالنسبة إليهم جميعا. غير أن القليليين بينهم وصلوا وهم على استعداد للموافقة على كل نقاط الموضوعات التي عرضت عليهم، إذ أن مضمونها مختلف عن التصنيفات التي اعتادوا عليها، كما أن الطريقة التي تعالج بها المشاكل مختلفة، يجب إذا استعادة كل المسائل ودراستها بعمق.

بالنسبة للنقابيين والفوضويين سهل كتاب «الدولة والثورة» تقارب المفاهيم النظرية في ناحيتها الأساسية. في حين طرحت ديكتاتورية البروليتارية، التي كانت حتى الآن في المجال النظري، بصورة موضوعية، وباعتبارها المسألة العملية الأكثر الحاحا. كما أنه لم يحصل في يوم من الايام عملية دراسية معمقة لهذه الفترة الانتقالية، لهذا الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، بل تم تجنبها عندما بدا أنها تشكل عقبة: وكان يتم القفز من المجتمع الرأسمالي إلى مدينة مثالية متخيلة. ولم يضف بعض القادة النقابيين أمثال باتو وبوجيه، في كتاب عنوانه «كيف سنقوم بالثورة» أية مساهمة محددة لمشكل المرحلة الانتقالية رغم أن عنوان الكتاب يلزمها بذلك: إضراب عام قصير، ويتداعى النظام... وبعد بضعة أيام من الاضطرابات التي يرافقها حد أدنى من الأعمال العنيفة، يتقدم النقابيون باطمئنان لبناء المجتمع الجديد. وقد بقي ذلك في حيز روايات الجن. **أمّا موسكو عام 1920، فقد كنا أمام الحقيقة والواقع. لا تسمح البورجوازية، حتى لو كانت بورجوازية ضعيفة كالبورجوازية الروسية، بأن تهزم بسهولة، فهي تعرف أن تخرب عندما تكون مهددة، كما أنها وجدت من يدعمها من الخارج عندما سارعت بورجوازية العالم بأسره لمساعدتها. وهكذا لم يستطع الثوريون أن ينصرفوا بهدوء إلى العمل، فقد كان عليهم أن يحضروا للحرب، لحرب رهيبة، لأن الهجوم كان من كل صوب وناحية. لقد أرادوا السلم، وكانوا أسخياء وشرفاء تجاه أعدائهم، وقد أخلوا سبيل عدد من الجنرالات المتمردين لقاء تعهد شفهي، إلاّ أن كل شيء كان بلا جدوى. لقد فرضت البورجوازية الحرب عليهم، وخالف الجنرالات المحررون تعهدهم. واستنفذت كل موارد البلد في الحرب، الموارد المادية والأخلاقية التي رمى بها طيلة ثلاث سنوات في الحرب. وكل من يعتقد أن الأمور ستجري بصورة مخالفة وأكثر سهولة في مكان اخر يرتكب خطيئة لا تغتفر. سيكون الصراع أشد ضراوة، إذ أن البورجوازية هي حيثما كان أكثر قوة.**

تبين أن بعض المندوبين الذين يعتقدون أنفسهم على اتفاق تام مع الموضوعات المقدمة للمؤتمر هم أكثر المندوبين ابتعادا عنها. وقد جاء لينين على ماكلين، مندوب الحزب الاشتراكي البريطاني، الذي ادعى تقديم موافقة غير متحفظة على الموضوعات – موافقة على دور الحزب، والمشاركة في الانتخابات، والنضال داخل النقابات الاصلاحية - : «كلا، ليس الأمر بمثل هذه السهولة، إذا كنت تعتقد ذلك فلأنك لازلت متأثرا بالثرثرة الاشتراكية التي كانت سائدة في الأممية الثانية والتي كانت تتوقف أمام العمل الثوري.» وكان تروتسكي يقول بصدد الحزب: «من المؤكد، أنه ليس ضروريا إقناع شيدمان بفوائد وضرورة الحزب، ولكن لن يكون ثمة مكان لشيدمان في الحزب الذي نريده». كما رد بوخارين بحماس على رفيق اسباني شاب أحب أن يثبت أرثوذكسيته الماركسية بقوله: «ماذا يعني هذا: محاربة الفوضويين؟ في حين يوجد بعض الفوضويين الذين أيدوا، بعد أوكتوبر ديكتاتورية البروليتارية، ويوجد آخرون اقتربوا منا وأخذوا في العمل داخل السوفييتات وفي المؤسسات الاقتصادية. ليس المطروح هو «المحاربة» بل النقاش الودي والصريح، ورؤية ما إذا كان بالامكان العمل معا، وعدم التخلي عن ذلك الا في حال الاصطدام بمقاومة لا يمكن تجاوزها».

التقيت في موسكو بجاك تانر، وهو الذي كان يرسل إلينا حتى 1914 «رسائل لندن» «للحياة العمالية». كنت قد رأيته في باريس أثناء الحرب حيث جاء للعمل في مصنع في إحدى ضواحي باريس. وهو يمثل مع رامسي، «لجان مندوبي العمال» التي تطورت واكتسبت أهمية كبرى أثناء الحرب كردة فعل على موقف أكثرية قادة التريديونيونات المؤيدة للسياسة الحربية للحكومة.

وكنت على اتفاق تام معهما, لم يكن النضال داخل النقابات الإصلاحية بالنسبة إليهما شيئا جديدا، فلقد اشتركا فيه باستمرار، كما أنهما، مثلي، لا يوافقان حتى الآن على البرلمانية والحزب السياسي.

شدنا تعاطف شديد إلى بعض المندوبين رغم استمرار الخلافات بيننا وبينهم، فقد كان جون ريد وأصدقاؤه الأميركيين متفقين مع البلاشفة حول مسألة الحزب، إلاّ أنهم كانوا ضد العمل في النقابات الإصلاحية. كما انفصل ويجينكوب بوضوح، وهو ممثل الاتجاه الاشتراكي-الديموقراطي اليساري في هولندا، عن «اليساريين» Pannekoek وغورتر، فهو يعتبر وجود

«الوسطيين» والاشتراكيين الانتهازيين مثل كاشين وفروسار الذين جاؤوا للإطلاع وجودا لا يحتمل. كما أنه لا يترك مناسبة إلاّ ويحتج فيها على وجودهم قائلا: «انهم ليسوا في مكانهم هنا».

كانت اللقاءات الأولى بين المندوبين ثمينة جدا، فقد اكتسبنا الشيء الكثير الواحد عن الآخر. وكانت محادثاتنا ونقاشاتنا تستمر مطولا في الليل، لا يقطعها سوى بعض الرحلات واللقاءات مع العمال والجنود. وقد جاء بوخارين ذات يوم وصحب بعضا منا إلى مخيم عسكري في جوار المدينة. وما أن وصلنا إلى منصة عالية حتى صرخ بوخارين «هذه هي دبابتنا» وشرح لنا ذلك. كان ايدونيتش القادم من أستونيا يهاجم باتجاه بتروغراد، وكان يتقدم بسرعة بفضل الدبابات التي زود بها الإنجليز جيشه. ولم يكن المتطوعون الجدد الشباب في الجيش الأحمر قد رأوا من قبل هذه الآلة الرهيبة. التي أثرت عليهم تأثير وحش لا يملكون أمامه أية وسيلة دفاعية. مما أدى إلى اضطراب وخوف. لم يكن بوسع الجيش الأحمر، في سعيه لمواجهة هذه الآلة الضخمة، سوى اللجوء إلى أسلحة خاصة، بين هذه الأسلحة كانت المنصة (وهي أكثرها أهمية)، فمنها كان البلاشفة يشرحون للعمال والفلاحين معنى الحرب المفروضة عليهم، وهكذا كان الجنود يعرفون سبب الحرب التي يخوضونها.

كان الاشتراكي الإيطالي Pannekoek موجودا بين مجموعتنا الصغيرة في ذلك اليوم، والمعروف عنه أنه يلعب دورا معاديا للبرلمانية رغم أنه نائب ومعاد لبورديغا، الاّ أنه يساهم بواسطة موقعه اليساري المتطرف غير المحدد أبدا في العمل على عزلة سيراتي المتروك بلا أي دعم من على يساره. كان جميلا جدا، ذا رأس ذهبي. تلمع لحيته وشعره تحت أشعة الشمس. صعد إلى المنصة وأخذ يقوم بحركات ايمائية مؤثرة يحرك فيها جسده كله، ويتدلى أحيانا فوق الحاجز إلى حد يخيل معه أنه سيقع في الفراغ. لقد أصاب نجاحا كبيرا، رغم أنه لا حاجة لترجمة أقواله. وقد حملناه على محمل الجد دون أن نفكر إطلاقا أنه سينتهي إلى جانب موسوليني. لم تكن نقاشاتنا الطورية والجادة خالية من لحظات ارتياح، وكان بوسعنا أن نرى أثناء ذلك بعض المندوبين يلاحقون Bombacci في أروقة ديبلوفوي دفور صارخين: «ليسقط النائب».

لم تكن علاقاتنا مع أحد المندوبين الإيطاليين الآخرين بمثل هذه الودية ولم تكن تتضمن مثل هذا المزاج. (المندوب الآخر اسمه داراغونا). كما أن رفاقه في التنظيمات النقابية مثل دوغوني، وكولومبينو، لم يظهروا إطلاقا في اجتماعاتنا: فلقد عادوا بسرعة. وليس من المبالغة في شيء القول أنهم لم يأتوا سوى لإيجاد مبررات لمحاربة البلشفية لا لتأكيد انضمام حزبهم إلى الأممية الثالثة. وكانوا يقولون في مجالسهم الخاصة، في سبيل تبرير موقفهم أن العمال الإيطاليين لا يتحملون إطلاقا الحرمان الذي تفرضه ثورة أوكتوبر على العمال الروس. ولكن داراغونا الذي وقع على نداء المجلس العمالي المؤقت للنقابات الحمراء لم يكن يستطيع التهرب دائما وكان يضطر للخضوع إلى أسئلتنا. وكنا نطرح هذه الأسئلة بدون أية موارية لأننا كنا واثقين من عدم إخلاصه، فهو لا يفعل سوى السباحة مع التيار، تماما مثل كاشين في فرنسا. وعندما يجد نفسه محاصرا من قبلنا يسارع للبحث عن سيراتي الذي ينقذه من المأزق الذي أوقعناه فيه.

12- راديك يتكلم عن بوخارين

كان على، أثناء فترات التحضير للمؤتمر، أن أقوم بعمل إضافي في لجنة الترشيح، إذ أن اللجنة التنفيذية اختارتني لأكون عضـــوا فيها مع البلغاري شابلين، وراديك سكرتير الأممية الشيوعيـــــة ذلك الوقت.

يحتل راديك في الأممية الشيوعية موقعا خاصا. فهو بولوني ناضل بصورة خاصة في ألمانيا، وتحول الان نوعا ما إلى روسي. المعروف عنه أنه صحافي لامع ومطلع، الاّ أنه ليس من النادر أن ترد حوله ملاحظات تتعلق بسلوكه في المجموعات التي عمل معها. ولقد اتيحت لي الفرصة لأتعرف عليه أثناء اجتماعات اللجنة أولا، وأثناء اجتماعات اللجنة التنفيذيةللأممية الشيوعية ثانيا. طلب مني، بعد لقائنا الأول في اللجنة التنفيذية، أن أذهب لموافاته في مكتبه الكائن في بناية السفارة الألمانية القديمة حيث أغتيل السفير فون ميرباخ على يد الاشتراكي-الثوري بلوري بلومكين. كان يدعي معرفة الفرنسيـة الاّ أنه لم يستعملها قط، ودار حديثنا بالانكليزية. حاول أن يكـون لطيفا في هذا اللقاء الأول، وأخذ يحدثني بعد أن سألني حـــول الحركة الفرنسية، عن أعماله الأخيرة وخاصة عن دراسة حول بوخارين «قرأت في سجني كتابات بوخارين الرئيسية واقتنعت أن الحكم الذي نطلقه، نحن الاشتراكيين الديموقراطيين، عليـــــــــه هو حكم خاطىء من عدة أوجه. يجب علينا إذن أن نستعيد هذا العمل».. تولد لدي انطباع بأن هذا هو تنازل مفاجئ للنقابيين والفوضويين الذين يضعون بوخارين بين كبار الممهدين لهم.

عدنا إلى الشؤون الفرنسية، فسألني عن رأيي بقيادة الحزب الاشتراكي الفرنسي وخاصة كاشين وفروسار، وعن رأيي برحلتهما الاستطلاعية. كان يعرف فرنسيس ديلايزي عبر كتابه «الديموقراطية وأصحاب الأموال»، فسألني عن نشاطه الحالي وعن موقفه أثناء الحرب وعن إمكانية جذبه نحو الشيوعية. فأجبته بأني لا أعرف شيئا إذ أن ديلايزي بقي صامتا أثناء الحرب التي كان قد أعلن عن اقترابها وعن طابعها في كتابه «الحرب القادمة».

كانت مهمتنا في اللجنة سهلة، إذ أن المندوبين الذين قدموا إلينا توكيلاتهم كانوا معروفين، ولم يكن ثمة اعتراضات. ولم يحصل سوى حادث عابر بشأن البعثة الفرنسية. كان جاك سادول وهنري غليلبو قد شاركا في المؤتمر الأول. وكان لغيلبو، المعتبر كممثل «لليسار الزيمرفالدي الفرنسي»، الحق في التصويت، في حيـــن قبل سادول، مندوب المجموعة الشيوعية في موسكو، كعضو استشاري. فهل كان من الواجب ادخالهما ضمن البعثة؟ كنت إذا العضو الوحيد الذي يملك تفويضا من لجنة الأممية الثالثة. وكان تقديري أن غيلبو الذي قام بنشاط في سويسرا، مؤهل ليحصل على توكيل يخوله حق التصويت، في حين لا يجب أن يحصل سادول، وهو المرتبط بالحزب الاشتراكي، والحليف المؤقت، على أكثر من صوت استشاري. لم يرق هذا العرض لراديك – فهو يكـــــره غيلبو لأسباب شخصية، ولذا أنذر سادول الذي قدم لنا احتجاجـا شديدا. وأخيرا وضعنا غليبو وسادول على صعيد واحد واعتبرناهما مندوبين استشاريين، وهذا ما لم يرض لا الأول ولا الثاني.

13- سمولني- الجلسة الافتتاحية لافتتاح المؤتمر الثاني

في 16 تموز 1920 ذهب المؤتمر بكامله إلى بتروغراد حيث عقد جلسة في اليوم الثاني. لقد انطلقت الثورة من بتروغـــراد، وهناك يجب الاحتفال بافتتاح المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية. جرى الاحتفال في سمولني، معهد الفتيات النبيلات القديم الذي تحـــول في أوكتوبر إلى المقر العام للثورة. وعندما تقدم لينين في القاعة الكبرى حيث كنا مجتمعين، أحاط به المندوبون الإنكليز والأميركيون مع بعض الوحدات الأخرى وأخذوا ينشدون نشيد أيدل، لدى الإنكليز، على مزيج من الحب والإعجاب.

بعد بضعة خطب قصيرة انتظم المندوبون، الذين انضم إليهم بعض مناضلي بتروغراد، في موكب وتوجهوا نحو حقل مارس حيث قبور ضحايا الثورة، وثم إلى قصر توريد قصر الدوما الأول ثم مقر سوفييتات بتروغراد الذي تابعنا نقاشاته من أذار إلى تشرين الثاني، وقد كان البلاشفة أقلية فيه في البداية إلاّ أنهم تقدموا سريعـــا وأصبحوا أكثرية منذ أيلول وجعلوا من تروتسكي رئيسا للسوفييتات، المرة الأولى كانت قبل اثني عشر عاما أثناء ثورة 1905.

كانت قاعة الجلسات شبيهة بالقاعات التي تجمعت فيها كافة برلمانات العالم (باستثناء انكلترا حيث القاعة مستطيلة بشكـــل يلغي بالضرورة الخطب البليغة الرنانة)، فثمة منصة عالية وقاعة جلس فيها المندوبون، ومكان لجلوس المشاهدين. في هذه القاعـة جرى الاحتفال الافتتاحي للمؤتمر. وألقى لينين الخطاب، ليس مطروحا، في إطار هذا الكتاب، تقديم عرض، ولو ملخـــص، لأعمال وقرارات هذا المؤتمر الذي هو في الحقيقة المؤتمر الأول للأممية الشيوعية. لقد كان هدف مؤتمر 1919 إعلان الأمميـــة الثالثة. وقاوم لينين المتلهف لتثبيت أفكاره في الوقائع عندمـــــا يكون ذلك مناسبا وضروريا، الاعتراضات، وخاصة اعتراضات روزا لوكسمبورغ والحزب الشيوعي الألماني الذي جاء مندوبه الوحيد إلى المؤتمر ليعارض اعلان الأممية الجديدة، فقد كان هذا الإعلان مبكرا جدا حسب رأي روزا لوكسمبورغ وكان من الضروري التحضير له. أمّا المؤتمر الثاني فكان على عكس ذلك ذا تمثيل ملحوظ إذ جاء المندوبون من كافة أنحاء العالم، ووضعت تحت شعاره كافة مسائل الاشتراكية والثورة. لقد اكتفت في هذا المؤتمر كما في المؤتمرين الاخرين – اللذان عقدا أيام لينين – باستخلاص النقاط الأساسية من النقاشات والموضوعات، واجتهدت لإعادة بناء المناخ الذي جرت هذه المؤتمرات فيه، ولتقييمها. كان خطاب لينين شديد الدلالة على الانسان وعلى طريقته. فقد بدا جاهلا لأهمية اللقـــاء في هذا المكان مخلا خطابه من الجمل الكبيرة التي تشجع هذه المناسبات عليها. وكانت المفاجأة الكبرى عندما علم أن الخطاب مبني على كتاب الإنكليزي جون ماينارد كينز «النتائج الاقتصادية للسلم». وليس ذلك لعدم أهمية الكتاب، فكينز هو الوحيد، بين خبراء مؤتمر السلم، الذي رأى بوضوح واستطاع أن يبرهن على النتائـــج الوخيمة للصلح النصف – ويلسوني على اقتصاد أوروبا الجديدة. انطلق لينين من هذا الكتاب ليصل إلى ما أظنه أساسي بالنسبـــــة له. لقد كان فكره مشغولا في تلك الفترة – كما يدل كتابه عن «اليسارية» - بالخوف من أن تعتبر الأحزاب الشيوعية الشابـة الثورة شيئا سهلا ومحتما. وقد كان يركز على أنه من الخطأ والخطر القول بأنه لن يكون للبورجوازية، غداة الحرب العالمية، أي مخرج. وعاد، بعد أن صاغ هذا التحذير، وحسب طريقته المعتادة التي تعطي لخطبه وكتاباته طابعا مفككا، فاستعاده، ووسعه بتعابير أخرى – بتنويهات جديدة حول الموضوعة نفسها.

ألقى أعضاء مكتب المؤتمر خطبا قصيرة. ووردت في خطاب بول ليفي ملاحظة مزعجة. فقد هاجم كلمة «schlangen» مرتين في خطابه أثناء كلامه عن العدوان البولوني. لقد تابعنا بسرور رد الجيش الأحمر على بيلسودسكي، وملأتنا المسيرة الجريئة لتوكاتشيفسكي على فرصوفيا بالأمل الا أننا كنا ننتظر تمرد الشعب، والثورة في بولونيا غير أن لهجة الخطيب وهذا الـ«schlangen» المكر تعبران عن نوع من الشوفينين الموجودة لدى الألمان حيال البولونيين، ومن المؤكد أن كلماته من هذا المجال لم تكن إطلاقا كلمات أممي.

حدث بعض الظهر اجتماع جماهيري في ساحة قصر الشتاء الواسعة، وكان هذا اللقاء غنيا بالذكريات. كان ثمة منصة منصوبة أمام القصر يستطيع المرء منها أن يشاهد الجمهور الذي جاء يستمع إلى الخطباء، ولم يكن بوسعنا الا أن نتذكر جمهورا آخر، الجمهور الذي قاده الكاهن غابون مستعطفا نيقولا الثاني الذي استقبل الجميع بالرصاص. مر غوركي لحظة بيننا، إنه رجل كبير الجسم، عريض المنكبين وقوي البنية. كنا على علم بأنه مريض وخاضع لعلاجات دائمة إلاّ أن رؤيتنا له على هذا الشكل القوي في الظاهر خلفت لدينا انطباعا حسنا. لقد حارب البلاشفة وثورة أوكتوبر بضراوة. إلاّ أنه عاد فانضم إلى النظام، بدون أن يتخلى كليا عن انتقاداته وتحفظاته، صارف غالبية قوته ونشاطه لانقاد الرجال الملاحقين ظلما، متدخلا

لدى القادة السوفييات الذين كانوا أصدقاءه منذ مدة طويلة. ويقـــال إنه أحد كتاب مسرحية جديدة سوف نشاهد عرضا أولا لها في المساء.

لم يكن بوسعنا تصور مكان في الهواء الطلق أفضل من هذا المكان، ساحة قصر البوصة، الذي لم يتم اختياره لقيمته الرمزية فحسب كان الديكور فخما. وكان البناء، اليوناني من حيـــث نموذجه، محاطا بسور من الأعمدة.

يتألف المسرح من ساحة متصلة بسلم عال. وعليه جـــرة سلسلة من المشاهد المعبرة عن «مسيرة الاشتراكية عبر الصراع والهزائم نحو النصر». يبدأ التاريخ من «البيان الشيوعي» الـذي نرى كلماته المعروفة على قمة الأعمدة «يا عمال العالم إتحـدوا! فإنكم لا تملكون شيئا لتفقدوه سوى أغلالكم!». افتتح الحفـــل بالطلقات الثلاث من مدفع الحصن وكان المشهد الأول عن كومونة باريس، ثم عن حرب 1914، ثم عن قادة الأممية الثانية الذين يسجدون أمام حكوماتهم وأمام الرأسمالية في حين يأخذ ليبكنخت العلم الأحمر الذي تركوه يسقط ويصرخ: «لتسقط الحرب!»، ثم مشهد ازاحة القيصرية الذي تم إخراجه بطريقة طريفة: تصل العربات المحملة بالجنود المسلحين من نقاط مختلفة ويهدمون بناء القيصر وزمرته. وثمة مشهد قصير يظهر فيه كيرنسكي الذي سرعان ما استبدل بلينين وتروتسكي، صورتين كبيرتين محاطتين بعلم أحمر ومنارتين بأضواء قوية. كما وجدت سنوات الحرب الأهلية خاتمتها الرمزية في هجوم فرسان بوديني الذين يزيلون أثار عدوان الجيوش المضاد للثورة. وفي النهاية، ختم نشيد الأممية المتصاعد عاليا في الليل، مثل فعل الإيمان، هذا النهار المليء بالانفعالات.

14- نقاشات المؤتمر الثاني

ما أن عدنا إلى موسكو حتى بدأ المؤتمر أعماله. كانت البعثة الروسية هامة إن من حيث عددها أم من حيث أهمية أعضائهـــا، فهي تضم: لينين، وتروتسكي، وزينوفييف، وبوخارين، وراديك، وريكوف، وريازانوف، ودزيرجينسكي، وتومسكي، وبوكروفسكي، وكروبسكايا. القضية الأولى في جدول أعمال هذا النهار هي دور الحزب الشيوعي. في حين أن المسألة المطروحة أولا بالنسبة للبعض هي مسالة الحزب السياسي نفسه، إذ لم يسبق لهذا البعـــض أن انضم إلى حزب سياسي بل إنه بذل كل نشاطه ضمن تنظيمات عمالية. هذا ما قاله جاك تانر من على المنصة وشرح كيف ازدهرت أثناء الحرب «shop stewards committes» والأهمية الجديدة التي اكتسبتها بالتعارض مع سياسة زعماء التريديونيـــووات السائرين وراء السياسة الحربية للحكومة البريطانية. لقد قادتهم المعركة العنيفة التي خاضوها أثناء الحرب إلى تقديم برنامج ثوري للجان المصنع، وإلى الانضمام، منذ البداية إلى ثورة أوكتوبر والأممية الثالثة. الا أن نشاطهم نما وتطور دائما خارج الحزب، وإلى حد بعيد ضد الحزب الذين كانوا يجدون بعضهم قادته أمامهم في النضالات النقابية. لم تعمل تجربتهم الخاصة طيلة السنوات الماضية سوى على تدعيمهم هذه القناعات النقابية: لا تستطيع سوى الأقلية الأكثر وعيا وتأهيلا في الطبقة العاملة توجيه وقيادة جماهير العمال في النضال اليومي من أجل مطالبها كما في المعارك الثورية.

رد لينين على جاك تانر، وقال ما يمكن تلخيصه بأن «هذه الأقلية الواعية في الطبقة العاملة، هذه الأقلية النشيطة التي يجب أن تقود عمل هذه الطبقة، هي الحزب، هي ما نسميه نحـــن الحزب. ليست الطبقة العاملة متجانسة، فبين الشريحة العليـــا التي وصلت إلى معي تام، والفئة التي نجدها في الأسفل، أي التـــي لا تملك أي وعي لوضعها، بحيث يجد أرباب العمل فيها العمال الصفر ومحطمي الاضرابات، بين هاتين الفئتين يوجد جمهور العمال، هذا الجمهور الذي يجب قيادته وإقناعه إذا ما أردنا الانتصار. ولكن من أجل ذلك يجب أن تتنظم الأقلية، وتخلق تنظيما صلبا، وتفرض انضباطا مؤسسا على مبادئ المركزية الديموقراطية؛ وهذا هو الحزب».

ودار نقاش مماثل لهذا بين بيستانا وتروتسكي. فبيستانـــــا، على عكس تانر الذي لا يمثل سوى تنظيمات ضئيلة العدد لا تتطور سوى على هامش التنظيم النقابي المركزي، يستطيع أن يتكلم باسم «الاتحاد الوطني لترابلجو» هذا الاتحاد الذي لا يضم كافة النقابيين الاسبانيين، نتيجة وجود مركز نقابي آخر يسيطر عليه الاتجاه الاشتراكي، الا أنه يستطيع أن يفاخر بأنه يعد حوالي مليون عضو، وبأنه موجود بقوة في المناطق الصناعية من البلاد وخاصة في كاتولونيا، وهو يجسد التراث الفوضوي-النقابي المتأصل جـــــدا في اسبانيا. وهكذا تكلم بيستانا بثقة أكبر من تانر وبلهجة أكثـــر حسما.. وهو يكن للحزب ما هو أكثر من العدائية: الاحتقـــــــار. وقد سلم بأنه «من الممكن ان يسعى العمال في بعض البلدان للانظمام في أحزاب سياسية، أمّا في اسبانيا فلا حاجة لنا لذلك. ويبرهن التاريخ أن ثمة ثورات، ابتداء بالثورة الفرنسية الكبرى، حدثـــت بدون حزب». ولم يستطع تروتسكي إلاّ أن يقاطعه قائلا: «لقـــد نسيت البعاقبة!».

أصر تروتسكي في جوابه على ليفي أن يستعيد مسالة الحزب رغم أن ليفي أعلن، بكبريائه المعهود، أن هذه مسالة محسومـــــة منذ زمن طويل بالنسبة لغالبية عمال أوروبا وحتى أميركا، وأن أي نقاش حولها لن يساهم في زيادة نفوذ الأممية الشيوعية. وقد رفض تروتسكي ذلك باعتبار أن ليفي يتكلم واضعا في ذهنه حزب شيدمان وكاوتسكي. «ولكن إذا كنت تفكر في الحزب البروليتاري فيجب ملاحظة أن هذا الحزب يمر، في مختلف البلدان، بأطوار مختلفة من تطوره. ففي ألمانيا، الأرض التقليدية للاشتراكية-الديموقراطيـــة، نجد طبقة عاملة مثقفة تثقيفا عاليا، ومتقدمة باستمرار، ومستوعبـــة كل ما هو ثمين في تراثها. ونلاحظ، من جهة أخرى، أن هذه الأحزاب بعينها تدعي الكلام باسم غالبية الطبقة العاملة، أحزاب الأممية الثانية التي ترغمنا على طرح السؤال: هل الحزب ضروري أم لا؟ وبالضبط لأني أعرف أن الحزب ضروري، ولاني مقتنع بقيمته، وبالضبط لأني ارى شيدمان من جهة، ومن الأخـــرى النقابيين الأميركيين، والإسبانيين، والفرنسيين الذين لا يريدون النضال ضد بورجوازيتهم فحسب، بل يريدون، على خـــلاف شيدمان، خلعها، فإني أقول، لهذه الأسبـــاب، أن النقـــاش ضروري مع الرفاق الاسبانيين، والأميركيين، والفرنسيين بغية البرهان لهم على ضرورة الحزب لاستكمال المهمة التاريخية الراهنة، قلب البورجوازية. سأحاول أن أبرهن لهم، على قاعدة تجربتي الخاصة، لا أن أقول لهم، استنادا إلى تجربة شيدمان، أن المسالة محسومة منذ زمن طويل. إننا نرى كم هو كبير نفوذ التيارات المعادية للبرلمانية، داخل بلدان البرلمانية والديموقراطية العريقة، في فرنسا مثلا، وبريطانيا، وغيرهما. وقد أتيح لي، في فرنســـا، أن ألاحظ بنفسي، في بداية الحرب، أن الأصوات الأولى الجريئة ضد الحرب ارتفعت من مجموعات صغيرة من النقابيين الفرنسيين حين كان الألمان على أبواب باريس. وقد كانت هذه الأصوات أصوات أصدقاء مونات، وروزمير، وغيرهم. لم يكن مطروحا مفاتحتهـــم بأمر تشكيل

حزب: فعناصر كهذه قليلة جدا. إلاّ أني شعـــــرت أني رفيق بين مجموعة رفاق مونات وروزمير وأصدقائهم الذين كان لأكثريتهم ماض فوضوي. ولكن، هل كان ممكنا وجود شيء مشترك بيني وبين روينوديل الذي كان يفهم تماما أهمية الحزب؟

«يقوم النقابيون الفرنسيون بعملهم الثوري في النقابات. عندما ناقشت هذه المسألة مع روزمير، وجدنا أرضا مشتركة. كان النقابيون الفرنسيون يقولون في مواجهة تقاليد الديموقراطية ورغما عنها: «إننا لا نريد أحزابا سياسية، فنحن من أنصار النقابات العمالية، ومن أنصار الأقلية الواعية التي تدعو، داخل النقابات، وتطبق وسائل العمل المباشر». فما هي هذه الأقلية التي يتكلـــم عنهـا النقابيون الفرنسيون؟ لم يكن هذا واضحا بالنسبة اليهم، الا أنـــه دليل على التطور اللاحق الذي لم يمنعهم، رغم الاحكام المسبقة والأوهام، من لعب دور ثوري في فرنسا، ومن تجميع هذه الأقلية الصغيرة التي جاءت إلى مؤتمرنا الأممي. «ماذا تعني هذه الأقلية بالنسبة لأصدقائنا؟ انها نخبة الطبقة العاملة الفرنسية، إنها القســم الذي يملك برنامجا واضحا، وتنظيما خاصا، تنظيما تناقش فيـــه كافة المسائل، وتأخذ القارارت، وحيث يرتبط الأعضاء بانضباط معين. وسوف تصل النقابية الفرنسية، نتيجة صراعها ضد البورجوازية وبحكم تجربتها الخاصة وتجربة البلدان الأخرى، إلى خلق الحزب الشيوعي.

«أمّا الرفيق بيستانا، سكرتير التنظيم النقابي الاسباني الكبير، فقد جاء إلى موسكو لأنه يوجد بيننا رجال منتمون إلى هذا الحـــد أو ذاك، إلى العائلة النقابية، وثمة اخرون «برلمانيون»، وهنـاك أخيرا من ليسوا برلمانيين أو نقابيين، بل أنصار العمل الجماهيري، الخ. ولكن ماذا نقدم له نحن؟ إننا نقدم له حزبا شيوعيا أمميا، أي توحيد العناصر المتقدمة في الطبقة العاملة، هذه العناصر التـي حملت إلى هنا تجربتها، وجعل هذه العناصر تتجابه وتنقد بعضها البعض وتأخذ القرارات. وعندما يعود الرفيق بيستانا إلى اسبانيا، حاملا قرارات المؤتمر، فإن رفاقه سيسألونه: «ماذا تحمل إلينـــا من موسكو؟» وسوف يقدم لهم إذ ذاك ثمار أعمالنا، ويخضـع قراراتنا لاقتراعاتهم، وعند ذلك لا يعود النقابيون الاسبان المتحدون على قاعدة موضوعاتنا يشكلون سوى الحزب الشيوعي الاسباني.

«تلقينا البوم عرضا للسلام مع الحكومة البولونية. فمـــن يستطيع الاجابة على هذا السؤال؟ لدينا مجلس مفوضي الشعـــب، الاّ أنه يجب أن يخضع لرقابة معينة. رقابة من؟ رقابة الطبقـــة العاملة كجمهور سديمي لا شكل له؟ كلا، سوف تدعى اللجنة المركزية، وسوف تدرس العرض وتقرر. وعندما نريد أن نخوض الحرب، وننظم وحدات جديدة، ونجمع أفضل العناصر، فإلـــــى من نتوجه؟ إننا نتوجه نحو الحزب، نحو لجنته المركزية. والأمر نفسه بالنسبة إلى التموين، والمسألة الزراعية، وكافة المسائل الأخرى. من يقرر هذه المسائل في اسبانيا؟ إنه الحزب الشيوعي الاسباني – وكلي ثقة بأن الرفيق بيستانا سيكون من مؤسسي هذا الحزب[2]».

لم تكن **المسألة القومية** بنظر لينين أقل أهمية من مسألة الحزب لقد استنهضت الثورة الروسية البلدان المستعمرة ونصف المستعمرة، كما أن نضال هذه الشعوب التحرري يمر في فترة مناسبة يخرج فيها المستعمرون الامبرياليون منهكين من الحرب، ولذا يجب أن يكون هذا النضال حاسما، وأن يضمن تحرر هذه الشعوب وإضعـــاف القوى الامبريالية الكبرى. لم يكن يجهل أن مفاهيم مختلفة، وحتى متعارضة ستتصادم داخل المؤتمر حول هذه النقطة أيضا. فلقـد ساجل قبل الحرب حول هذا الموضوع مع روزا لوكسمبورغ التي تعتبر الاشتراكية فوق المطالبات القومية الملطخة إلى هذا الحد أو ذاك بالشوفينية. وهو يملك الأسباب التي تجعله يعتقد أن هـــذا سيكون موقف بعض المندوبين. لذا فقد أخذ على عاتقه صياغة الموضوعات وأصر على تلاوتها أمام المؤتمر بعد نقاشها في اللجنة. أمّا في الواقع فقد حدث النقاش الفعلي داخل اللجنة.

كانت البعثة الهندية كبيرة نسبيا، وعلى رأسها رجل كفـــوء، مانا بيندرا نات روي. كلفت نشاطه في الهند الاعتقال والنفي، وقد وجدته ثورة أوكتوبر في المكسيك. وصل إلى موسكو عبر ألمانيا، وبعد أن توقف في الطريق واستعلم، حتى أنه وصل إلى المؤتمر مطلعا إطلاعا جيدا على الحركة الثورية في العالم. كان يملك آراء محددة في النضال الواجب خوضه ضد الإمبريالية البريطانيـــة. فهو يرى أنه يجب على الحزب الشيوعي الهندي قيادة هذا النضال.. لاشك أن للبورجوازية الهندية برنامجا على الصعيد القومـــي، إلاّ أنه لا يجب التحالف معها في النضال من أجل الاستقلال، بل محاربتها كما يحارب المحتل البريطاني، وذلك لأنها بقدر ما تملك سلطة خاصة – كانت تملك مصانع كبيرة للنسيج والمعادن – تكون عدوة العمال، ومستغلة لهم مثل رأسماليي الأمم الديموقراطية المستقلة.

[2] - لم تتحقق هذه النبؤة التفاؤلية. فقد كان بيستانا لدى عودته إلى اسبانيا واحدا من القادة النقابيين – الأكثرية – الذين سحبوا موافقتهم على الأممية الثالثة. غير أن التاريخ لا يتوقف هنا بالنسبة لبيستانا، إذ أنه رفض الانضمام إلى الحزب الشيوعي الاسباني، وأسس، عشرة سنوات بعد ذلك، «حزبا نقابيا» لا يضم سوى عدد قليل من الأعضاء يزيد فيهم المثقفون على العمال...

رد لينين عليه بصبر، وشرح له أن الحزب الشيوعي الهنـدي لن يكون، ولزمن قد يطول أو يقصر، سوى حزب قليل العـــدد يملك موارد ضعيفة، ويعجز عن أن يصل، على أساس برنامجه ونشاطه المنفرد، إلى عدد محترم من الفلاحين والعمال. علـى عكـس ذلك، يمكن، على أساس مطالب الاستقلال القومي، تعبئة جماهير واسعة – وقد برهنت التجربة على ذلك - ، ولا يمكـن للحزب الشيوعي الهندي في غير مجرى هذا النضال، أن يوجد ويطور تنظيمه بشكل يجعله قادرا، بعد تحقيق المطالب القومية، على مجابهة البورجوازية الهندية. قام روي وأصدقائه ببعض التنازلات، ووافقوا على أنه بمكن القيام بعمل مشترك ضمن ظروف خاصة رغم بقاء الخلافات الهامة. وقد جمع لينين موضوعته إلى المؤتمـر مع موضوعة روي وقدما تقريرا مشتركا.

كانت **المسألة النقابية** أقل المسائل التي عولجت بصورة جيدة. لا بعني ذلك أنها لم تناقش مطولا: كانت اللجنة لا تزال تناقشهـا عندما شرعت الجمعية العامة في نقاشها، كما اجتماعات تمهيدية كانت قد عقدت بين راديك والنقابيين البريطانيين قبل وصولـــي. عين راديك كمقرر، وكتب الموضوعات رغم أنه لا يملك أية كفاءة في هذه المسائل. فقد كان يعالج مسألة بمثل هذه الصعوبة بعقلية الاشتراكي-الديموقراطي الألماني الذي حسم سلفا أن للنقابات دورا ثانويا وأن لا مبرر للنقاش حول ذلك. لقد ردد ما قاله صديقه بول ليفي بصدد الحزب: كان هذا النقاش مخجلا وغير قادر على إنماء نفوذ الأممية الشيوعية.

وجد راديك دعما بلا تحفظ من قبل أعضاء اشتراكيين-ديموقراطيين في اللجنة، وبينهم والشر Walcher الذي بدا أقلهم تفهما، جاهلا أو متجاهلا خصائص الحركة النقابية في بلد مثل إنكلترا حيث تملك هذه الحركة تقاليد راسخة وتاريخا طويلا. وهكذا وجدنا تانر، ومروفي، ورامسي، وجون ريد، المختلفين حـــول نقاط عديدة، على اتفاق لرفض هذه النصوص المقتصرة علـــى استعادة موضوعات تخدم الأممية الثانية. وفي الجهة الأخـــرى، وقف راديك والاشتراكيون-الديموقراطيون الواثقون من امتلاك الحقيقة. وكان النقاش يدور لساعات طويلة دون التقدم خطـــوة واحدة. لم يكن بالإمكان، رغم الأهمية الجديدة الممنوحة لدور الحزب، ولضرورة التنظيم المركزي في خوض النضال الثوري على مثال الحزب الشيوعي الروسي، تجاهل دور النقابات في البلدان الرأسمالية، ودورها في بناء المجتمع الاشتراكي. إذ انه ليس من النادر سماع اتهامات وانتقادات موجهة للنقابات الروسية وللطريقة التي تضطلع بها بمهامها، ولعدم كفايتها، وهي انتقادات لا يتركها القادة النقابيون بلا جواب. كما طرحت مشاكل جديدة، فقد بـرزت أثناء الحرب مجالس مصانع في بلدان عديدة، فما هي مساهمتها خاصة؟ وما هي علاقاتها بالنقابات؟

عندما جئت إلى اللجنة كانت هذه قد عقدت اجتماعات عديـدة، إلا أني اعتقدت أنه الاجتماع الأول. كان الاشتراكيـون-الديموقراطيون مقتنعين إلى حد اكتفوا معه بصياغة وجهات نظرهم، وكانوا مقتنعين سلفا بعدم اعتبار أية من ملاحظات الآخرين. كان راديك يتابع النقاش بدون اهتمام، مفتشا في رزم الصحف التي يحملها إليها بريد الأممية الشيوعية. عندما انتهى، رفعت الجلسة لتعود فتعقد مجددا عندما يحلو له ذلك. وكان يحدث أنه أثناء انعقاد الجمعية العامة كنا نبلغ بأن اللجنة ستجتمع فور انتهاء جلســة الجمعية – غالبا حوالي منتصف الليل – وكنا في اللجنة نستعيد النقاش حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحا، ثم نذهب إلى النوم واثقين من أننا أضعنا وقتنا. وحتى القسم من الموضوعات الـــذي كنا على اتفاق حوله انا وراديك – النضال داخل النقابـــات الإصلاحية ومعارضة كل انشقاق – صيغ بسرعة وبتلخيص يجعله يصطدم ولا يقتنع. وعندما عرض القرار أمام المؤتمر جاء إلي جون ريد قائلا: «لا يمكننا العودة إلى أميركا مع قرار كهذا، فليس للأممية الشيوعية من أنصار في العالم النقابي سوى بيـــــن الـ .I.W.W في حين أنكم ترسلوننا إلى الإتحاد الأميركي للعمل حيث لا يوجد سوى أعداء حازمين للأممية».

أخذ لينين على عاتقه، بالإضافة إلى الموضوعات المتعلقة بالمسألة القومية، الموضوعات المتعلقة «بمهام الأممية الشيوعية».. وكان يعلق عليها أهمية مماثلة إذا أنها، في الواقع، تستعيـــد وتحـدد نتائج وقرارات المؤتمر، وتضعها في إطار وضع كل بلد. وكانت اللجنة المعنية لدراستها عديدة إلى حد أن اجتماعاتها تمثل مؤتمرا صغيرا، وكانت الاجتماعات تحصل من الساعة العاشرة حتى الرابعة بلا انقطاع.

ذات صباح كنا لا نزال في الفندق رغم أن الساعة تجاوزت العاشرة، فجاء من يقول لنا أن لينين يود تذكيرنا بأن الاجتماع سيبدأ الساعة العاشرة في الكرملين. ولا فائدة من القول أننا شعرنـــا بارتباك أثناء احتلالنا لأماكننا ول الطاولة. فقد عودنا زينوفييف وراديك على عادة سيئة، إذ لا أهمية للدقة في المواعيد معهمـــــا، كما أننا كنا نجهل أنه بالنسبة للنين وتروتسكي – وهمـــــا متشابهان في هذا أيضا – الساعة هي الساعة.. وهكذا كنـــــا جميعا في اليوم التالي في أماكننا الساعة العاشرة تماما. إلا أن لينين هو الذي تأخر هذه المرة. وصل بعد تأخير دام ربع ساعة، اعتذر، وجلس مرتبكا: كان

يعيش في غوركي على بعد 30 فرست[3] من موسكو، وقد تأخر بسبب عطل طرأ على السيارة، ما أن وصل حتى استعدنا النقاش من حيث تركناه.

توفر الموضوعات التي صاغها لينين سبيلا ملائما للنقاش. كنا نأخذها فقرة فقرة، فنناقشها، ونصححها، ونعدل فيها أو نغير النص. كان وسواس «اليسارية» موجودا، هنا أيضا، وقد طلب منا أن ندين بوضوح المنظمات والتنظيمات المصابة بها، مثل مجلة Kommunismus في فيينا، والنشرة التي يصدرها في هولندا مكتب الأممية الشيوعية في أوروبا الغربية، وكانت بعض الملامح «اليسارية» قد ظهرت فيها. وقد اشرت إلى أنه لا يمكن وضع مجلة يديرها شيوعيون أوستراليون وبلقانيون على الصعيد الذي نضع عليه نشرة الأممية الشيوعية، ففي الحالة الثانية يجب توجيه اللوم لقيادة الأممية باعتبارها مسؤولة عن النشرة. وكان ذلك يبدو لي أكيدا إلى حد لم أتصور معه قيام نقاش حول هذا التفصيل البسيط. إلاّ أن زينوفييف، مدعوما من ليفي، أصر: يجب أيضا لوم النشرة. عندئذ تدخل لينين: «حسنا، لنقترع حول ذلك – ولكن أين بوخارين، يجب أن نجده». جيء ببوخارين الذي كان غالبا ما يختفي، وقال له لينين: «اجلس هنا، إلى جانبي، ولا تتحرك أبدا». انقسمت اللجنة بالضبط إلى قسمين. وتساوي عدد الأصوات المؤيد والمعارض. كان لينين قد تابع العمليات بدون أن ينحاز، وامتنع عن التصويت، إلاّ أنه أخيرا مال إلى جانبنا.

سرعان ما استرعت قضية هامة جدا انتباه اللجنة: إنها المسألة الإيطالية. كان الحزب الاشتراكي منقسما إلى حد ليس من المبالغة معه في شيء القول بأن كل واحد من مندوبيه يمثل تيارا. وكان سيراتي، المعزول عن بعثته، يحاول عبثا الحفاظ على وحدة هذه الاتجاهات المختلفة. بضم الاتجاه اليميني القادة الأكثر شهرة والأكثر ثقافة بلا شك، مثل توراتي، وتريف، وهذا الاتجاه معاد بصورة مطلقة للأممية الثالثة. ونرى في أقصى اليسار بورديغا وأصدقاءه، المؤيدين المندفعين للأممية الشيوعية، والممتنعين أو الاستنكافيين؛ ويمثل Bombacci يسارا غير واع، أمّا غرازيادي فيكتفي بمجال النظرية السلمي، في حين غاب لازاري العجوز، سكرتير الحزب، الذي منت قد رأيته في إحدى رحلاته إلى باريس وسمعته يتكلم عن الأممية الجديدة بسلبية. وكان يبدو واضحا أنه إذا كان الحزب الاشتراكي الإيطالي قد وافق على الانضمام إلى الأممية الثالثة فذلك لأن قيادته لم تستطع أن تقاوم الاندفاعة القوية التي جاءت من قاعدة الحزب، من العمال والفلاحين. بقي سيراتي وحده يتلقى الضربات بعد أن تركه الجميع. كان هنالك أيضا اتجاها آخر انما غير ممثل في المؤتمر، وتتكلم الموضوعة بالضبط عن هذا الاتجاه الذي يمثل عبر كتاباته ونشاطه مفاهيم الأممية الشيوعية. إنه اتجاه مجموعة «Ordino nuovo» في تورين، وأبرز مناضليه غرامشي وتاسكا. عندما وصلنا إلى الفقر الخاصة بإيطاليا لاحظنا عدم وجود أي مندوب إيطالي، لم يشأ أحدهم أن يأتي وذلك بسبب الخلافات في وجهات النظر، إذ أن كل واحد منهم لا يعتبر نفسه مخولا الكلام باسم الحزب. طلب من بورديغا أن يأتي ليعرض ويحدد موقف Ordino nuovo، ففعل ذلك بأمانة رغم أنه باشر العرض بإيضاح افتراقه عن هذه المجموعة. أكدت التحديدات التي قدمها موقف كاتب الموضوعة في رغبته «بتنصيب» الـ Ordino nuovo ، ووافقت اللجنة بالإجماع على ذلك.

جاء أخيرا دور إنكلترا وحزب العمل. قال لينين بوجوب انضمام الشيوعيين إليه إلاّ انه اصطدم بالعدائية العامة والمطلقة للبريطانيين. أيده زينوفييف، وكذلك بول ليفي بلهجة تعبر عن احتقار ألماني لبريطانيا الرجعية والمنهارة ولشللها الشيوعية الصغيرة وكذلك أيده بوخارين بودية وتفهم. لم تنفع كل هذه الهجمات في زعزعة موقف البريطانيين الذين وجدوا في الأميريكيين والهولندي ويجنكوب دعما لموقفهم. وكان علي كرئيس للجنة، أن أتكلم في الأخير، إلاّ أني لم أضف شيئا لأن الحديث استعاد مرات عديدة الحجج نفسها. قلت أني أقبل التضحية على أن ننتقل مباشرة إلى التصويت. «كلا، قال لينين، لا يجب على أحد أن يضحي بدوره» عند ذلك لخصت الحجج التي قدمها البريطانيون، وكانت هي حججي أيضا. كانت الأغلبية الواضحة في صف لينين، إلاّ أنه أحس أن الاتجاه المعارض لوجهة نظره بقي جديا، فطلب عرض المسألة على المؤتمر، وطلب مني، رغم أني عارضت هذه النقطة الخاصة في موضوعاته، أن أتكفل بتقديم تقرير عن اللجنة في الجلسة العامة.

تابع المؤتمر النقاش باهتمام كبير وبفضولية خاصة لأن البريطانيين قرروا الدفاع عن وجهة نظرهم بواسطة سيلفيا بنكورست. إنها واحدة من الفتيات اللاتي أثرن – تحركا - «ثوريا» من أجل انتزاع حق المرأة في التصويت، إلاّ أنها الوحيدة بين عائلتها التي انتقلت من «النسوانية» إلى الشيوعية. كانت تدير مجلة أسبوعية، وتصدر كتيبات، وقد برهنت أنها نشيطة جدا ومحرضة ممتازة. كان الخطاب الذي ألقته جديرا بمهرجان لا بمؤتمر، انه خطاب محرضة. تكلمت بحماس، وتحركت بشكل خطر على المنصة الضيقة. لم نجد فيها مدافعا جيدا عن ارائنا، إذ أنها أغرقت في الخطابة حتى الذريعة العاطفية حول رفض الدخول في حزب مشوه في نظر العمال، في حزب ارتكب قادته خيانة أثناء الحرب. وأخيرا انتصرت موضوعة لينين، رغم أن الأقلية برهنت على وجودها.

[3] - فرست : مقياس روسي للطول يساوي 1067 مترا.

لم أقل حتى الآن شيئا عن مسألة سوف نتكلم عنها كثيرا لاحقا، إنها مسألة «شروط القبول في الأممية الشيوعية». ثمة واحد وعشرون شرطا. وقد صاغها الشيوعيون الروس بعناية فائقة وقد أرادوا بهذا الشكل استباق الانتقادات الموجهة ضد الطريقة التي اتبعوها لتشكيل الأممية الشيوعية، تشكل هذه الشروط الرهيبة سدا منيعا لا يستطيع الانتهازيون إطلاقا تجاوزه. إلاّ أنه سرعان ما اكتشف أن الأمر وهم. فهم يملكون، بكل تأكيد، معلومات جيدة عن الحركات العمالية في بلدان أوروبا، ويعرفون قادة هذه الحركات، ويقابلونهم في مؤتمرات الأممية الثانية. إلا أن ما لا يعرفونه، وما لن يستطيعوا معرفته هو المدى الذي يمكن أن يصل إليه هؤلاء الرجال في تلاعبهم، وهم الذين تربوا على ممارسة البرلمانية الديموقراطية. يملك هؤلاء الرجال عددا من الأحابيل لا يمكن للروس تصوره. فقد قام سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي، فروسار، وطيلة سنتين، بتلقينهم درسا في فن التهرب. وكانت روزا لوكسمبورغ، التي تعرفهم عن كثب لأنها أمضت حياتها في النضال داخل الاشتراكية-الديموقراطية الألمانية حيث استطاعت أن تتابع حياة أحزاب البلدان المجاورة، قد كتبت، منذ 1914، مقالة منشورة في الإيسكرا (بالروسية) وفي النيوزايت (بالألمانية) وكان بوسعها أن تحذر كاتبي موضوعات الواحد وعشرين شرطا لو أنهم تذكروها. فقد كتبت تقول: «إن الفكرة التي هي في أساس الوسطية المبالغ فيها: الرغبة في قطع الطريق على الانتهازية بواسطة نصوص تشريع ما، هي خاطئة جذريا... تستطيع مواد تشريع ما أن تضبط حياة طوائف صغيرة أو ندوات مغلقة، إلاّ أن التيار التاريخي ينفذ من ثقوب الفقرات الأكثر دقة». وهذا انتقاد سوف تؤكد الحياة اللاحقة للأممية الشيوعية صحته.

أثناء واحدة من جلسات المؤتمر، اقترب مني صبي كبير في العشرين من عمره. كان فرنسيا وصل لتوه إلى موسكو، ويريد أن يكلمني. إنه دوريو. قص علي قصته. وهي تتلخص بكلمات قليلة: لقد لوحق وحكم عليه بالسجن لعدة أشهر بسبب مقال معاد للنزعة العسكرية. وقد قرر أن يهرب عوضا عن أن يرضى بالسجن، ففضل الإقامة في موسكو على الإقامة في زنزانة في السجن. كانت ثقافته السياسية سطحية إلى حد ما، إلاّ أنه كان متحفظا، متواضعا، ومثابرا. أمضى في موسكو سنتين كاملتين، وعاد بعدهما إلى فرنسا ليصبح سكرتيرا للشبيبة الشيوعية، وينتخب نائبا عام 1924. لقد قطع من جانبه مع الأممية الشيوعية – رفض أن يتبع ستالين في «انعطافه اليساري» في «المرحلة الثالثة للأممية الشيوعية» - وكاد ذلك يسمح له بتشكيل وتنظيم معارضة سليمة. إلاّ أنه تعلم في وقت قصير أن يناور، وتحول بسرعة إلى سياسي باهر، وأصيب بعدوى الستالينية حتى لم يعد بوسعه القيام بمهمة لا مصلحة له فيها، لقد أراد أن يصبح «قائدا» وكان سهلا عليه أن ينتقل مثل كثيرين غيره إلى الهتلرية.

15- البيان الختامي

انهى المؤتمر بالأبهة نفسها التي ميزته في البدايـــة، إلاّ أن الجلسة كانت هذه المرة في موسكو، حيث اجتمع المؤتمر في جلسته النهائية في المسرح الكبير. احتشد المندوبون على المسرح الذي تقطعه طاولة كبيرة جلس وراءها زينوفييف وأعضاء اللجنة التنفيذية. كانت القاعة واسعة طافحة بجمهور فرح ومنتبه: بمناضلي الحزب، والنقابات، والسوفييتات. فالاجتماع هو، في النهاية، لهم. كانت النقاشات تدور، في الكرملين، بالألمانية والانكليزية، والفرنسيـــة، وقد حان الوقت للكلام بالروسية. ألقى تروتسكي الخطـــــاب الختامي. إنه بيان المؤتمر، إلاّ أنه مختلف عما نعنيه عادة بكلمـــة بيان. كان مقسوما إلى خمسة أقسام كبيرة. وصف تروتسكي أولا الوضع العام في العالم، والعلاقات العالمية بعد معاهدة فرســـاي: إنها لوحة قاتمة إلاّ أن ضحايا الحرب العديدين كانوا قد بـدأوا برؤيتها. ثم انتقل إلى الوضع الاقتصادي حيث تجري محاولات إصلاح الفقر والفوضى العامة بواسطة تدخل الدولـــة. إلا أن تدخلات الدولة في الاقتصاد، لم تكن تؤدي في الواقع، إلاّ إلى المنافسة الشديدة مع المضاربين، فيزداد بذلك اضطراب الاقتصاد الرأسمالي في فترة انحطاطه هذه. لقد تخلت البورجوازية تمامـــا، في فترة الانحطاط هذه، عن فكرة كسب البروليتاريا بالإصلاحات. ولم يعد ثمة موضوع واحد مهم يجري حسمه بواسطة الاقتراع الشعبي، كما أن آلة الدولة تعود شيئا فشيئا إلى حالتها البدائيـــــة. إلى فرق الرجل المسلحين، يجب القضاء على الإمبريالية للسماح للبشرية بأن تعيش.

وقد برهنت روسيا السوفياتية، في مواجهة هذا النظـام، المحتضر كيف تكون الدولـة العمالية قادرة على المصالحة بين المتطلبات القومية ومتطلبات الحياة الاقتصادية وذلك بتلخيص الأولى من شوفينيتها، والثانية من الإمبريالية. كان تروتسكي يلخص بهذا العرض النقاشات، ويشرح القرارات، خاتما خطابه بهذه الكلمـــــات: «في كافة مجالات نشاطه، كقائد لإضراب ثوري، أو كمنظم لمجموعة سرية، أو كسكرتير لنقابة، وكنائب أو محـــرض، أو تعاوني، أو محارب على المتراس، يبقى الشيوعي مخلـــص لنفسه، وعضوا منضبطا في حزبه، وعدوا لا يلين للمجتمـــع الرأسمالي ونظامه الاقتصادي، ودولته، وأكاذيبه الديموقراطية، وديانته، وأخلاقه. انه جندي متفان في سبيل الثورة البروليتارية زمبشر لا يكل بالمجتمع الجديد.. أيها العمال والعاملات! لا يوجد على هذه الأرض الا علم واحد يجدر بالمرء أن يعيش ويموت تحته انه علم الأممية الشيوعية». تضافر الرجل، وكلماته، والجمهـور الذي يسمعه لإعطاء هذه الجلسة الختامية عظمة مؤثـــرة. دام الخطاب أكثر من ساعة بقليل. والقاه تروتسكي بدون ملاحظات مدونة، وقد كان رائعا أن يرى المرء كيف نظم الخطيب هذا الموضوع الواسع، وحركه بوضوح فكره وقوته، وأن يرى الانتباه الشديد مرتسما على الوجوه التي تتابع الخطاب. جاء إلي أحد الفرنسيين، باريجانين – وهو يعيش في روسيا منذ اثنتي عشر سنة – وقال لي، وهو مأخوذ ومنفعل، : «عسى أن يترجم الخطاب جيدا» معبرا بذلك عما يتجاوز الاهتمام بالترجمة الأمينة: عن الخوف من أن يضيع شيء من هذه العظمة.

اجتمعت اللجنة التنفيذية غداة المؤتمر. فقد كان عليهـا أن تتدارس النتائج العملية للقرارات المتخذة، وأن تأخذ التدابيـــر المتعلقة بتطبيقها، كانت النقطة الأولى على جدول أعمالها، تعيين الرئيس والسكرتير. لم يكن التجديد لزونوفييف للرئاسة يثير أية مشكلة، الا أن الأمر مختلف بالنسبة للسكريتارية. فقد طالبـــت البعثة الروسية بإبعاد راديك. كانت السكرتيرة الأولى للأممية الشيوعية انجيليكا بالابانوف، وقد حل راديك محلها منذ بدايـــــة عام 1920، أي أنه لم يحتل هذا المنصب سوى لفترة قصيرة. إلا أنـــه وجد من يدافع عن ترشيحه، خاصة سيراتي. وابتدأ النقـــاش، إلا أنه كان قصيرا لأنه لم يفعل سوى ترديد نقاش جرى في اللجنة التنفيذية قبل بضعة أيام من اجتماع المؤتمر.

كان الأمر هاما، وأساسيا، إذ أن السؤال الذي وجد نفســه مطروحا فجأة هو التالي: مع من نشكل الأممية الشيوعية؟ مع أية أحزاب؟ أية تجمعات؟ اية اتجاهات ثورية؟ من نقبل ومن نرفض؟ هل نقبل الأحزاب الاشتراكية وحدها التي وافقت على الانضمـام رغم أنها تحتفظ بداخلها أعداءا للأممية الشيوعية؟ أم التجمعات الجديدة وحدها، تلك التي تأسست أثناء الحرب وفق قواعـــد الانضمام للأممية الثالثة؟ تبنى الحزب الشيوعي الروسي موقفا وسطا: فموضوعاته حول الانضماملللأممية الشيوعية تتضمن 21 شرطا تشكل ضمانة ضد الانتهازيين، وسدا يمنع عليهم الدخول، وتسهل عملية الاختيار الضرورية بين أعضاء الأحزاب الاشتراكية القديمة.

فاجأ راديك الجميع بطرحه سؤالا كان الجميع قد اعتبروه محسوما، ووقف موقفا مناقضا بوضوح لقرار الحزب الشيوعي الروسي، قال: سينعقد المؤتمر، فمن يستطيع أن يشارك فيـــه؟ بالطبع ليس التنظيمات الجديدة التي تضم نقابيين وفوضويين فقـط ولو أنها مؤسسة وفق قاعدة الانضمام إلى الأممية الثالثة، بـــل مندوبو الأحزاب الاشتراكية أو الشيوعية فقط. أيده في ذلـــك سيراتي وبول ليفي، وبدا أن العملية مدبرة بلا شك، فالحزب الاشتراكي الشيوعي الإيطالي والحزب الشيوعي الألماني

هما، باستثناء الحزب الشيوعي الروسي، أهم أحزاب الأممية. كـــان بوسع راديك أن يعتبر تدخلهما لصالحه حاسما. إلاّ أنه أخطـــأ الحساب فقد ذكره بوخارين بالموقف المتخذ من قبل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي، وبنص النداءات الموجهة من الأممية الشيوعية إلى عمال كافة البلدان. وقال بوخارين ما جوهره: إننـــا لا نملك شيئا مشتركا مع الإنتهازيين، أمّا مع الثوريين المخلصين والمندفعين الذين صوتوا لصالح الانضمام إلى الأممية الثالثة فنريد أن نناقش بصراحة ومحبة، لقد راجعنا، حيث أصبح ذلـــك ضروريا، برنامجنا، وتخلصنا، حسب تعبير لينين، من سخافة الاشتراكية-الديموقراطية، من أجل بناء الشيوعية على قاعـــدة جديدة، ونريد أن نتابع جهودنا لقيادة النقابيين والفوضويين للقيام بالعملية التي تسمح لهم بلقائنا في الأحزاب الشيوعية الجديدة الجاري تشكيلها. وختم بوخارين قائلا انه لا يستطيع أن يفهم لماذا أعـاد راديك طرح القرارات التي كان الحزب الشيوعي الروســي، والأممية الشيوعية، قد حسمها. وماذا يفعل المندوبون البريطانيون هنا shop Stewards Workers Committees ؟ مـاذا يفعل بيستانا؟ واذا يفعل روسمير؟ لمـاذا دعونـاهم إذا كنـا سنقفـــل في وجههم أبـواب المؤتمر؟» وكان الأمر واضحا إلى حد أن راديك لم يجد مؤيدا جديدا لمناورتـه المتـأخرة: فبقي مع ليفي وسيراتي. لقد تكلمت عنهم، وأظن أن مـا قلتـه يشرح موقفهم خاصـة فيما يتعلـق ببول ليفي الذي يحتقر الفوضـويين والنقابيين جملـة، باعتبـارهم عناصر معارضة لا تكف عن تحديه، أمّا دوافع سيراتي فمختلفـة، فهو يجد أنه ليس من المقبول أن تستقبل الأممية الشيوعية بود التجمعات النقابية والفوضوية في حين أنها تصر على صياغة فروض مختلفة حيال حزب هام مثل حزبه.

كانت جلسة اللجنة التنفيذية ستتوقف عند ذلك الحد، لو لم يكن ثمة استنتاج يجب استخلاصه من هذا النقاش، وكان الاستنتـــاج حسب البعثة الروسية إلى الأممية الشيوعية إبعاد راديك عن السكرتارية، فقد أكدت النقاشات حتمية ذلك. واقترحت البعثـــــة أحد الشيوعيين الروس، كوبياتسكي، للحلول محل راديك. لـــــم نكن نعرفه، فطلب جون ريد إرجاء القرار قائلا أنه تلقى معلومات يجب التأكد منها، فقد يوجد في ماضي كوبياتسكي شبهات تجعله شخصا غير مرغوب فيه خاصة في مركز بمثل هذه الأهمية. لـــم يكن صعبا معرفة مصدر معلومات جون ريد. فراديك يتمسك بمركزه. إلاّ أن زينوفييف قال أن الترشيح من قبل البعثة الروسيـــة هو ضمانة، وسويت القضية. إذ أنه بعد تجربـة راديـــك في السكرتارية كان من الضروري اختيار رجل أقل شهرة إنما أكثـــر ثقـــة.

واتخذ قرار هام آخر في ذلك النهار. بمبادرة من البعثـة الروسية، فقد طلب من كل بعثة أن تعين ممثلا يبقى في موسكو ليشارك مباشرة في أعمال الأممية الشيوعية، وهكذا يتحقق الإتصال المباشر الذي يضمن حسن الإطلاع المتبادل بين الأممية الشيوعية وفروعها. وقد أيدت هذا الاقتراح. فلقد جئت لا لأذهب إلى المؤتمر، بل لأدرس الثورة البلشفية، والنظام السوفياتي الذي أقامتـــــه – وهذا ما لم يسمح لي المؤتمر بأن أفعله، أمّا اعتبـــارا من الآن فسيكون بوسعي فعل ذلك. بالإضافة إلى ذلك، كنت أتمنى متابعـة عمل المجلس العالمي المؤقت للنقابات الحمراء، ففي هذا المؤتمر أشعر بالراحة وأكون واثقا من أني سأقدم عملا مفيدا. يمكـــن للتكتيك الذي يدافع عنه لينين بحرارة ضد «اليساريين» في«مرض الطفولية»، والذي يؤيده أغلبية المؤتمر، أن يبدو متناقضا، فهـو يطلب من الشيوعيين والعمال الثوريين أن يبقوا في النقابات الإصلاحية، في حين يتم التوجه نحو أممية نقابية حمراء. لم يتأخر القادة الاصلاحيون للاتحاد النقابي العالمي في أمستردام عن قـول ذلك ومن المجاهرة بـه، يؤيدهم في ذلك الصحافة البورجوازية، لقد اتهمنا بالانشقاقية.

غير أن التناقض كان ظاهريا فقط، فالانشقاقيون لم يكونوا بجانبنا وهذا ما أثبتته الأحداث بسرعة، فقد حدث انشقاق إلا أن القـادة الاصلاحيون هم الذين كانوا يحدثونه في كل مرة يحسون فيها بخسارتهم للأكثرية، فهم، ومهما كان الثمن، لا يريدون السماح للمنتسبين إلى النقابات أن يعبروا عن رأيهم، وان يقرروا بحرية ووفقا للقواعد الديموقراطية، خاصة إذا ما أحسوا أنهم يخسـرون قيادة التنظيم النقابي. لم تكن «خطاباتهم» ضد «كل الديكتاتوريات»، ومن أجل الديموقراطية، سوى كلمات، فلقد قرروا، في الواقع، الاحتفاظ، بكل السبل، بالمراكز التي لم يستطيعوا الوصـول والمحافظة عليها لولا الحزب. لقد سنحت لي الفرصة لأبين المدى الذي وصل إليه لينين في التمسك بهذا التكتيك النقابي، يجب النضال والبقاء حيث العمال موجودون، أي في كافة النقابات الاصلاحيـــة إذ أن القادة الاصلاحيون نجحوا في الاحتفاظ بقيادتهم رغم موقفهم أثناء الحرب العالمية. غير أنه هنا، كما في الأحزاب الاشتراكية-الديموقراطية، حاربت أقليات كبيرة إلى هذا الحد أو ذاك إنمـــــا هامة دائما، تحت علم الأممية الثالثة لكسب المنظمة بجعل أكثرية اعضائها توافق على المفاهيم التي يدافعون عنها علنا.

إذا لم يجر نشاطنا دائما بالشكل الذي نريده فذلك بسبب نوعين من المسؤوليات. فقد كان يوجد داخل الأقليات، بعض المتلهفين و«المنظرين» المزعومين الذين يستعجلون الحصول على تنظيمهم النقابي المستقل. ولم يفد سوء تصرفهم سوى في تسهيل لعبة الاصلاحيين الذين انشرحوا لوجود مثل هؤلاء الأعداء. هذا مـن جهة. أمّا من الجهة الأخرى فإن قيادة الأممية الشيوعيـة لم تكـن تفهم دائما ماهية مهمتنا بالضبط، ولم تكن تدرك أهميتها، لذا كانت توجه كل الاهتمام نحو تطوير الأحزاب الشيوعية الشابة. غير أن الزعماء الاصلاحيين في النقابات لم يكونوا محترمين إلا لأنهم يعرفون من أين تؤكل الكتف، ولأنهم ذوو حيلة ودهاء. ولذا لا يجوز الاكتفاء بتوجيه الشتائم اليهم، رغم أنهم يستحقونها، لأنهـا بـــــدون أية فعالية. وقررت اللجنة

التنفيذية للأممية الشيوعية والمجلس العالمي المؤقت، بمناسبة اجتماع المجلس العالمي النقابي العام لأمستردام في لندن، توجيه نداء إلى عمال كل البلدان وإلى العمال البريطانيين خاصة. كلفنا، أنا وزينوفييف، بإعداد مشروعين يساعدان في صياغة النص النهائي. إلاّ أن مشروعينا كانا من الاختلاف في المضمون والشكل بحيث لم يكن بد من اختيار أحدهما على حساب الآخر. ففي حين ركزت أنا على جميع المآخذ العمالية في شكل يمكنها من التأثير والإقناع، مذكرا بالنشاط السابق لزعماء أمستردام، مشيرا إلى لا أممية هذا الاتحاد – حيث تعيث الشوفينية إلى حد ترتيب الأمم المنضمة إليه على أساس الصداقة والعداء كما في زمن الحرب – اكتفى زينوفييف بإطلاق مجموعة من الشتائم، غير مختارة بدقة أحيانا، ضد «السادة الزعماء الصفر»، الخ. يجب على المرء أن يكون جاهلا بالحركة العمالية والعمال البريطانيين ليتصور ولو للحظة أن نداء من هذا النوع يستطيع كسب مؤيدين، أو مجرد متعاطفين، وتسهيل عمل الأقليات الثورية. اقترح زينوفييف محاولة مزج النصين، إلاّ أن ذلك كان مستحيلا، فاعتمد إذ ذاك على نصه ووجدت نفسي أوقع عليه مكرها.

لم يكن عملي في الأممية الشيوعية يستغرق كل وقتي، رغم أني مكلف بتمثيل بلجيكا وسويسرا لأنهما لم يستطيعا ترك مندوب دائم في موسكو. كنت قد أقمت اتصالات أثناء انعقاد المؤتمر مع هاتين البعثتين. أن أبرز اللمندوبين فيهما هو، بالنسبة لبلجيكا، فإن اوفرستراتن، وهو إنسان جدي، كفوء، واحد مؤسسي الحزب الذي أبعدته عام 1927 عن الأممية الشيوعية «البلشفية» الزينوفييفية لها، وبالنسبة إلى سويسرا، همبرت - دروز الذي أساء إلى الثقة التي وضعناها فيه، كان كاهنا في بريطانيا في بداية الحرب العالمية، وقد اضطهد هناك بسبب معارضته للحرب، فعاد إلى سويسرا حيث اسهم في تجميع الزيمفرالديين، ونظم الدعايو لصالح الأممية الثالثة، وأدار مجلة رائعة، إلاّ أنه خلافا لكل ما هو منتظر أيد لا «البلشفة» فحسب، بل الستالينية بكاملها، بما فيها «محاكمات موسكو» ولم ينفصل سوى في الحرب العالمية الثانية عن الحزب المختلف جدا عن ذاك الذي أسهم في خلقه.

كان للأممية الشيوعية، مثل كافة المؤسسات السوفياتية، النقابية والسياسية، منزل يرتاح فيه العمال. وهو منزل واسع – كان يملكه الدوق الكبير سيرج، حاكم موسكو – يقع في ايلينسكوي على بعد عشرين فرست من المدينة، على طريق كلين. كان البناء الرئيسي مهيبا من حيث أحجامه، انما مبتذلا، وتنتشر البيوت الأخرى الصغيرة في الحدائق. كانت أعمال المؤتمر والنقاشات الطويلة قد انهكت المندوبين، لذلك ذهب الباقون معهم للاستجمام في ايلينسكوي. أمضيت فيه بدوري فترة قصيرة سمحت لي بإجراء ملاحظات هامة. أولا، هناك التناقض بين الخارج والداخل، فكل شيء في الداخل بسيط وفقير حتى، فقد أخذ كل شيء إلى الحرب، كان السرير مثلا مؤلفا من كمية من القش ممدودة على لوحات خشبية، في حين كان الغذاء، كالعادة، مختصرا جدا...

ذات صباح التقيت بالسيد «م» الذي لم أكن قد رأيته بعد منذ وصولي إلى الأرض السوفياتية بعد هذه الرحلة من ايامبورغ إلى بتروغراد والتي حاول خلالها أن يقنعني أنه يجب استخدام البرلمان من أجل الدعاية الشيوعية. لحقت بنا امرأته، وهي المرأة الثانية بعد كولونتاي في شعبة العمل بين النساء، فهي إذا شخصية هامة في «التراتب» السوفياتي. غير أنها لم تكن مستعدة لتجد كل شيء على أفضل ما يكون في جمهورية السوفييتات، على العكس، فهي تكثر من النقد غير الرحوم، إنها معارضة تقول ما تعتقده صحيحا. وليس في الأمر ما يدهش، فالكلام الحر ممكن بلا أية مضايقة، وبرفاقية تامة. غالبا ما التقيت أثناء إقامتي في موسكو بالسيد «م» وزوجته، فهما يملكان غرفة في فندق متربول، ومهما تأخرنا ليلا في العودة من اجتماع أو من المسرح فأننا نرى غرفتهما مضاءة ونكون واثقين من أنهما سيقدمان لنا كأسا من الشاي – ولو كان خفيفا – وأحيانا قطعة ملبس لتحليته، إلاّ أن ما يتردد باستمرار هو التشهير الدائم بنواقص النظام: إنه منزل لا يجب على الشيوعي المتذبذب أن يرتاده، إلاّ أن شيوعيي تلك الأيام كانوا صلبين جدا.

أنبأني هاتف من تروتسكي بأنه تلقى الترجمة الفرنسية لبيان المؤتمر، وكان هذا البيان موضوع كتيب نشر في بتروغراد وباريس معا. وكانت الترجمة أمينة كما بدا له، إلاّ أنه أحب أن يعيد قراءتها معي. استغرقت المراجعة سهرات بكاملها، وكان، في تلك الأيام، يبقى بعد العشاء في الكريملين عوض أن يعود للعمل في مكتبه. هذا ما وفر لي إمكانية استجوابه مجددا، غير أن الأسئلة هذه المرة طالت مواضيع أكثر تحديدا كنت أود تعميقها، ومن الطبيعي أن تكون حول المؤتمر نفسه. سألته أيضا عن الرجال، فأنا أعرف جيدا بعضهم غير أني لا أعرف عن الكثيرين أكثر من الإسم. قدم لي وصفا عن حياة هؤلاء وهو وصف وجدته مليئا بالمدح عندما تسنى لي اختباره، إنه يعرف جيدا كل الذين يعمل معهم، في اللجنة المركزية للحزب، وفي المؤسسات السوفياتية. وإذا كان يوجد الكثيرون من الذين لا يحبهم والذين يحكم عليهم بقسوة فذلك ليس لأسباب شخصية أبدا بل لأنهم دون مستوى مهمتهم أو أنهم يضطلعون بها بطريقة جد مسيئة. سألته ذات يوم «ألم تقلق أبدا حول المصير أثناء الحرب الأهلية الطويلة؟ وما هي اللحظة الأكثر قساوة؟» أجاب بسرعة: «بريست – ليتوفسك لقد كان الحزب مضطربا، «مخضوضا». وكان لينين وحده تقريبا عندما قبل توقيع المعاهدة بلا نقاش. كان بإمكاننا أن نخاف الانشقاق، والصراعات الداخلية الحادة وأثارها المدمرة على روسيا السوفياتية في ذلك الوقت... تمثل الحرب الأهلية أخطارا من نوع آخر، عندما وجدنا أنفسنا محاصرين من الشرق والغرب والجنوب معا، عندما كان دينيكين يهدد

تـــــولا، فمن المؤكد أننا تساءلنا بقلق عما إذا كان جيشنا سيصمـــــــد أمام هذا الهجوم المثلث. فيما يختص بي، لم تغادرني الثقة إطلاقـــــــا. فقد كنت في موقع خاص يسمح لي بتقدير الوضع: كنت أتابـــــــع بدقة ما يطب منا جيشنا، وكنت أعرف، بفضل رحلاتي الدائمـــــة إلى الجبهة وعبر البلاد، ما تمثله جيوش الثورة المضادة، فهـــي أفضل تسليحا من جيوشنا. حتى أن ايودينيتـــــــــش كان يملك دبابات لدى هجومه على بتروغراد، إلاّ أنـي كنت أعرف مكان ضعفها الأساسي: فخلفها يرى الفلاحون ملاكي الأراضي التي استولوا عليها. وحتى الذين لم يكونوا متعاطفين معنا تحولوا إلى حلفاء يمكن الاعتماد عليهم.»

16- شعوب الشرق في مؤتمر باكو

بعد أن وجهت الضربة إلى المتدخلين، وبعد تدمير كولتشاك، وايدونيتش ودينيكيين، هزمت الثورة المضادة، ولم يعد متبقيـــا سوى ورانجل Wrangel الذي يحاول تجميع بقايا جيـــش دينينكين، وكان بالإمكان إهماله. كان المؤتمر قد حدد، بعـــد نقاشات عميقة المفاهيم التي يجب أن تخدم كقاعدة لتأسيـــــس أحزاب شيوعية، كما أن مهام ودور الأممية حددت بدون التبـاس، كما أنه أعطى قيمة هامة للمسألة القومية، لظروف الشعوب المستعمرة والشبه المستعمرة. لقد كان لثورة 1905 مضاعفات خطيرة لدى هذه الشعوب، في تركيا، وإيران، والصين خاصة. وعلمتهم ثورة 1917 بشكل أكثر تحديدا التكتيك الواجـب عليهم إتباعه للتحرر. لقد علمتهم موسكو كيف يستطيع شعب ضعيف التصنيع نسبيا، ومؤلفا في غالبيته الكبـــرى من الفلاحيـــن، أن يقلب نظامه الأوتوقراطي ويصمد بنجاح أمام تدخل القوى الامبريالية. وقررت اللجنة التنفيذية، كاستمرار منطقي لما سبق، دعوة ممثلي كافة الشعوب الخاضعة إلى مؤتمر واسع. وكان المكان المختـــار لهذا التجمع هو باكو، في تقاطع أوروبا وآسيا. سيمثل زينوفييف وراديك وبيلادون الأممية الشيوعية، وسيصحبهم مندوبون عن البلاد التي تملك مستعمرات: توم كلش عن الامبراطورية البريطانيـة، جانس عن هولندا، جان ريد وأنا. لم تكن الرحلة، كما قـال زينوفييف، خالية من المخاطر، فالمسافة طويلة، ويتوجب علينا أن نجتاز بلاد كلها، ويمكننا أن نصطدم في الطريق ببعض العصابات، رغم أن المقاومة المنظمة لم تعد موجودة. صرفنا خمسة أيـام للوصول إلى باكو، توقفنا يوما في روستوف ثم في عدد كبير من مدن القوقاس. فمن الأفضل استخدام هذا الانتقال الاستثنائي إلـــــى الحد الأقصى.

كانت الرحلة مفيدة وخالية من الخطر، وسمحت لنا أن نرى على الطبيعة الأضرار التي سببتها الحرب الأهلية، فقد دمرت أكثر المحطات، وامتلأت الخطوط الحديدية ببقايا العربات المحروقة، فالبيض، ما أن يهزموا حتى يحرقوا أثناء انسحابهم، كل شيء ويدمروه. كانت محطة لوزوفيا، وهي المحطة الأكثر أهمية في أوكرانيا، قد هوجمت قبل مدة قصيرة، وكان بوسعنا أن نرى الأضرار التي تسببها الهجمات العديدة حتى الآن في هذه المناطق. ويمكننا بواسطة هذا الشيء، قياس صعوبة المهمة الواقعـة على عاتق النظام السوفياتي. إلاّ أن التموين كان شديد التنوع، فعلى رصيف المحطة قدم لنا الفلاحون البيض وحتى بعض الدجاج المحمر وأشياء أخرى نادرة أو حتى مجهولة في موسكو. على امتداد القفقاس يوجد جبال من الفواكه مثيرة للقابلية: عند، إجاص، تين، تمر، وكل أنواع البطيخ الأصفر والأحمر. كان جون ريـــــد جارنا، وغالبا ما كان يأتي لتمضية الوقت معنا. وما أن يتوقف القطار حتى يسرع بالخروج ليعود محملا بالفواكه. كما أنه، اعتبارا من بيتروفسك حيث تحاذي الطريق البحر، كان يسرع ليغطس في البحر، لقد كان يستمتع بالراحة كما يستطيع أي شاب أميركـــي أن يفعل. وذات مرة، وفيما كان يسرع في ارتداء ملابسه مزق بنطلونه. إنه وضع مأساوي إذ أنه لا يملك غيره بالطبع.

ذهبنا من المحطة إلى المسرح حيث يعقد اجتماع واسع. كان القطار قد تأخر في نهاية الرحلة، ولذا كان المسرح طافحا منذ ساعة عندما وصلنا. كانت القاعة مثيرة للاعجاب، فاثواب الشـرق المجتمعة ترسم لوحة غنية بالألوان. كما أن الخطب التي ترجمـت إلى أكثر من لغة كانت تستقبل بتصفيق حاد، ويصغي إليها الجميع باهتمام زائد...

كـان البحر شديدا جدا. ولم نكن معتادين، لأننا أمضينا مثل هذا الوقت الطويل في موسكـــــو، على هذه الحرارة المرتفعة، والرطبة. حدثت تظاهرات عديدة على هامش المؤتمر. لعل أهمهـا هو تشييع جثث 26 مفوضا للشعب كان الانكليـز قد أخذهم إلى الضفة الأخرى من البحر لإعدامهم. حمل المناضلون المشيعون التوابيت، ورافقهم بلا توقف «نشيد الأموات» الجميل والمؤثر.

كانت آبار البترول بحالة يرثى لها، ولم يكن قد توفر للثـــورة لا الوقت ولا الإمكانية لإصلاحها، كما أن ما تركته القيصرية كان بعيدا عن أن يكون منشآت حديثة، فالعمال – إيرانيون في غالبيتهم – يعيشون في أكواخ بائسة. الطريق التي تقود إلى الآبار محفورة، ومغبرة، ولا يوجد سوى بعض هذه الآبار في حالة جيدة وعاملـة، كان كل شيء يسهم في جعل هذا المصدر الاستثنائي للثروة مشهدا محزنا بالمقابل، كانت المدينة، الجميلة جدا، جذابة، فالشمـــس ترسل أشعتها بين الأزقة: ويختلط الأسود والأبيض الكثيفـــان بصورة متساوية. اكتشف جون ريد محلات تبيع حريرا رائعا. فنصحنا قائلا: «يجب أن تشتروا منه، يوجد هنا قطع فريـدة.» «لكننا لا نحمل الدراهم معنا.» اطلبوا بعض الروبـلات من زينوفييف، إذ يجب أن تحصلوا على بعض منها باعتباركم أعضاء في اللجنة التنفيذية». ما كانت نتائج هذا المؤتمر، وهو بلا منـازع الأول من نوعه من حيث نجاحه في جمع ممثلين عن كافة البلدان، وكافة الأعراق والشعوب في الشرق؟ لم يعط مباشرة النتـائج المتوقعة، إذ لم يحصل في الأشهر التي تلته أية تمردات هامة يسعها أن تقلق وتشغل القوى الامبرياليـــــة جديا. كان التحرك عميقا الا أن نتائجه ظهرت متأخرة، فقد كان من الضروري انقضاء بعض الوقت قبل أن تعطي النقاشات والقرارات ثمارها، وقبل أن تتجمع القوى التي تعي النضال الواجب خوضه ضد اسياد أقوياء جدا حتى هذه اللحظة.

خلافا لما أكدته الصحف المعادية للسوفيات، لم يشترك أنفـر باشا Anver pacha في المؤتمر. لقد سمح لـه فقط، تلبية لطلـب منه، أن يصدر بيانا يكتفي فيه بالتعبير عن تعاطفه مع المبادرة التي اتخذتها موسكـــو. غير أن لعبته انكشفت بسرعة. لقد نظم استعراض في الأيام الأخيرة للمؤتمر، وكان ثمة موكب سيشتـرك فيه مندوبو التنظيمات المحلية والمنطقية. حاول أنفر الاستفـادة من ذلك ليجعل من نفسه بطل التظاهرة. فامتطى حصانه، ووقف علـى تلة على زاوية الساحة التي ينعطف فيها الموكب، وأثار بعض التحيات وحتى بعض الهتافات. وبدت مناورتـه واضحة، فدعـــي إلى الذهاب. منذ ذلك الوقت وقف صراحة ضد الجمهورية السوفياتية، وحاول إقامة جمهورية إسلامية في تركستان حيث مات في آب 1922. تلقى البعض نبأ موته بنوع من الشـــك، الاّ أن شاهدا عيانيا كتب يوم 11 أوكتوبر في البرافدا: «إنـه لا يمكن الشك في صحة موتـه.» وقدم التدقيقات التالية: «يوم 4 آب حاصـــرت قوات الجيش الأحمر، وعلى بعد 12 فرست من مدينة بال جوان، وحدة مسلحة صغيرة من «المتمردين المسلمين» يوجد فيها أنفـر باشا ومساعده الزعيم الاسلامي دافييـــت – مين بك. وقتل المتمردون بعد معركة ضارية. ورفع من حقل المعركة جسد رجل يرتدي ملابس إنكليزية ويعتمر طربوشا. ووجدت في جيوبـه أشياء كثيرة منها خاتمان شخصيان، ومراسلاته من امرأته، ورسائل من ابنـه في برلين، وبعض الصحف الهندية بالانكليزيـــة، وبرقيات مرقمة. وتعرف السكان على أنفر. وأكد المتمردون الأسرى هذا التعرف.»

في طريق العودة، حدث استنفار. فقد أيقظونـــا فجـــأة ذات صباح فيما كان القطار يجتاز القوقاس. لقد حدث هجوم علـــى الخط: لقد انتزعت الخطوط الحديدية مما سبب انحراف القاطـــرة التي تسبقنا. كما أن المحطة التالية التي توقفنا فيها، ناروسكايـــا، كانت قد هوجمت أيضا.. توقفنا. إلاّ أن العصابة التي نظمـــت الهجوم لم تكن تملك الوسائل الكافية لاستغلال هذا الانحـــراف جيدا، والا لكان الوضع حرجا جدا بالنسبة إلينا. فصلت القاطـــرة عن قطارنـا بغية الذهاب لمعاينة أهمية الأضرار. وعندما عـــادت مقلة الرجال الذين ذهبوا للتقصي لم نفاجأ برؤية جون ريد بينهم. لقد كان ذلك بالنسبة إليه مغامرة فريدة.

قبل قليل من وصولنا إلى روستوف فوجئنا بلقاء بلومكين، الاشتراكي – الثوري الذي أسهم في الهجوم ضد سفير ألمانيا في موسكو، الكونت ميرباخ، هذا الهجوم الذي خلق مباشرة صعوبات خطيرة أمام الحكومة السوفياتية، فقد كان من الواجب تقديـــم اعتذارات إلى حكومة برلين التي تهدد بمضاعفة الشروط الوحشية التي فرضتها في بريست – ليتوفسك. انضم بلومكين فيما بعد إلى البلشفية، وعندما التقيناه كان عائدا من مهمة كلفتـه بهـا الحكومـــة كان قد عاش فترة قصيرة في باريس، وهو يتكلم الفرنسية قليلا. سألني عن الحركة الاشتراكية في فرنسا، وعن القادة الذين يعرف بعضهم، خاصة جان لونغـه، الذي يريد بإصرار إرساله إلـى المقصلة، وقد كان يقطع كلامه فجأة قائلا: «لونغـــات»، ويقلـد بيده حركة شفرة المقصلة الواقعة – كما يتصور – على عنق هذا السيء الحظ حفيد كارل ماركس، الذي لا يستحق مثل هذا المصير السيء – إلاّ أنـه سرعان ما ينفجر ضاحكا. يجسد بلومكين جيدا هذا المزيج من البطولة والطيش الموجود لدى الاشتراكيين الثوريين.

لم نتوقف هذه المرة في روستوك إلاّ للمشاركة في تظاهرة انتهت بمهرجان. ملأت الجماهير ساحة واسعة أقيمت فيها بضعة منصات. جاء بلومكين معي إلى المنصة التي كنت سأتكلم منها راغبا ومصرا على ترجمة خطابي. امتنعت عن الكلام عن لونغـــــــه، كما أنه لم يدخله في ترجمته، بيد أني اعتقدت أنه جعلني أطالب ببضعة رؤوس.

كان ينتظرنا في موسكو نبأ محزن، لقد انتقل جون ريد إلى المستشفى لإصابته بالتيفوس (كان قد عاد قبلنا). بذلت كـــل الجهود عبثا لانقاذه، إلاّ أنه مات بعد بضعة أيام. عرض جثمانـــه في القاعة الكبرى في بيت النقابات. ويوم الدفن، كان الثلج قد بدأ يتساقط. لقد فجعنا، إذ أن الرحلة إلى باكو سمحت لنا بمعرفتـــه جيدا. لقد قرأت وترجمت المقالات التي كان يرسلها من بتروغراد، في ظل كيرنسكي، إلى المجلة الأميركية الرائعة «الجماهير» التي يديرها ماكس ايستمان، وكان ذلك قبل أن ألتقي به. وكانت هذه الرسائل بالنسبة إلينا بمثابة معلومات استثنائية من الدرجة الأولى، عاجلة، بصيرة، وجذابة. إلاّ أنـه كان قد وصل إلى روسيـــا، وإلى كل أوروبا، أثناء الحرب الامبريالية، برفقة الرسام بوردمان روبنسون. كانت رحلاته، باعتباره صحافيا خارج أي إطار، مغامرات غالبا ما تنتهي في السجن، خاصة في بولونيا وبتروغراد. كان يملك الكثير ليقصه علينا، فأعاد علينا الكتابات التي نشرها في لندن عام 1916 بعنوان «الحرب في أوروبا الشرقية». إلاّ أنـه حدثنا أكثر عن أيام أوكتوبر، عن هذه «الأيام العشرة التي هزت العالم» التي كان شاهدا متحمسا لها، ورواية مخلصا لها في الكتاب الذي كتبه لدى عودته إلى نيويورك عام 1919 دون أن يكلفه ذلك، كما قال لي ذات يوم صديقه ماكس ايستمان، أكثر من عشرة أيام، لقد امتنع عن استقبال أي زائر واعتزل في غرفـــة Green wich village وراكم وثائق هامة، ولم يخرج غلاّ لتناول الأكل بسرعـــة. لقد شاهدناه أثناء الرحلة مليئا بالحماس، والشباب، الذي يتخللـــــه بعض الحزن فجأة، وقد خلق موته أول فراغ في صفوفنا. لقد جعلته مداخلاته الصريحة، وحتى القاسية أحيانا، صديقا للجميع في المؤتمر... أفسح لجثمانـه مجالا أمام حائط الكريملين، في الجزء المخصص للأبطال الذين سقطوا في المعركة الثورية. وألقى كلمات الوداع بوخارين عن اللجنة التنفيذية

للحزب الشيوعي الروسي، وكولونتاي عن رفاقه في اللجنة التنفيذية. وكانت لوزيز بريانت التي إنما وصلت لتراه يموت موجودة، ومثقلة بالألم. كان حزنها بـــلا حدود.

كانت هذه العودة إلى موسكو مطبوعة بالموت والقلق. ومـــا كاد المؤتمر يبدأ حتى وصل ثلاثة فرنسيين معروفين بجديتهم وقيمتهم. ريمون لوفافر، صحافي وكاتب موهوب، تحـــــــول إلى الشيوعية، وفريجا، عامل ميكانيكي، وهو نقابـــي، وليبوتي Lepetit من نقابة الحفارين، وهو فوضوي: كان الاختيـــار رائعا، فهذه البعثة، على قلتها، تمثل جيدا اتجاهات الحركـــة العمالية الفرنسية. كان ريمون لوفافر الأكثر حماسا، فقد شارك بحماس شاب في النقاشات بين المندوبين، متسائلا ومستعلمـــا. وقال لي ذات يوم «يجب استعادة كل ما قمنا به حتى الآن»، هـــذه هي خلاصة ما رآه وعرفه طيلة إقامته. أمّا فريجا، فهو أكثـــر تحفظا من حيث مزاجه أم من حيث بقائه خارج الحزب، انه مناضل صلب لا يتخذ موقفا قبل أن يفكر مليا. انه أحد هؤلاء النقابيين، المخلصين تماما للثورة الروسية، انما المحتاجين للتداول والتدارس حول المشكلة الهامة التي يطرحها الانضمام إلى حزب سياســي، ومن الطبيعي أن يكون لوبوتي، بين الثلاثة، الأكثر انتقادا، الاّ أن الرسائل التي كتبها من موسكو ونشرت في «الفوضوي» لا تمس تعاطفه مع النظام الجديد.

لقد تركتهم في موسكو عندما ذهبت إلى باكو، واثقا من أني سأعود فأجدهم فيها، وأستعيد معهم النقاشات التي حرمتني منها أعمال المؤتمر. إلاّ أنهم متلهفين جميعا للعودة إلى فرنســـا لمعاودة نشاطهم كمناضلين. كانت طريق العودة في ذلك الوقـــت، عبر مورمانسك، ومنها تتوجه السفن إلى مرافئ الغرب. وعندما وصلوا إلى مورمانسك حدثت عاصفة واهتاج البحر. إلاّ أنهـــم أبحروا في سفينة ذاهبة. ومنذ ذلك الوقت لم نسمع عنهم أخبـــارا، وكان يزيد في قلقنا أن المندوبين الذين ذهبوا من مورمانسك بعدهم وصلوا إلى باريس. تعلقنا بأمل أن نجدهم، وباشرنا التفتيش عنهم في كل مكان: بلا جدوى. وأصبح من الواجب القبول باختفائهـــــم. وكان ذلك بالنسبة للحركة العمالية الفرنسية بمثابة ضربة فادحة دفعت للثورة.

كان بيار باسكال قد عبر حيال اثنين منهما، فريجا ولوبوتي، عن تعاطف خاص، فياعدهما وأرشدهما طيلة إقامتهما في روسيا وجعلهما يستفيذان من معرفته بالرجال، والنظـــام، والبـــــلاد. كتب من موسكو: «ترك فريجا ولوبوتي روسيا متغيران. لقـــد تعلما هنا حقيقة كبرى كانت تنقصهما في فرنسا. لقد كانا يتصوران، إلى هذا الحد أو ذاك من الوعي، انه يمكن للمجتمع الجديد الذي يتخيلانه، المجتمع الخالي من الطبقات ومن الاستغلال، أن يتأسس بين ليلة وضحاها، وأن يخلف مباشرة النظام الرأسمالي غداة الثورة فتعلما في روسيا أنه، على العكس، يجب خلق هذا المجتمع بالعذاب والجهود وطيلة سنوات... بالإضافة إلى ذلك تولى لينين بشخصه تنشأتهما، شفاهيا وكتابة. وكان لهما معه حوار طويـــــل وودي، كما أنهما قرأا الترجمة الفرنسية لكتابه حول الدولة والثـــورة وكانت هذه القراءة بالنسبة إليهما اكتشافا فعليا... لقد كـــان شعورهما بالواجب سبب موتهما. لقد ماتا ضحية رغبتهما في الإسراع في نقل كلمة الشيوعية إلى فرنسا».

17- النقابات الروسية

ما أن عدنا إلى فندقنا في ديبلوفوي دفور حتى قيل لنا أننا سننتقل إلى فندق لوكس Lux كان ديبلوفوي دفور مناسبا إلى حد أن فكرة تركه كانت مزعجة، وأصبحت أكثر ازعاجا عندما أتيح لنا زيارة مقرنا الجديد. يقع هذا المقر في منطقة ضاحية تفرسكايا، وهو كناية عن عمارة لا ذوق فيها إطلاقا، إن كان من حيث واجهتها، أم أثاثها، أم بقايا هذا «اللوكس» الذي أعطى اسمه للفندق. يوجد فيه صالونات لا تستعمل إلاّ أيام المؤتمرات حيث يكون ضروريا وضع الأسرة في كل مكان. عندما مان أميدي دونوا Amedee Du nois يقضي فترة تدرجه في موسكو، التقيته مقيما في واحد من هذه الصالونات الذي جعلته يزيد من تحفظاته وهو الذي جاء إلى موسكو في حالة روحية انتقادية. وكان يتساءل: «أين هي الأممية الشيوعية؟ يبدو أن زينوفييف يأخذها معه عندما يذهب إلى بتروغراد».

أمضيت في لوكس عاما كاملا حتى أكتوبر 1921، وعدت فأمضيت فيه فترات قصيرة متقطعة كل مرة كنت أستدعى إلى موسكو. وكنت أجده باستمرار منفرا، بيد أنه لا يشبه في شيء الحالة التي أصبح عليها عندما أقامت الستالينية الاشتباه، والدسيسة والممارسات البوليسية. لكن إذا كان الديكور قد تغير فإن حياتنا بقيت على حالها: اجتماعات، مناقشات، تحضير تقارير، قراءات، وكانت الصحف قد بدأت بالوصول ولو بغير انتظام.

كنت أذهب يوميا إلى مكاتب الاتحاد العمالي العام الروسي، حيث احتفظ بمقر للمجلس العالمي المؤقت للنقابات الحمراء. فهناك لا وجود للرفاهية والأبهة بأي شكل من الأشكال: كل ما هو موجود هو الفقر الشديد، واللحد الأدنى المطلوب للتمكن من العمل. ولا وجود أيضا لأية تدفئة، في حين تملأ رائحة حساء السمك الكريهة البناء بأكمله. يبدو أن الحساء هو النوع الوحيد الذي يقدمه هذا المطعم. إن النقابات هي، رغم كل شيء، بمثابة الأهل الفقراء، لا لأنه لا يعلق عليها أية أهمية (فهي ستكون قريبا محور أحد أهم النقاشات داخل اللجنة المركزية والحزب) بل لأنه احتفظ لها بأكبر المهام في بناء المجتمع الشيوعي. إلاّ أن التشديد بقي على الحزب، فهو الذي يحصل على حصة الأسد من موارد الجمهورية، من حيث الرجال أم الوسائل. ويبدو واضحا أن ثمة نقصا في الرجال، فقد أودت الحرب بحياة الكثيرين من خيرة العناصر، ولا يكفي الذين بقوا، رغم الأيام المتعبة التي يقضونها، للقيام بكل شيء، كان الخيار واجبا ولهذا كانت النقابات تأتي بعد الحزب (يجب أن نذكر أن التمييز – وحتى التناقض – بين الحزب والنقابة ليس معروفا لدى الشيوعيين الروس). كنا نصاب بنوع من الحذر بعد أن نمضي النهار بكامله في هذه المكاتب المثلجة، ولذا كنا نسر بالخروج إلى **الهواء** الطلق ولو أن ميزان الحرارة يشير إلى الخامسة والعشرين تحت الصفر، وكنت أستمتع بإطالة العودة وذلك بأن أسير في البولفارات حتى نصب بوشكين، في الوقت الذي تحتفظ فيه الشمس الهابطة وراء الأشجار السوداء بقليل من حرارتها.

التقيت صدفة، في هذه المكاتب، بشابة بولونية كانت قد درست في فرنسا، وتعرف عددا كبيرا من أصدقائي، عرضت علي أن تقوم بالترجمات التي قد تفيدني، وأضافت قائلة «يجب علي أن أقول لك أنني منشفية» فأجبتها: «الأمر سيان بالنسبة لي، شرط أن تعملي بإخلاص..» كنت واثقا أنني لن أجهل شيئا، نتيجة وجودها، عن الوجه الآخر للصورة: فهي لا تكف أبدا عن الإشارة إلى النواقص، ونقاط الضعف في النظام، وكانت تنفجر لاعنة، وعندما يقع بين يديها نص للترجمة يهاجم المناشفة، وتصرخ: «هذا خطأ! هذه أكاديب!» كانت تسكن في ديبلوفوي دفور، مسكننا السابق الذي أعطي للموظفين والسكرتيريين النقابيين. وذات مساء حملتني ترجمة ملحة للذهاب إلى هناك. فشاهدت منظرا مؤلما: كان كل شيء مهملا. لم يكن بالإمكان التعرف على المنزل الذي عرفناه نظيفا، مرحا، لقد كفى وجود مسؤول غير كفوء أو مهمل لتسبيب مقل هذا الخراب، كان السقف مشققا في بعض الأماكن، والجدران ملطخة، والمسارب مقفلة ومسدودة، وأجهزة الإضاءة ناقصة، ليست هذه هي «أوروبا» بل «الشرق» حيث عمل الصيانة اليومي مجهول. إن هذا الإهمال الشرقي هو واحد من السمات السلبية في الشخصية الروسية الجذابة في أكثر من ناحية.

كنت أعمل منذ أشهر مع هذه السكرتيرة عندما أخبرتني إحدى صديقاتها، ذات صباح، أنها أعتقلت. فذهبت مباشرة عند لوسوفسكي للاستعلام. فأكد لي أن الأمر يتعلق ببضعة أسئلة تطرح عليها وأنه لا يتعدى كونه تحقيقا بسيطا. أطلق سراحها في اليوم التالي، فجاءت إلي تروي قصتها. لقد التقت عدة مرات ببولونيين منتمين إلى البوند (تنظيم اشتراكي يهودي) لا يمكن اعتبارهم أصدقاء للجمهورية السوفياتية، وارتدت اجتماعاتهم طابعا سريا وحتى تآمريا. عند ذلك قامت الشرطة التي كانت تراقب هؤلاء البولونيين، ببعض الاعتقالات. وبدا من خلال لهجتها الهادئة فوق العادة، ومن أنها تتكلم عن اعتقالها بدون غضب، أن تدخل الشرطة مبرر في رأيها.

كان اسم المندوب الهولندي إلى اللجنة التنفيذية جانســـــن. وهو صديق كبير لغورتر ومعجب به. وغورتر هو المدافع المتحمس عن مفاهيم الحزب الشيوعي العمالي الألماني، وقد تكلمت عنه أكثر من مرة. التقيت بجانسين في برلين، عندما كنا نبحث سويا عن طريق نحو موسكو. لقد أمن الاتصال بين أمستردام وبرلين أثناء وبعد الحرب، وهو يعرف جيدا الحركة العمالية الألمانية ورجالها الذين لا يحبهم أبدا، ويحكم عليهم بقسوة. لم يكن هذا صحيحا كل الصحة، إذ أن شيئا من كره الألمان يشوه. هذه التقديرات. كنا نلتقـــي، ونتبادل الملاحظات، ونتناقش أثناء نزهتنا في ليل موسكو.

ذهبنا ذات مرة في زيارة إلى مصنع يرافقنا شيوعي شـــاب عمل في بلجيكا مدة من الزمن. أوصلنا الترام إلى مكان بعيد جدا فـــي الضواحي، إلاّ أنه بقي علينا أن نمشي مسافة لا بأس بها كانـــت السماء ملبدة، غلا أن الرياح ضعيفة، كما أننا كنا مثقلين بالثياب. في الطريق صادفنا سلسلة من العربات المتوقفة أمام متجر فقررنا الدخول سعيا وراء الحصول على قدح من الشاي، بالاضافة إلى اهتمامنا بالتعرف إلى هذا الإطار وهؤلاء الأشخاص (ولذا لم نذهب إلى مقاه اخرى في المدينة، رغم أنها كانت لا تزال تتقبل الزبائن). جاؤوا إلينا بالماء الساخن، الملون قليلا، وكانت الأقـــــداح والاناء مشرومة ومكسرة، إلاّ أنه كان بوسعنا أن نشعر بالدفء على الأقل. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتحول فيها الشاي إلى مجرد ماء مغلي.

لا فائدة من القول أن دخولنا أثار الفضول بين الزبائن فأصبحوا، متلهفين لسؤالنا: من نحن؟ وإلى أين نذهب؟ باشر رفيقنا الشـاب حديثا مع جاره، وخطرت له الفكرة المزعجة بأن يكشـــــف عـــن مناصبنا العالية: أعضاء في اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية فأجابه محادثه بلهجة ملؤها الاحتقار: «إذا، إنهم يهـــــــودا!». «كلا، إنهم ليسوا يهـــــــــودا!». فوجئ أول الأمر وأخذ ينظر إلينا بإصرار، إلاّ أنه كان من المستحيل، في النهاية، إقناعـــه، مـــع رفاقه الذين هبوا لنجدته، بتبديل رأيه: كل القادة السوفيات يهود، وهو لا يتحرج عن انتقاد النظام وبفظاظة أحيانا. كان هذا معبرا جدا، فحوادث من هذا النوع تشكل وسيلة ثمينة لقيـــاس الرأي الشعبي، وثمة مهمة شاقة أمام الثورة لتحرير هذه العقول الخشنة من السم الذي بثته فيها القيصرية.

خلفت فينا زيارتنا إلى المصنع، ولو لأسباب مختلفة، انطباعا مماثلا فيما يتعلق بصعوبة المهمة، إلاّ أن هذه الصعوبة لا تتعلق هنـــا بالأشخاص، فالعمال والمسؤولون شديدو التعاطف والاندفاع أمام النظام، وقد عرضوا لنا بتوسع مآخذهم والصعوبات التي يصطدمون بها، كان العمل منظما بدقة إلاّ أن ما ينقص هو الوسائل والأدوات التي لا يمكن الحصول عليها.

كنا منهكين بشكل لا يسمح لنا بالعودة مشيـــــا على الأقدام، وبدت لنا فكرة العودة بواسطة الزلاجـــــات جذابة. وفي الواقـــع كان ذلـــك لذيذا في البداية إذ كان الهواء الطري يصفح وجوهنـــا، الا أن ذلك لم يدم طويلا. فقد كنا متدثرين بالملابـــس، غير أن ذلك لم يكن كافيا لمثل هذه الرحلة، لذلك قررنا سريعا البقاء حيث كنا مكتسبين تجربتنا الأولى عن الزلاجات.

بدا أن النقاشات والاختلافات حول برنامج الحزب الشيوعي العمالي الألماني – حزب الجماهير لا القادة، ضد البرلمانية والنقابات، - قد استنفذت، وكانت قد وصلت إلى ذروتهـــا في المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية. إلاّ أن هرمان غورتر، الشيوعي الهولنـــــدي الذي منظر هذا التيار، وجه «رسالة مفتوحة إلى الرفيق لينيـــن» يستعيد فيها النقاش، مما دفع الأممية الشيوعية لدعوة غورتـــــر إلى موسكو من أجل نقاش جديد. تم التحضير لجلسة استثنائية للجنة التنفيذية. كان غورتر شاعرا، وشاعـــرا كبيرا، لذا كان النقاش معه يأخذ بالضرورة طابعا أدبيـــــا. وهكذا فإن رسالته المفتوحة تنتهي بهذه الخلاصة:

«في النهاية، وبغية وضع تقديراتي في شكل مخلص أمـــام أعين العمال الراغبين في تصور واضح عن التكتيك، فإني ألخصها بالموضوعات التالية:

1- يجب أن يكون تكتيك الثورة في الغرب مختلفا تماما عن تكتيك الثورة الروسية.
2- لأن البروليتارية هنا هي وحيدة.
3- إذا، يجب على البروليتارية أن تقوم وحدها بالثـــورة ضد كافة الطبقات الأخرى.
4- إن أهمية الجماهير البروليتارية هي نسبيا أكبر، وأهمية القـادة أقل منها في روسيا.
5- يجب أن تمتلك البروليتارية هنا كافة الأسلحة المثلى للثـــورة.
6- بما أن النقابـــات هي أسلحة ناقصـــة فيجب إلغاءها أو تحويلها جذريا، واستبدالهـــــا بمنظمات للمؤسسات، وجميعها في تنظيم عام.

7- بما أنه يجب على البروليتارية وحدها أن تقوم بالثورة. بدون أية مساعدة، يجب عليها إذا أن ترفع من وعيها وشجاعتها. ومن المفضل وضع البرلمانية جانبا في الثورة»

كان هذا، كما نرى، البرنامج الكامل للحزب الشيوعي العمالي الألماني. إلاّ أن الاهتمام الرئيسي لغورتر هو المسألة النقابية. وعندما التقينا، قال لي بحرقة: «أتمنى أن تراجع موضوعاتك حول النقابات». وقد بدا مدهوشا عندما علم أن النقابيين يؤيدون موضوعات الأممية الشيوعية لا موضوعاته التي زاد عليها هذا الإعلان ضد الاضرابات: «لقد بقينا قليلين، إن قوانا في الحزب الشيوعي العمالي الألماني محدودة إلى حد يوجب علينا أن نركزها على الثورة، لا أن نبعثرها في الاضرابات».

حصل الاجتماع في 24 تشرين الثاني. وقدم فيه غورتر عرضا طويلا. كانت النقاشات السابقة من الغزارة بحيث لم يكن ممكنا تقديم حجج جديدة، لقد قال الجانبان كل شيء. لكن شيئا جديدا حصل من جهة غورتر: شكل العرض الذي قدمه. كان الشكل جديرا بالاهتمام، إلاّ أن المضمون لم يكن صلبا، وكان ذلك واضحا وعندما نعيد اليوم قراءة خلاصة «رسالته المفتوحة» لا يمكننا إلاّ أن ندهش من سذاجتها. استطاع تروتسكي – وهو المكلف بالرد – أن يرفض، بطريقة لامعة أيضا، تأكيدات غورتر الهشة، وأن يشير إلى تناقضاته، ولعل أكثرها وضوحا تلك المتعلقة «بالجماهير». وهي تعود باستمرار في عرضه الذي يجعل الجماهير متعارضة مع القادة في حين انه يأخذ على الأممية الشيوعية «ركضها وراء الجماهير». لم يكن يحكم بنفي أن الثورة في الغرب ستحصل بطريقة مختلفة عنها في روسيا: لقد قال لينين ذلك ورده، ولكن لا يجب تبعا لذلك تقسيم أوروبا، كما فعل غورتر، إلى عالمين مختلفين تماما، فثمة نقاط مشتركة بين روسيا والغرب.

كانت هيلين بريون ذلك الوقت في موسكو حيث تمضي فترة قصيرة. وهي مناضلة نشيطة في اتحاد نقابات التعليم، وقد ساهمت، في فرنسا، في الحركة النقابية الأقلية، وقد كلفها نشاطها أثناء الحرب المطاردة والحكم. لقد تابعت هذه النقاشات باهتمام حاد وعبرت، لدى الانتهاء، عن سرورها لتمكنها من حضور مناظرة بمثل هذا المستوى العالي.

18- الفوضويون – موت ودفن كروبوتكين

كان الفوضـــــويون الروس منقسمون إلى عدة تجمعات واتجاهات – وقد زادت الحرب من هذه الانقسامات - ، من الفوضـــــويين الشيوعيين إلى الفرديين. وهذا الانقسام موجود في كافة البلدان، وإن كان في روسيـــــا أكثر منه في البلدان الأخرى كما بين ذلك فيكتور سيرج في المقالات التي خص بها الفوضـــويين الذين يعرفهم جيدا. عندما وصلت إلى موسكو، في حزيران 1920 كان أحد هذه التجمعات، تجمع الفوضـــويين – العالميـــن، يملك مقرا واسعا في قمة تفرسكايـــا يعقد فيه الاجتماعات. لم أكن أعرف أحد بينهم، إلاّ أني كنت أعرف جيدا اسكندر شابيرو المنتمي إلى تجمع الفوضـــويين النقابيين. وكنت قد التقيته أكثر من مرة في لنـــدن، خاصة 1913، في المؤتمر النقابي العالمي، فقد كان يعيش آنذاك في لندن ويقيم اتصالات مع «الحياة العماليـــة» ذهبت لرؤيته في مقر تجمعه «صوت العمال» وهو عبارة عن مخزن مجاور للمسرح – الكبير. يركز شابيـــــرو وأصدقاؤه، مثلهم مثل غالبية الفوضويين، كل جهدهم على النشر، فهم يملكون مطبعة صغيرة تسمح لهم بطبع نشرة وبعض الكراسات، وأحيانا قليلة بطبـــــع كتاب. قدم لي عدة نسخ عن كراســـات نشرت منذ مدة قريبة: نصوص بقلم بيللوتييه، وباكونين، وجورج ايفوتو، وفهمت أنهم يطمحون إصدار طبعة روسية عن «تاريخ بورصات العمل» الذي كتبه بيللوتييه. إلاّ أن وسائلهم ضعيفة باعتبار أن الورق مفقود.

كان شابيرو مطلعا بصورة خاصة على ما يجري في العالـــم لأنه يعمل مع تشيتشيرين في الشؤون الخارجية. فهو يرى ويترجم البرقيات في المفوضية. طلب مني بعض التحديدات حول الحركة النقابية في فرنسا، وحول أصدقائه، وتكلمنا من ثم عن النظام السوفياتي. لم يكن يؤيد كل شيء وكانت انتقاداتـــــه عديدة وجدية، إلاّ أنه يصوغها بدون خشونـــة، غير أن استنتاجه هو إمكانية وضرورة العمل مع السوفيات إلاّ أن رفيقه الذي حضر النقـــــاش كان أكثر خشونة، فهو غاضب على الطريقة السخيفة التي يتصرف بها البلاشفـــــــة في الريف، إلاّ أنه وصل على الاستنتاج نفسه. اتفقنا على موعد لندرس سويا مشاكلهم وعلاقاتهم بالنظـــــام، وخاصة بالحزب الشيوعي، والشروط التي يمكنهم من خلالهـــا متابعة مهمتهم، وذلك بعد أن يتم تحديد الأمور بوضوح وصراحـــة من قبل الطرفين.

كان حوارنا وديا جدا، وبدا لنا الحـــــل سهلا إلى حد اعتقادنا معه أن المشكلة قد حلت. فقد كان الفوضـــويين حيال النظام مواقف مختلفة مطابقة للاتجاهات المختلفة، بدءا بالذين يحاربون الشيوعية والنظام بالاغتيال والقنبلة وصولا إلى الذين وافقوا على البلشفية ودخلوا إلى الحزب الشيوعي – وبينهم الفا، بيانكـــي، وكراسنوتشيكو، في حين يحتل البعض منهم مناصب رفيعة – مثلا بيل شاتوف العائد من أميركا في سكك الحديد – ورغم بقائهم خارج الحزب فالاندفاع والمؤهلات تجد دائما ما تبذله في العمل على إعادة بناء البلاد. فالفوضوي الموجود على رأس مؤسسة ما يملـك إمكانيات هائلة واستقلالا كبيرا، فالسلطة المركزية تدع المبادرات تأخذ مجراها لسرورها برؤية المؤسسات وقد أحسن قيادتهـا. ويعرف الفوضـــويون النقابيون ذلك، إلاّ أنهم يريدون أكثر منه: الاعتراف بتجمعهم وضمان إمكانية الاستمرار وتطوير عملهم في النشر. وتوصلنا في نهاية النقاش إلى أنهم سيكتبون بيانـــا يحددون فيه موقفهم حيال النظام، ومطالبهم، على أن أعرضه على اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية.

باشرت هذا الموضوع بمبادرة خاصة مني، وعندما رويت لتروتسكي ما قمت به، عبر عن سروره وطلب مني بالحاح متابعة جهودي لتحقيق الاتفاق. كنت واثقا جدا ومسرورا بأي اتفاق تكون له نتائج حسنة على الحركة النقابية في كافة البلدان. إلاّ أن أحدا لم يحضر إلى الموعد. ففي الساعة المحددة قيل لي عبر الهاتف أن شابيرو وصديقه لن يحضرا. وكانت ساشاكروبوتكين هي التي قالت لي ذلك على الهاتف دون أن تزيد كلمة. لماذا تكلفت هي بهذه المهمة؟ لم أكن أعرفها، ولم يسبق لي أن رأيتها. إلاّ أنه لم يكن من الصعب تصور ما حدث. لقد نوقش الأمر، واصطدمت وجهات النظر والاتجاهات المختلفة، وكان للأصدقاء المقربين من كروبوتكين مآخذ مدعومة إلى هذا الحد أو ذاك، وفي النهاية انتصر رأي الجماعة الأكثر محدودية، والأكثر شراسة، والأكثر حقدا. وهذا القرار سخيف لأن الفوضـــويين النقابيين هم أكثر بعدا من الفردانيين منهم على البلاشفة. و'ذا كان هؤلاء، وهم الأقرب إلى الشيوعيين رغم كل شيء، والذين يفهمون أنه من مصلحتهم الخاصة بذل الجهود في البناء السوفياتي، يتهربون، فلا مجال إذا لتمييزهم عن الفردانيين والمجموعات الأخرى التي تبشر بالصراع الذي لا يلين ضد النظام. لقد حرم موقفهم الثورة من مساعدة ثمينة في أكثر من مجال، إلاّ أنه أضر بهم أكثر، فلقد هزموا مسبقا في المعركة، وبدون أن يحمل ذلك أية فائدة لأي كان. مات كروبوتكين يوم 8 شباط 1921. كان قد عاد إلى روسيا بعد ثورة شباط ليقدم دعمه الكامل إلى الحكومة المؤقتة، إلى نظام كيرنسكي، ولو أن كورنيلوف معه. ويشكل هذا بالنسبة له تتمة منطقية للموافقة الكاملة التي أبداها، في بداية الحرب العالمية، حيال أحد التجمعات الإمبريالية، تجمع الحلفاء الذي يخوض حربا مزعومة عادلة ضد العسكرية البروسية. أمّا الآخرون، وعلى رأسهم مالاتيستا فقد فضحوا كروبوتكين وجماعته باعتبارهم «فوضويي

الحكومة» وهكذا أصبح كروبوتكين، نتيجة هذا الموقف أو بحكم أنه انخرط إلى حد بعيد في تأييد حكومة كيرنسكي المؤقتة، عدوا حازما للنظام السوفياتي.

كان غيلبو قد ضرب، في اليوم نفسه، موعدا مع لينين في الكرملين. فاقترح علي مرافقته. عرض غيلبو أولا قضيته الشخصية وتشعب النقاش العام إلى أن وصلنا إلى كروبوتكين. تكلم لينين عنه بدون أية قساوة، بل على العكس، امتدح كتابه عن الثورة الفرنسية (المنشور في فرنسا بعنوان: الثورة الكبرى) وقال لنا: «لقد أحسن فهم وتبيان دور الشعب في هذه الثورة البورجوازية. ومن الأسف أن يكون قد غرق في نهاية حياته في شوفينية غير مفهومة».

قبل أن نذهب، سألنا لينين بلهجة فيها بعض اللوم، لماذا لا نرسل مقالات إلى «الإنسانية»، وتوجه إلي قائلا: «تعال لرؤيتي من وقت لأخر، فحركتكم الفرنسية محيرة فعلا، كما أن المعلومات عنها ناقصة». فأجبته بأني أخذ الوقت الكثير من الرفيق تروتسكي، فأجابني بقوله: «حسنا، ستأخذ بعضا من وقتي أيضا».

عرض جثمان كروبوتكين في القاعة الكبرى لمقر النقابات – كما كان قد عرض جثمان جون ريد – وقام الفوضويون بالسهر عليه وعين الأحد المقبل موعدا للدفن. وعشية ذلك اليوم. جاء سكرتير الأممية الشيوعية ليقول لي أني مكلف بالكلام باسم الأممية الشيوعية. بدأ لي الخبر غير واقعي، فذهبت لأرى كروبيتسكي الذي أكد لي القرار، وعندما قلت له بأن نقاشا سابقا هو ضروري أو على الأقل تبادلا في وجهات النظر، أجابني بأنهم اعتبروا ذلك بدون فائدة. واكتفى بأن قال لي: «إنهم يثقون بك».

وقعت في حيرة: الكلام باسم الأممية الشيوعية عن رجل لم يكف البلاشفة عن محاربته، ولم يكن هو، من جهته، سوى عدو لا يهادن لثورة أوكتوبر، إنها مهمة دقيقة فعلا. إلاّ أن اعتبارين جعلاني أرى مهمتي أقل صعوبة مما كنت أرى في البداية. تذكرت حواري مع لينين – المناسب فعلا -، واللهجة التي تكلم بها عن كروبوتكين، مديحه «للثورة الكبرى»، وشيئا آخر كان قد فاجأني أثناء الأيام الأولى لإقامتي في موسكو. يمكننا أن نقرأ على نصب عمودي مقام في مدخل حدائق الكرملين، أسماء ممهدي الشيوعية، والمدافعين عن الطبقة العاملة، وقد صدمت «بالانتقائية» التي حكمت اختيار هذه الأسماء، «فالطوبائيون» كانوا جميعا هنا، وحتى بليخانوف كان موجودا (وهذا ما يثير العجب أكثر من غيره)، يبدو أن عنف السجالات ومرارة الخلافات لم يحولا دون الاعتراف بدعم ومساعدة الأعداء النظريين، هذا الدعم الذي قدموه في سبيل التحرر الانساني. ويوجد أيضا مثال آخر على هذا «التسامح» غير المتوقع من البلاشفة الشرسين ففي بداية الثورة ظهرت الحماسة الثورية بمختلف الأشكال وفي كل المجالات، وخاصة في مجال الرسم والنحت. ويمكننا أن نرى حتى عام 1920 صورة الثوريين الكبار محفورة على الجدران، وكانت صورة كروبوتكين موجودة في مكان محترم، في جوار المسرح الكبير. تشكل، بعد ظهر يوم الأحد، موكب كبير في مقر النقابات، لمرافقة الجثمان إلى مدفن نوفوديفيتشي Novodievitchi الموجودة في أحد أطراف المدينة. كانت الأعلام السوداء تخفق فوق الرؤوس، والأغاني المؤثرة تتلاحق. وجرى في المدفن حادث سريع إنما حاد، وذلك منذ الخطابات الأولى. فقد كان أحد فوضويي بتروغراد يتكلم عندما ارتفعت الاحتجاجات العالية والمنفعلة: «كفى! كفى!» يبدو أن الأصدقاء الأكثر قربا من كروبوتكين لا يتحملون أن يذكرهم أحد في يوم الحداد هذا بما تعتبره غالبية الفوضويين، أو كلهم حتى، ارتداد كروبوتكين عام 1914.

هل اللحظة غير مناسبة، وهل السكوت واجب؟ كانت هذه مسألة يتوجب على الفوضويين حلها فيما بينهم، كما كانت إنذارا بالنسبة لي إذا ما حاولت الإشارة إلى هذه الفترة الحرجة إلاّ أني كنت قد أعددت خطابي القصير استنادا إلى ذكريات شخصية، إلى ما كانه كروبوتكين بالنسبة لرجال جيلي، في أوروبا وأميركا والعالم قاطبة، وإلى مساهمته الهامة في نظرية التطور في «العون المتبادل»، وإلى شخصيته التي لا يمكن للمرء إلاّ أن يشعر حيالها بود مخلص. مرت كلماتي بدون موانع رغم أني احسست أن ثمة تعاطفا يحيط بها، وقد كتب فيكتور سيرج فيما بعد قائلا: «إنه خطاب صلح». ويمكننا الاستنتاج من هذا أنه قد كان للكلمات التي ألقيتها معنى سياسي محدد، كما لو أن مضمونها قد نوقش داخل اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية. وظهر فيما بعد أن ذلك لم يكن صحيحا، إلاّ أن تقديره يبقى غير شخصي لأنه نتيجة الملاحظات التي جمعها من حوله.

19- مؤتمر الحزب الاشتراكي الفرنسي. الأكثرية تؤيد الانضمام إلى الأممية الشيوعية

تكلمت في فقرة مخصصة للمؤتمر الثاني للأممية الشيوعية عن الحزب الاشتراكي الألماني المستقل، وعن أهميته العددية، والاتجاهات الموجودة بداخله. فداومينغ وستوكر يدافعان عن الانضمام إلى الأممية الشيوعية في حين يطالب ديتمان وكريسبيين ببعض «الضمانات». وسببت التقارير التي قدموها لدى عودتهم إلى ألمانيا نقاشات حادة داخل الحزب، وبدا أن لا مجال للمساومة بعد ذلك وأن الانشقاق محتوم. فدعي إلى عقد مؤتمر استثنائي. انعقد المؤتمر في هال من 12 إلى 17 أوكتوبر. وطالب مؤيدوا الانضمام من زينوفييف المجئ والكلام باسم الأممية. وأعطته الحكومة الألمانية تأشيرة دخول تصلح لأيام قليلة، فجاء وجلب معه سكرتير أممية الشبيبة الشيوعية، ولوفوسكي عن النقابات، وكانت هذه المرة الأولى التي خرج فيها أعضاء في الأممية الشيوعية من روسيا للمساهمة في مؤتمر اشتراكي، وكان من الضروري الاستفادة حتى الحد الأقصى من هذه المناسبة وكانت النقاشات رائعة ومحتدمة. تلقى هيلفردينغ الذي يقود المعركة ضد الانضمام دعم مارتوف وأبراموفيتش، إلاّ أن زينوفييف أجاد وانتصر، فقد كان يعرف ويحس أن أغلبية الحزب الكبرى تريد الذهاب إلى الأممية الثالثة، وهي تجد مشقة في تحمل الموقف المتذبذب والمتردد للقيادة، ولدى التصويت فاز زينوفييف بـ 236 صوتا في حين لم يجمع المعارضون سوى 156 صوتا. عاد زينوفييف إلى موسكو مكللا بالغار، وسرعان ما أصدرت الأممية الشيوعية كراسا غنيا يتضمن خطاب زينوفييف «اثنا عشر يوما في ألمانيا». استطاع زينوفييف أثناء إقامته القصيرة في هال الاهتمام بالحزب الاشتراكي الفرنسي. فهذا الحزب موجود في وضع مماثل لوضع المستقلين في ألمانيا: ضغط قوي من القاعدة للانضمام إلى الأممية الشيوعية، ومقاومة عنيدة من القيادات، إلاّ أنه كان من الواجب على مصيره المرتبط بمصير المستقلين أن يتبعه. وما أن علم اللونغيون برحلة زينوفييف حتى أرسلوا بعثة إلى ألمانيا لتخطط معه فهم يروا أن الواحد والعشرين شرطا التي فرضها المؤتمر الثاني للدخول إلى الأممية الشيوعية، هي شروط قاسية، وهي قد تمنع أي تصويت كثيف لصالح الانضمام. وافق زينوفييف على التوفيق، ووقع معهم عقدا.

عقد مؤتمر الحزب الاشتراكي في تور من 25 إلى 31 كانون الأول، لم يكن بوسع زينوفييف هذه المرة أن يحلم بالرحلة إذ أن الحكومات الفرنسية لا تطيق كل ماله علاقة بالبلشفية، إلاّ أن الأممية الشيوعية وجدت في كلارا زيتكين أفضل من ينقل رأيها. ذهبت هذه سرا إلى فرنسا، وأثار ظهورها على منصة المؤتمر حماس غالبية المندوبين. وتكرر التصويت الذي جرى في دريد. وحصلت فكرة الإنضمام إلى الأممية على 3028 صوتا، في حين حصل أعداؤها على 1022 صوتا. كانت معرضة الانضمام قوية خاصة في وسط المندوبين البرلمانيين، كما أن جان لونغه، حفيد كارل ماركس، انفصل بعد طول تردد عن غالبية أصدقائه الذين صوتوا للإنضمام.

وبدت النتيجة في موسكو، ملائمة جدا، ساد الارتياح رغم أن أحدا لم يكن يعلق على الحزب الاشتراكي الفرنسي وعلى فرنسا الأهمية المعلقة على الحزب الألماني وعلى ألمانيا. فيما يتعلق بي، وأنا الذي أعرف جيدا بعض الأشخاص الذين دافعوا عن الإنضمام فقد بقيت متشككا في إخلاصهم، فهم يسبحون مع التيار ليبقوا في قيادة الحزب. إلاّ أن هذا الحزب الجديد، المتخلص من ثلاثة أرباع برلمانييه، ومن غالبية الذين ساوموا أثناء الحرب الامبريالية، يقدم إمكانية فعلية: فالطريق حرة أمام العناصر الجديدة، أمام الشباب الذين وصلوا إلى القيادة، وليس متبقيا عليهم سوى البرهنة على كفاءتهم.

نتيجة تأسيس الحزب الشيوعي الفرنسي، وهو فرع من الأممية الشيوعية ، دعتني اللجنة التنفيذية إلى «المكتب المصغر» الذي يشكله زينوفييف، وبوخارين، وراديك، وبيلاكون كان هذا المكتب موضع انتقادات عنيفة، في المؤتمر الثالث، وخاصة فيما يتعلق بحركة أذار الفاشلة في ألمانيا. واعتبر بؤرة تحاك فيها المؤامرات غير الموجهة لا ذد الحكومات الرأسمالية فحسب، بل، وفي بعض المناسبات، ضد فروع الأممية الشيوعية، إلاّ أن هذا ليس صحيحا. فمهمة هذا المكتب الرئيسية تحضير عمل اللجنة التنفيذية. فزينوفييف يسكن في بتروغراد ويأتي إلى موسكو بصورة دائمة. ما أن يعلن عن مجيء زينوفييف حتى يبدأ العمل: اجتماع المكتب المصغر، اجتماع اللجنة التنفيذية، نقاشات، قرارات، واجتماعات مفتوحة.

كانت لهجة النقاشات في المكتب المصغر، كما في اللجنة التنفيذية، ودية جدا، إلاّ أن جو المكتب كان حميما أكثر، كما أن الساعات التي كنا نقضيها فيه كانت أكثر بهجة. كان راديك جيدا، أي كما يكون دائما عندما يعتبر الرجال الذين يخالطهم مساوين له، كما أن بوخارين لم يتخل أبدا عن لطفه، وكان يرسم مازحا أثناء اجتماعاتنا، وقد رسم أكثر من صورة لراديك وهو يرتدي التنانير. كنا قد عقدنا اجتماعا طيلة بعد الظهر في لوكس، وكان من الواجب أن نعود فنلتقي في الكريملين بعد العشاء، في مسكن زينوفييف، لاستكمال جدول أعمالنا. عندما وصلت وجدت زينوفييف ممدودا على أريكة، وبوخارين نائما على الأرض... إنهما، مثل بقية القادة الشيوعيين، يقتنصان ساعة نوم حين يستطيعان.

كانت حياة لينين وتروتسكي أكثر انتظاما بالتأكيد، باستثنـــاء فترة الحرب الأهلية. كنت أجد فائدة في النقاشات حتى عندما أكون معارضا للموضوعات المطروحة والقرارات المتخذة: ففي موسكو ذلك الوقت، يمكن للمرء أن يطلع أفضل اطلاع على الحركة العمالية في العالم كله، وعلى السياسة العامة للحكام، وذلك بفضل التقارير، والصحف، والاتصالات الشخصية بالزوار العديدين من كافة أنحاء أوروبا والعالم.

20- إلى المجموعة الشيوعية الفرنسية في موسكو

كان دريدزو- لوسوفسكـــــــي، الباريسي العتيق يأتي أحيانا إلى لوكس ليثرثـــــر معي. وذات يوم قلت لـه بينما كان ذاهبا: «سأنزل معك، فأنا ذاهب إلى اجتماع المجموعة الفرنسيـــــة. – وأنا أيضا قال لي.» كانت المجموعة الشيوعية الفرنسيـــــة تجتمع في منزل من نمط غربي قريب من فندق لوكس. وكان هذا المنزل مسكنا سابقا لقنصل اسكندينافي، وكان غليبو وزوجته ومهندس فرنسي يسكنون فيه، ويتضمن المنزل قاعة واسعة، مكتب القنصل بلا شك، تصلح للاجتماعات. كانت المجموعة غير متجانســـــة، فغالبية عناصرها المختلفة الأصول كانت موجودة في روسيا أثناء انتفاضة أوكتوبر وقد انضمت إلى الشيوعيـــة. فالليوتنانت بيار باسكال هو من البعثة العسكرية، وهو كاثوليكـــي مؤمن وممارس انتقل إلى صف الثورة بسبب كاثوليكيته لا رغما عنها – مما يكفي لمعرفة أنه لم يكن كاثوليكيا عاديا، فلقد اعجب بالطابع الاسبارطي للنظام. عمل مع تشيتشيريـــن بدأب دون أن يشتكي أو يطلب شيئا. وقد أتيحت لنا فرصة رؤيته، أثناء المؤتمر الثالـــث، فوجدناه منهكا إلى حد جعلنا نعتقد أنـه مريـــض وغير طبيعي. ماذا؟ لا يجب الاعتماد عليه لمعرفة ماذا في الأمر، إلاّ أن الأسئلة التي طرحناها على زملائه جعلتنا نعرف أن الذين وزعوا بطاقات الغـــذاء نسوا أن يعطوه منها. وقد نشر لـه في بتروغراد وباريس مقالات و«رسائل من روسيا الحمراء»، وهي ذات فكر وأسلوب جديرين بالإعجاب.

أما رينيه مارشان فكان مراسل الفيغـارو في روسيا عندما اندلعت الحرب. ويمكن التصور أنه م حيث أصوله – ابن أحـد القضاة – ومهنته بعيدة جدا عن الشيوعية والثورة الاشتراكيـــة. فلماذا انضم إليها؟ لقد قدم حججه في كراس عنوانه: «لمـــاذا انضممت إلى صيغة الثورة الاجتماعية» وهو عنوان غريب وحذر. لقد جعلته المؤامرات والمناورات والاغتيالات المدبرة في سفارات الحلفاء في بداية الثورة – وغالبا أمام ناظريه – جعلته يشمئز وساهمت بالتأكيد في دفعه إلى الجهة الأخرى من المتـراس. كان يعمل كثيرا هو أيضا. طلب مني أن أحصل لـه على اذن للتفتيش في أرشيفات وزارة الخارجية للحصول على المراسلات الديبلوماسية المتعلقة بالحلف الفرنسي-الروسي، وخاصة رسائل وبرقيات ايسفولسكي السفير في باريس من 1910 الـــى 1916. ونشرت هذه الرسائل التي ترجمها في باريـس (نشرناها بواسطة مكتبة العمل) تحت عنوان «الكتاب الأسود» وكان ذلك بلا شك مساهمته الأكثر أهمية في الثورة الروسية وفي التاريخ، وقد حاول بعد عشرة سنوات أن ينكرها عندما انظم تبعا إلى «صيـغ» أخرى رغم أني كنت أملك الترجمات التي كتبها بخط يده. ولا يمكن تصور رجل وكاتب متناقض إلى هذا الحد مع باسكال مثله. لم يكن جوعه الكبير خرافة، وكان يسمح لنفسه بالاحتفاظ بكلب كبير في غرفته بالمتروبول.

كان يجب علي بلا شك أن أقارن بين الكابتن سادول وباسكال، ليس التناقض أقل من ذلك الا أن طابعه مختلف تماما الا أني قلـت عن سادول ما يكفي لأنه يعامل المجموعة الفرنسية باحتقار ولا يأتي أبدا إلى هنا. وسرعان ما غادر روسيـــا السوفياتية حيث لم يجد عملا بمستواه.

كان هنري غليبو قد اقترب من مجموعة «الحياة العمليـــة» في بداية الحرب العالمية الأولى. وما أن سرح حتى ذهب إلى سويسرا حيث وجد له رومـــــــان رولان وظيفة في الوكالة العالمية لسجناء الحرب. كان جزءا من فرنسا «الرولاندية» كما قلت، الا أنه، تحت تأثير الاشتراكيين الروس الذين قابلهم في جنيف، تطور بسرعة نحو البلشفية. شارك في مؤتمر كيينتال واوقف ونفي في حين كانت محكمة فرنسية تحكم عليه غيابيا بالاعدام. وقد روى ذلك في كتب مختلفة مكتوبة بين 1933 - 1937 وهي كتب يجب قراءتها بدقة. لم اعطه حق تمثيلنا في المؤتمرات العالمية رغم أنـه ألح علي من أجل ذلك، كنت أعترف مختارا بحسنات مجلة «الغد» التي يديرها ويصدرها في جنيف فهي تحمل في كل شهر معلومات استثنائية كثيرة النفع، كما أنـه كان يبدي الكثير من الشجاعة ضد تكالب المخبرين والاستفزازيين الذين يضايقونه بلا رحمة. الاّ أننـــا لم نكن نستطيع اعتباره واحد منا، وقد برهن تطوره على أنـــه لـم يكن أهلا للثقة.

كان المهندس الذي أشرت إليه سابقا غير مسيس، كما كان سكرتير باسكال جاهلا من وجهة النظر السياسية. وكان يوجد، بالإضافة إلى هؤلاء، بعض الأشخاص الثانويين الذين ينتظرون فرصة العودة إلى فرنسا.

عندما دخلنا أنا ولوسوفسكـــي إلى قاعة الاجتماعات، بدا لنا الجو متوترا، والوجوه منقبضة إلى حد لم يعد من الصعب معـه تصور خشونة النقاش الدائر هذه الليلة. سرعان ما قفل لويوفسكي عائدا: «تصبحون على الخير.. إنها قصص المهاجرين التـي أعرفها جيدا.» وكـان علـي أن أبقى طيلة هذه السهرة المضنية. وكـــان اختلاف الأمزجة، عدا عن اختلاف المفاهيم السياسية، يجعل من مجرد التعايش مسألة مستحيلة، وكان كل شيء يسبب في نشوب خلاف حول قضية قديمة. وفي اتهام باسكال بسبب كاثوليكيتـــه. وكان باسكال، الجدير بالاحترام، يكتفي بقراءة نص يعتبره النص الذي جعله يجهر بعقيدته. نقل

الخلاف لى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي، فالمساومة التي اعدت لحسمه أو على الأقل للتخفيف منه بدت عند الاستعمال غير نافعة. واعتقد أن هذا الاجتماع كان الاجتماع الأخير للمجموعة الشيوعية في موسكو، وعلى كل حال، لم يجر أي نوع من النشاط.

كانت المجموعة الشيوعية الفرنسية في موسكو كما وصفتها لتوي، لا أنها استمرت وعاشت. عرفت هذه المجموعة في بداياتها ساعات مجيدة: فلقد اعتقلت الثورة المضادة اثنين من أعضائها. وسأستعيد هنا جزءا مما كتبه باسكال عن تاريخها كي لا أدع القارئ تحت تأثير نهايتها المؤسفة:

«نشرت أسرة الازفيستيا، يوم 30 آب 1918، النبأ التالي: كل الرفاق الذين يتكلمون الفرنسية أو الانكليزية والمتعاطفون مع الحزب الشيوعي مدعوون لحضور اجتماع يعقد نهار السبت 31 آب الساعة السابعة مساء. وجدول الأعمال هو التالي: 1- تقرير عن الوضع بالانكليزية يلقيه الرفيق بريس، مورغان فيليبس، وبالفرنسية تلقيه الرفيقة جانيت لابورب، 2- تنظيم مجموعات انكليزية- فرنسية.

«كانت جانيت لابورب من الرواد. وكانت راعية مواشي أثناء شبابها في قريتها في بورغونيا، ثم دخلت في الخدمة في المدينة إلى اليوم الذي وفرت لها فيه رسالة من احدى رفيقاتها فرصة السفر إلى روسيا. استقرت عند عائلة بولونية، وقامت بالدور المضني للمربية ونصف – الخادمة مما سمح لها باستكمال دراستها أثناء تلقين تلميذها لغة الأم. وعندما اندلعت ثورة 1904 دفعها قلبها الكبير وشجاعتها وإخلاصها لكل القضايا العادلة، إلى الحركة التحريرية. فانصرفت إليها بكليتها، وقد عرفنا من خلال معايشتنا لها أنها لا تعيش إلا من أجل المجموعة والشيوعية. ونعرف كيف ماتت في 2 آذار 1919، مقتولة ليلا بجبن، في ضاحية خالية من أوديسا، وعلى يد مجموعة من الضباط الفرنسيين والروس يرئسهم الجنرال بوريوس.»

وفي منطقة أوديسا، حيث ساعدت القوات الفرنسية البيض سقطت الضحية الثانية. كتب مرسيل بودي «ذكريات عن الحرب الأهلية»:

«حوصرت أوذيسا بحرا، وبرا.. ولم يعد ثمة خبز ولا ماء ولا وقود في المدينة، وبالمقابل كان أعداء الثورة في كل مكان، وكان الوضع يزداد سوءا. وفي اللحظة التي كنت أتكلم فيها، دس أحد الرفاق بطاقة في يدي قرأت فيها: «من المنتظر احتلال المدينة هذه الليلة، فاستعد للاختباء في مكان سري.» وبعد لحظات رأيت هنري باربري يدخل القاعة مسلحا، وكان قد القى خطابا رائعا بالروسية قبل لحظات. كان عمره، إن لم أكن مخطئا، ثمانية عشر عاما، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يكون بمعتقداته رجلا كاملا، إنه أحد أوائل الفرنسيين الذين انضموا إلى الثورة. وقد أرسلته المجموعة الشيوعية الفرنسية هو وجانيت لابورب، في بداية التدخل إلى جنوب روسيا للنضال هناك، إن شجاعته تصل إلى حد التهور. وقد لعب في سيباستوبول حيث كان موجودا أثناء ثورة البحارة الفرنسيين العاملين في أسطول البحر الأسود، دورا هاما في هذه الأحداث الحاسمة. لقد تنكر في زي بحار وذهب إلى بواخر الحرب الفرنسية ليساعد تحركا أعطى ثماره. – وفي ليلة 30 -31 تموز ذهب هنري باربري على رأس فرقة صغيرة من المتطوعين الفرنسيين لمحاربة المتمردين الذين يقومون بتذبيح الشيوعيين واليهود في جوار أوديسا. وحارب بشجاعته المعهودة، وحاول بعض رفاقه عبثا تهدئته في بعض اللحظات. تقدم الجميع وحده ليستطلع، فأسر أمام أعين رفاقه العاجزين عن إنقاذه. ولم نعد نراه منذ ذلك الحين.»

21- «قطار تروتسكي» ورانجل – نهاية الحرب الأهلية

يوجد في الروايات الجزئية التي وصلتنا عن عمليات الحرب الأهلية إشارات عديدة إلى «قطار تروتسكي»، فقد كان يرى هنا وهناك، على الأورال أو في أوكرانيا، ملهبا حماس الجنود الحمر ومثبطا، لمجرد ظهوره، عزائم مرتزقة الثورة المضادة، كانت الانتصارات الخارقة تتجدد باستمرار، وتحول «القطـــار» إلى شيء ما خرافي.

ويروي الكس بارمين الذي شارك في أحد هذه الانتصارات القصة التالية: «سمح هجوم جديد لهالر Haller (جنرال بولوني) بالاستيلاء على ريتشيستا واجتاز النهر. وكادت غومل تقع تحت سيطرة الأعداء عندما وصل تروتسكي. كانت قوافل الإخـــــلاء، هذه القوافل المسكينة الملأى بالصناديق والأوراق، وبقايا المخزونات، تسير على امتداد طريق نوفوزيبوكوف، وكان رئيسا اللجنة التنفيذية والتشيكا ينسحبان بالسيارات – ولم يكن باقيا في المحطة ســوى القطار الأخير المصفح، قطار المعارك الخاسرة الذي يقوده بحارة حانقون – عندما تغير كل شيء وشهدنا الأحداث تتغير. فقد وصل تروتسكي، ومعه مجموعات مستعدة من المنظمين المنضبطين، والمحرضين والتقنيين، تحكمهم جميعا إرادة لا تليـــــن. كانت الفرقة الخامسة المتحولة إلى بضعة مئات من الجنود قد فرت أمام البولونيين. ذهب أيكوك في الفجر واتخذ مواقع أمام ريتشيستـــا. كانت المعركة حامية. هاجمنا العدو المختبئ خلف الحاجز بالسلاح الأبيض. وكنا بقيادة ضابط شجاع يحمل مسدسا في يده. اجتاز الحاجز في الطليعة. وإذا بنا نحارب جنود الحرب الكبرى المدربين في فرنسا وألمانيا. وكانت هذه أسوأ معاركنا. فسقط منا حوالـــــي مئة من أصل 240 وتراجعنا. إلاّ أن مشاة الجنرال هالر لم يمروا، وكانوا قد أقسموا على الوصول إلى موسكو! وأخذ الأحياء بيننا يرددون «لن يصلوا ولا حتى غومل!» ... زار تروتسكـــــي الخطوط الأمامية. وخطب فينا. ونقل إلينا هذه النفخة من القـــــوة التي يحملها إلى كل مكان في اللحظات الحرجة. وهكذا تم ترتيب الوضع الذي كان مأساويا في العشية، وكان الأمر بمثابة معجـزة. وفي الواقع كان الأمر معجزة التنظيم والارادة. وقد احتفظت حتى وقت قريب بخطاب تروتسكي في المدرسة العسكرية.»

لقد جعلت تروتسكي يتكلم حول هذه المواضيع إلاّ أنه لم يرو لي قصصا طويلة أبدا. عندما جئت إلى روسيا في حزيران 1920 كانت الحرب الأهلية قد انتهت في الظاهر، وكان القطار في المحطة. ولم يكن بوسعي سوى أن أسر لذلك، وأن أندم لوصولي متأخرا.

بدا أثناء الخريف أن فلول جيش دينيكين ليست ثانوية وقليلة الأهمية بقدر ما اعتقدنا أول الأمر، فلقد نجح أحد قادة الثورة المضادة، ورانجل، في جمعها وتجهيزها بمساعدة فرنسا. لقد رفضت انكلترا وأميركا نهائيا التدخل، إلاّ أن فرنســـا أصرت. واستمر ميلليران وبوانكاريه وبرلمان «الكتلة الوطنية» في إرسال الأسلحة والعتاد ومنح الاعتمادات والاعتراف بورانجل، دون أن تنجح البروليتارية الفرنسية في إحباط هذا العدوان الجديد. أقام ورانجل مقر قيادته العامة في كريمه حيث يسهل عليه الانطلاق للقيام بغارات على المناطق المجاورة، مستفيدا من عنصر المباغتة، وكان جماعته يستطيعون، بعد الهجوم، الاختفاء في شبه الجزيـــــرة. وأصبح التهديد مقلقا إذ يمكن التخوف من أنه سيتجرأ وينتهي بالهجـوم على حوض الفحم الحجري في دونتر.

قررت اللجنة المركزية بعد الدراسة والنقاش الانتهاء من بقية الثورة المضادة، مقدمة بذلك درسا إلى البورجوازية الفرنسيــة العنيدة. كان القطار سيذهب إذا في رحلة جديدة، واقترح على تروتسكي مرافقته مستبقا في ذلك تعبيري في هذه الرغبة.

كنا صباح 27 أوكتوبر في المحطة، وكان القطار مستعدا، وسرعان ما انطلق بعد تفتيش قصير. كانت قاطرة مفوض الشعب هي قاطرة وزير سكك الحديد القيصري، وقد عدل فيها تروتسكي لتناسبه، فحول الصالون إلى نوع من المكتب – المكتبـــة، ويضم القسم الآخر الحمام ومكانين يكادان لا يكفيان لوضع أريكـــة. والمكتبة، وغرفة اللعب، والمطعم، وقاطرة الأكل والمبوسات الاحتياطية، ومواد الإسعاف، وأخيرا قاطرة مخصصة للسيارتين، وكل ما يلزم للعمل، للدفاع، حتى للهجوم...

كان القطار دائما مثل خلية نحل نشيطة، وهو يملك صحيفـة «في الطريق»، وهي صحيفة تعلق على الأحداث، وتنشر «آخر الأنباء» ما أن يقف القطار حتى يوضع في اتصال مع موسكو ويسجل الراديو والإذاعات الأجنبية. وكان تروتسكي يقول لي: «إن أجهزة الإرسال عندكم غبية تماما، فبرلين ولندن يبتان أخبارا هامة، أمّا إذاعتكم فلا تبث سوى سخافات.» كان تروتسكي يملك باستمرار عملا قيد الإعداد، وعندما تسمح له العمليات العسكرية كان يحرك سكرتيره، فينص ويراجع الأوراق المطبوعـــــة. «لقد اكتسبت عادة الإملاء أثناء الحرب» كان يقول ويضيف أن ما كان ينقصه في السابق هو بعض

السكرتيرين. لا يجب الاستنتاج من ذلك أن العمل كان مهملا، فما من أحد أكثر تطلبا من تروتسكـــــي حيال نفسه، فهو يكره أشد ما يكره الإخمال أكان ذلك بخصوص الأسلوب أم بخصوص التصرف والسلوك، وكان يستعيد الصفحـــات، فيقرؤها من جديد ويصلحها ويعدل فيها، وهكذا يصبح من الضروري طبع نسخة ثانية وثالثة. إلاّ أن العدو لم يكن يترك في بعض الأحيـــان الوقت الكافـــي لهذا العمل، لذا تحتفظ النصـــوص بلهجـــة خطابيـــة.

تحتل طاولة العمل القسم الأكبر من إحدى الجهـــات، حيث علقت خارطة كبيرة لروسيا، في حين يوجد في زاوية الجهتين الأخريين رفوف من الكتب، والموسوعات، والأعمال التقنية. وثمة كتب متنوعة المواضيع تشهد على الفضول الكوني للحاكم الجديد. ويوجد أيضا زاوية فرنسية وجدت فيها الترجمة الفرنسية للدراسات الماركسية لأنطونيو لابريولا، كما أني فوجئت برؤية كتاب مالارميه «الشعر والنثر» الصادر عن مكتبة بيران الأكاديمية.

بقينا يومين في كاركوف حيث يوجد مقر القيادة العامة للجيوش السوفياتية، وكان فرونـــزه، مفوض الحربيـــة فيما بعد، هو الذي بدير العمليات. تمت زيارتنا الأولى لراكوفسكي رئيس مجلس مفوضي الشعب في أوكرانيا. كان هذا هو الصديق الأكثر قربا من تروتسكي، فالرجلان التقيا أيام حرب البلقان عندما كان تروتسكي يتابع العمليات كمراسل حربي، ثم التقيا في زيمرفالد، ثم في روسيا بعد ثورة اوكتوبر خصص هذان اليومان لاجتماعات مطولة درست فيها كافة أنواع الأسئلة. استفاد راكوفسكي من وجود عضو في المكتب السياســـي لحسم المسائل الصعبة المعلقة. وعندما كان يرافق تروتسكي إلى القطار ليودعه قال لي: «لقد استطعنا تذليل عقبات كثيرة.»

سار القطار مجددا نحو الجنوب. كان تروتسكي قد عقد اجتماعات مع فرونزه، وعرض لي باختصار خطة العمليات التي دخلت مرحلتها الأخيرة. كان الجيش الأحمر قد احتل نيكوبول على الدنيبر، وهو مركز أساسي. سيحاول من هذا الموقع الذي جرب ورنجل عبثا مهاجمته، أرغم العدو على إعادة قواتـــه إلى كريمه، وما أن يعبر الجيش الأحمر برزخ بيريكوب حتى يذهب في مطاردة هذه القوات لرمي من يقاوم فيها إلى البحر. ستكون هذه المرة الأخيرة، فالبرزخ عبارة عن قطعة أرض لا يزيد عرضها على أربعة كيلومترات، وسيكون من السهل على العدو تنظيم مقاومة يصعب تحطيمها.

توقف القطار في محطة الكسندروفسك حيث كان أحد قواد الجيش الأحمر بانتظار تروتسكـــي، قدم له تقريرا عن الوضع وكان بالامكان الوصول في السيارة حتى مقر القيادة العامة للجيش فالطريق خالية رغم أنه يوجد بعض الوحـــدات العدوة في هذه النواحـــي.

كان الطقس باردا، والليل يهبط، والسيارة تسير عبر السهل المغطى بالثلج: لم يكن بالامكان رؤية الطريق وكنت أتساءل كيف يستطيع السائق اكتشاف طريقه. وعدني تروتسكي بفنجان شـــاي في منزل الكاهن، «لماذا عند الكاهن؟» سألته متعجبا، - «لأنه يصعب وجود منزل آخر يمكن المبيت فيه بالنسبة لقيادة عامـــة.» بيد أنه ما أن وقفت السيارة حتى وجدنا أنفسنا أمام منزل شديد التواضع، اختلى تروتسكي بالقائد الأحمر ومعاونه الضابط في غرفة ملأى بالأثاث، ومدت خارطة على الطاولة، وكان النور الوحيد هو نور شمعة. اختلف الرجلان. عرض الأول وجهة نظره بحماس متلهف يشبه الغضب، في حين كان الضابط أكثر هدوءا. سرعان ما سويت القضية، فتروتسكي كان قد تعرف على أمثاله بالمئات: إنه الصدام المعهود بين القائد المرتجل والتقني. وهنا كان الضابـط الشاب عاملا من بتروغراد مليئا بالحماس والشجاعة، كالعـــادة، إنما متلهف وغير قادر على احتمال ملاحظات ضابط هيئة الأركان الواقع في صعوبات مهمات التموين. «إنه الخلاف الكلاسيكـــي، قال لي تروتسكي، وهي العقبة التي يتوجب علينا باستمـــرار تجاوزها، غير أنه لم يكن بامكاننا أن ننتصر بدون هذا التعاون بين الحماس الثوري وتقنية المحترف.». إن هذا هو تجسيد محدود للمشكلة الخطيرة التي طرحت عند تأسيس الجيش الأحمـــر. لقد جوبه تروتسكي الذي دعا إلى استخدام ضباط الجيش القيصـــري الذين يعدون بالخدمة الشريفة، بمعارضة تزداد حدة بقدر ما يقـدم أحد هؤلاء الضباط على الخيانة.

عدنا إلى السيارة، وكان البرد القارس والهـــدوء يهددان بالتسلل إلى داخلنا. قلت لتروتسكـــــي: «حسنا! لقد وعدتني بالمنزل المريح وبفنجان شاي – فأجابني: هذا صحيـــح، إلاّ أنه يجب توقع المفاجآت في الحرب.» عدنا إلى الكسندروفسك حيث وجدنا القطار. تلقى تروتسكـــي البرقيات التي وصلت في غيابه، وعدنا على طريق موسكو بدون توقف هذه المرة. كلمني تروتسكي مطولا عن المعركة التي لم يخضها حتى الآن، فقال: «يجب مباشرة المعركـــــة الآن، ستكون رهيبة، يجب إقامة موقع يسهـــل الدفـــاع عنها. إن الحرب أمر فظيع حقا!» زأشار من ثم إلى بعض مراحلها، وبينما المعركة أمام كازان التي قررت مصير كولتشاك. طال الحصار، وقرر القائد أنه من الضروري القيام بمناورة لخداع العدو وتدمير أسطوله البحري الصغير ليلا، ومجابهة مدافعه على الشاطئ وإيجاد حالة رعب في صفوفه. قرر تروتسكي المساهمة شخصيا في العمليات التي يقودها راسكولنيكـوف. نجحت الخطة تماما رغم كونها مجازفة كبيرة! لم أستطع منع نفسي من توجيـــه هذا اللوم إليه: «هل

كان من حقك أن تعرض نفسك هكـــذا؟» فأجابني مباشرة وبسرعة: «عندما نطلب من الرجال أن يجازفوا بحياتهم، يجب أن نريهم أننا لا نخاف المجازفة بحياتنا...». كان القطار يسير بانتظام ولو ببطء. فهو يحمل حملا ثقيلا، وتلزمه قاطرتان لجره. عندما وصلنا إلى موسكو علمنا أن الجنود الحمر دمروا الدفاعات الأخيرة التي تسد برزخ بيسيكوب. كما علمنا أن ورانجـــل هرب متخليا عن الرجال الذين قادهم في مغامرته. لقد لعبت فرنسا بوانكاريه ورقتها الأخيرة، وخسرتها، وهكذا انتهت الحرب الأهلية.

(1921)

1- المسألة النقابية تطرح نقاشا حادا

بعد قليل من عودتـــي إلى موسكـــو التقيت بلوسوفكـــــي. وحدثني عن اجتماع نقابي مهم سيعقد في تلك الليلة: وأشار إلى موضوع ذلك الاجتماع بعبارات جد غامضة حتى أنني لم أستطع معرفة ما سوف يدور حقيقة. ذكرني هذا بمحادثة أجريتها مع تروتسكي وكان قد لمح خلالها بالدور الذي تلعبه النقابـــــات في هذا الميدان. وتبع هذا الاجتماع لقاءات أخرى حول الموضـــوع نفسه. وأعطت الجرائد حينذاك موجزا عنها. واخذت المشكلـــة حجما كبيرا، وتألفت، داخل اللجنة المركزية، عدة جماعات وتعارضت علانية، وقد أصبحت بعدها ممكنة معرفة طبيعة الموضوع المطروح بالضبط وملاحقة النقاش الذي سبب اضطرابات عميقة والذي حدد فترة مهمة في حياة الحزب.

كان من المفروض أن ينتهي نظام «شيوعيـــة الحرب» مع هذه الأخيرة، إلاّ أنه استمر بعدها بفعل التردد حول ميزة التنظيم البديل، لقد كان يتم البحث وتلمس الحلول، ولكن القرار لم يكـن ليتخذ. ولعله من العدل – هنا – التلميح إلى أنه بعد الجهـــود المضنية التي فرضتها الحرب، أصبحت الجماهير بحاجة إلى متنفـس شرعي، وفي مختلف شرائح المجتمع السوفياتي. وأصبح استمرار «شيوعية الحرب» يشكل أخطارا جدية إذ أنها كانت ضرورة فرضتها الحرب مع الروس البيض. ولمقاومة ضغط الثورة المضادة والتدخل الفرنسي والإنكليزي والأميركي خلال ثلاث سنوات متواصلة كان لابد من تسليح الجيش الأحمر تسليحا يمتص جزءا ضخما من ثروات البلاد. ولقد وضع الإنتاج ووجه نحو الحرب، ولتغذية الجيش وعمال المصانع هودر الإنتاج الزراعي في الأرياف، وكانت عملية المصادرة هذه عنيفة بحد ذاتها، فقلد أغاظت وأثبطت المزارعين الذين لم يبق لهم إلاّ ما هو كاف لبقائهم على قيد الحياة. وقد تحمل المزارعون المصادرة في بادئ الأمر ولكن صبرهم وإرادتهم الصادقة بدأا أخيرا بالنفاذ، وكان يتوجب على السوفيـــات أن تحل مشكلة ما يسمى بتحويل اقتصاد الحرب إلى اقتصـــاد السلام. ولأتت الساعة لفك الطوق عن الجماهير[4].

صور تروتسكي، هذا الافراط في المركزية التي أدت إليها الحرب المدنية، بهذا التشبيه «لقد وضعنا محبرة ضخمة في الساحة الحمراء ويتوجب على كل من يريد أن يكتب أن يأتي ويغمس ريشته منها».

تم تشكيل «المجلـــس الأعلى للإقتصاد» لتنظيم الاقتصـــاد في البلاد ولكنه لأسباب متعددة لم يقم بدوره على ما يرام. حاول تروتسكي أن يكشف، هذه الأسباب عندما كان يعمل مفوضـا في النقل، وتمكن من حضور هذه الاجتماعات لكونه مندوبا لنقابـــة النقل في الاتحاد العام للنقابات. ان أكثر ما استرعى انتباهـــــــه في هذه الاجتماعات، اللامبالاة التي تميز تحضير وطريقة عمل مختلف المندوبين. كان الأعضاء يأتون متأخرين عن الوقت المحدد لبدء الاجتماعات وهذا ما صدم تروتسكي الذي اعتاد على الدقة في المواعيد. وإذا كانت لا مبالاة كهذه قاعدة في رأس الهرم، يمكن أن نتصور إذن الفوضى بالقدر الذي نهبط فيه نحو القاعدة. ولقد حملته هذه التجربة أن يقترح بعض التعديلات على البنية النقابية وقد صاغها بمشروع قدمه إلى اللجنة المركزية.

لا يختلف اثنان على كون النقابات كانت في مرحلة شبـــه راكدة، ولكن الخلاف كان يكمن حول أسباب هذه الحالة وكيفية الخروج منها. كان وجود الأزمة صريحا ويجب الوصول إلى حـل ما وخاصة «بعد تسريح الجيش الأحمر وهذا ما جعل تروتسكي يتساءل حول ما يمكن عمله بهؤلاء الشباب الذين نشأوا داخـل الجيش وتخلقوا باخلاقه، فهم منضبطون واراديون مؤهلون تعودوا على صيغ العمل الجماعية. أسوف يتم فقط تحويلهم إلى الحيـاة المدنية من دون البحث عن كيفية الاستفادة القصوى من مؤهلاتهم؟ اقترح تروتسكي أن يوجهوا إلى العمل في النقابات، على أن تحدد نسبهم فيها، حيث يقدموا حافزا للعمل وعادات قيمة في الدقة والانضباط، عارض **بعض أعضاء اللجنة المركزية، على رأسهم تومسكي أمين عام النقابات المركزية، بعنف تروتسكي وأنكروا وجود الأزمة أصلا.** تردد البعض **الآخر في اتخاذ موقف وحاولوا** الوصول إلى حل وسط. واتخذت **المشكلة بعدا واسعا حتى أن اللجنة المركزية** قررت أن تفتح **نقاشا علنيا،** حيث يستطيع كل فريـــق أن يعبر عن رأيه **ويشرح ويدافع عن أطروحاته في الجرائد وفي** الاجتماعات العلانية[5].

---

[4] قال تروتسكي في اقتراح قدمه إلى اللجنة المركزية للحزب في شباط سنة 1920 «لقد أصبح من البديهي أن سياسة المصادرة الحالية... بدأت تهدد بزعزعة الحياة الاقتصادية في البلاد».

[5] - لقد عبر عن هذا النقاش، في جلسة الثامن من آذار، خلال المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الروسي، بالكلمات التالية: «سأنتقل إلى نقطة ثانية: إلى النقاش حول النقابات التب استهلكت وقتا كثيرا من الحزب. كان الغوص في التفاصيل، برأيي، غير معقول، وبسماحنا بنقاش كهذا ارتكبنا خطأ. لقد وضعنا في المقام الأول مسألة، لا يمكنها لأسباب موضوعية أن تحتمل هذه المرتبة ولقد تجمسنا من دون أن ننتبه إلى أننا نحرف انتباهنا عن مسائل حقيقية تهددنا كانت قريبة منا كثيرا.

كانت هناك، في البدء، خمسة اتجاهات ممثلة **بتروتسكي، بوخارين**، نيابنيكوف (الشبه نقابي بالرغم من كونه عضـوا في الحزب وكثير التعلق به) **سابرونوف** (ديموقراطي وسط)، والمدافعون عن الوضع الراهن وهم **تومسكي، زينوفييف وكامينيف** اختفت خلال الحملة الفريقات الوسطية بين هذه الاتجاهـــات، فطور تروتسكي مشروعه بعد أن أخذ بعين الاعتبار النقد الصحيح الموجه إليه ولكنه ناهض بعنف كل من كان يدعي أنه يحاول عسكرة النقابات. اعتقد ريازاموف أن بمقدوره أن يعطي تفسيرا لمشروع تروتسكي، خلال اجتماع كنت حاضرا فيه، بطريقة هزليـة عندما تكلم عن عسكري شاب متكبر، يفاجئ الحضور بدخوله مكتبـــا نقابيا ويبدأ بإملاء القرارات. غضب تروتسكي من هذا العمـــل واحتج معه قسم كبير من الذين كانوا في القاعة. وكانت أرضية مشتركة تجمع تروتسكي وبوخارين وزينوفييف ضد المدافعين عن الوضع الراهن الذين يدعمهم لينين من دون أن يرتبط بهم (كـان اتجاه نيابنيكوف ضعيفا بحيث لم يأخذ مكانا بين هاتين الجبهتين). ولقد عرف فيما بعد أن مآخذ لينين على اقتراحات تروتسكي تنحصر في كون هذه الأخيرة غير مناسبة. لقد كان يفكر بحل أكثر عمقـا لأنه طور عدة نقاط أساسية في بنية النظام الاقتصادي السياسي هذا الحل الذي اعتمده بعد أشهر قليلة إلا وهو السياسة الاقتصادية الجديدة؟

2- انتفاضة كرونشطاط

كان الحزب يستعد لعقد مؤتمره عندما اندلعت انتفاضة كرونشطاط، لقد كان هذا نبأ صاعقة وغير قابل للتصديق في البدء.. هل من المعقول أن تنتفض كرونشطاط ، ضد الجمهورية السوفياتية وهي البؤرة الأكثر مناصرة لثورة أوكتوبر؟ لقد فوجئ قياديو الحزب أنفسهم بهذه الأحداث. لقد كنا مذهولين. أرسلت اللجنة المركزية تروتسكي، كما هي العادة، إلى بيتروغراد مع تحميله مسؤوليات لم تكن له في الأصل!

1- كان تروتسكي على معرفة تامة بكرونشطاط وبمناضليها وقال عنها في كتابه «تاريخ الثورة الروسية»... لم تنطفئ شرارة التمرد لحظة في كرونشطاط وظلت مندلعة بعد الأحيان.. لقد التخذ مجلس السوفيات في 13 آذار 1917 هذا القرار «السلطة الوحيدة في كرونشطاط هي سوفيات مندوبي العمال والجنود». لقد ساد النظام بعدها وأغلقت المواخير. شكل بحارة كرونشطاط نوعا من «نظام عسكري للثورة». قررت القيادات العليا أن تعطي لأهالي كرونشطاط درسا، وكان تسرتللي هو النائب العام وقام تروتسكي بدور المدافع عنهم (المجلد الأول ص 392).

كان من الضروري دراسة أسباب هذه الحركة وتحديد طبيعتها، فكرونشطاط 1921 لم تكن ككرونشطاط 1917 إذ انتقل عدد كبير من المناضلين إلى موسكو بعد انتقال الحكومة المركزية إليها وفقدت بتروغراد مركزها بعد أن كانت مسرحا لمختلف مراحل ثورة أوكتوبر ولم يكن بمقدور زينوفييف أن يديرها بمنهجية وخاصة أن اهتمامه كان منصرفا إلى الأممية الشيوعية وفروعها، أهملت المدينة- إذن، واندلعت الاضرابات بعد تهاون المسؤولين عن تنظيم العمل وظروف العمال الحياتية. أصبحت بتروغراد عرضة للانفجار بعد أن أصبحت في وضع لا تحسد عليه من ناحية التموين.
كان من الطبيعي أن تستغل العناصر المضادة للثورة مثل هذا الوضع، فبدأت باثارة الاستياء وتصعيد حملات الانتقاد حتى تتمكن من جذب الجماهير نحوها. ويجدر التساؤل هنا حول أسباب إطلاق هذا الشعار «مجالس السوفيات بدون البلاشفة». ليس من الصعب تحديدها إذ أنه من المناسب طرح مثل هذا الشعار لتأليب كل أعداء الثورة وخاصة الاشتراكيين الثوريين والكاديت والمناشفة الذين أرادوا الثار لأنفسهم فاطلقوا هذا الشعار وغذوه بحملة مطالبة يمكنها أن تؤلب البحارة والجنود وأكثرية الشباب المجندين من أصل ريفي بعد أن وردتهم شكاوى أهلهم الحادة الذين تأثروا بالمصادرة. هذه هي النتائج التي توصل إليها التحقيق الذي قام به قياديو الحزب. وهذا ما أكده أندريه نان الذي كتب بالذكرى «السنوية» للإنتفاضة وكان قد قضى السنة الفائتة في روسيا السوفياتية وقد سمحت له ظروفه أن يتعلم ويدقق بمعلوماته[6]؟

عرضت أطروحات المعادين للبلاشفة في كتب كثيرة وخاصة تلك التي كتبها الفوضويون، ويمكن الاطلاع عليها في كتاب لايدامت صدر عام 1948 تحت عنوان «كومونة كرونشطاط، الانحطاط الدامي للسوفيات».

يوضح عنوان الكتاب جيدا استنتاجات المؤلف، ولكنه ادعى أنه لم يقم بعمله هذا إلا بهدف إجلاء الحقيقة التاريخية لهذا الحدث المؤسف. يعترف المؤلف أن العناصر المهمة للتحليل النهائي تعوزه، إذ لم يكن باستطاعته أن يطلع على أرشيفات الحكومة السوفياتية والجيش الأحمر. وبالرغم من ذلك نراه يورد ويحلل وينتقد مصادر مهمة. وللكن الأحكام والتقيمات التي يوردها، والتي تبعث في أكثريتها من أطراف شديدة العداء للبلاشفة، تزخر بالتناقضات.

كتب أحد قادة الحرب الأهلية، سنة 1926، عن أساس وأسباب الانتفاضة يقول أن استمرار نظام شيوعية الحرب، بعد أن وضعت هذه الحرب أوزارها، أثار العمال ودفعهم للانتفاض في وجه الحكومة السوفياتية. ولكن ألم تكن الحكومة السوفياتية ترغب بالانتقال من شيوعية الحرب إلى شيوعية السلام؟ أيمكنها أن تطبق السياسة الاقتصادية التي كانت شغلها الشاغل منذ عدة أشهر، قبل هذا الموعد؟ في الواقع كانت الأبحاث والدراسات على قدم وساق، ويندرج النقاش حول النقابات في إطار هذه الأبحاث. إنه لمن المغامرة الاعتقاد بإمكانية إعطاء الأجوبة عن هذه الأسئلة، مع العلم بصعوبة، لا بل باستحالة، إعادة تشكيل الخالة العامة الموجودة آنذاك بدقة.
حتى إذا سلمنا أن هذه الانتفاضة كانت من عمل العمال والبحارة وأنهم كانوا يتحركون باستقلال تام، وفقا لمبادرتهم الخاصة دون أن يكون لأعداء الثورة أية علاقة بهم، حتى إذا سلمنا بكل هذا يجب الاعتراف بأنه منذ انطلاق الشرارة الأولى للانتفاضة تسارع كل أعداء البلاشفة من اشتراكيين ثوريين بكل فئاتهم ومن فوضويين ومناشفة، وهللت الصحافة الأجنبية دون أن تنتظر المرحلة الحاسمة من الصراع ومن دون أن تهتم لبرنامج المنتفضين، لم تكن لتفهم غلاّ أن هذا التمرد يمكن أن يحقق ما عجز عنه البرجوازيون المتحالفون: إسقاط نظام تمقته، وكانت تترصد سقوطه منذ عدة سنوات. كانت بعض

[6] - Correspondance Internationale 12 Avril 1922.

المناشير الموزعة في كرونشطاط والموقعة من جماعة المناشفة تنتهي بهذه العبـــارات «أين أعداء الثورة الحقيقيين؟ إنهم البلاشفة والمفوضون. عاشت الثورة. عاشت الجمعية التأسيسية» وفي الوقت الذي ينفي فيه مارتوف اشتراك المناشفة والاشتراكيين الثوريين في هذه الأحداث، كان المراسل الرسمي للاشتراكيين الديموقراطيين الروس ينشر في الخارج أن «الشعارات المرفوعة في كرونشطـــاط هي منشفية». ان أخذ المبادرة، بالنسبة لمارتوف، أكد للبحـــــارة أن خلافهم مع الحزب لا يعود إلى المبادئ بل يعود إلى مسائل تنظيمية.

إن الوقائع الواردة في هذا الكتاب تظهر أن اللجنة الثورية المؤقتة هي التي أخذت المبادرة في الإجراءات العسكرية وتسرعت بعد وصول أنباء كاذبة، واحتلت المرافق الاستراتيجية ومبانـي الدولة الخ... وقد جرت هذه العمليات في 2 آذار ولم تتحـــرك الدولة باتجاه الهجوم إلاّ في 7 آذار بعد ما فشلت كل مساعـي التسوية. وتم استخدام الاشتراكيون الثوريون لمنع الوصول إلى تسوية سلمية للصراع. ولقد صرح أحد قادتهم تشيرنـــــوف: «لا ننخدع، إن السلطة البلشفيـــة تجري مفاوضات بهدف كسب الوقت». من الواضح أن الحكومة لم تقدم على هذه الخطـــوة إلاّ على مضض.. وهذا ما أثبته اعترافات لوتوفينوف، أحد قادة «المعارضة العمالية» عندما صرح في 21 آذار عند قدومه إلى برلين: «إن الأنباء التي تنشرها الصحافة الأجنبية مبالغ فيها: فحكومة السوفيات قوية بشكل تستطيع فيه إنهاء التمرد بسرعـــة، وما يفسر بطء العمليات هي الرغبة في الحفاظ على سكان المدينة» وما يعطي قيمة استثنائية لتصريحات لوتوفينوف كونه من المبعدين إلى برلين وانتماؤه إلى «المعارضة العمالية».

إذا كان من المعقول ارتكاب الحكومة السوفياتية لبعض الأخطاء، ماذا يمكن أن نقول عن رجل كتشيرنوف الذي لم ير في هذه العملية إلاّ مناسبة لينتقم من البلاشفة الذين عزلوه عن كرسي الوزارة عندما حلت الجمعية التأسيسية؟. لقد عمل ما في وسعـــه ليثير البحارة، ويساهم بازهاق الأرواح البشرية مع علمه أن نتيجة هذه الفتنة هي الفشل، إذ أن في وضع كهذا، عند اندلاق القتـــــال، لا بد وأن تكون الخسائر جسيمة بين الفريقين فريق المتمردين وفريق الجيش الأحمر.

أظهرت بحارة كرونشطاط، ولمرات عديدة، عن نفاذ صبرهم، وأعلنوا في 13 أيار، تحت ظل الحكومة المؤقتة أن «السلطـــة الوحيدة في كرونشطـــاط هي سلطة السوفيات». عندها قام تروتسكي بالدفاع عنهم ضد الوزير المنشفي تسيرتللي كما مر معنا بعد شهرين من فترة الاضطرابـــات المعروفة باسم «أيام آب» وبعد المبادرة الهجومية التي أخذها كيرنسكي تحت ضغط الحلفاء توافدت جماهير البحارة إلى بتروغراد، وتوجهوا إلى قصر توريد بعد القيام بمظاهرة في المدينة، وطلبوا من الوزراء الاشتراكيين أن يشرحوا لهم ماذا يحدث. ظهر تشيرنوف أولا وعلا الصـــراخ من كل جانب: «فتشوه! تأكدوا من عدم وجود الأسلحـــــة معه». بعد هذا الاستقبال غير الحار، أعلن «في مثل هذه الحالـــــة، ليس لدي ما أقولـه» وأدار ظهره للجماهير محاولا الدخول إلى القصر، وهدأ الصراخ بعدها. لقد كان بإمكانه أن يلقي خطابا قصيرا يهديء به المحتجين.

عندها حدث ما لم يكن في الحسبـــان، لقد هجم عليه بعض البحارة وأدخلوه في سيارة وأخذوه كرهينة، سبب هذا العمل غير المتوقع بلبلة في صفوف المتظاهرين. عندها خرج مارتوف وكامينيف وتروتسكي من القاعة مسرعين. وعمل تروتسكي جاهدا لإخلاء سبيل تشيرنوف وأخذه من يده وأعاده إلى السوفيات. ولقد نسي تشيرنوف بشكل تام سنة 1921 هذه الحادثة القديمة ولم يعد يفكر إلاّ بإثارة العمال والبحارة الذين عاملهم بطريقة أقسى بكثير من تلك التي عاملتهم بها البلاشفة.

3- لينين يعرض السياسة الاقتصادية الجديدة في المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية

ثم عقد المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية في موسكو في 22 حزيران 1921 كما عقد في الوقت ذاته المؤتمر التأسيسي للنقابات العالمية الحمراء. لم تخل السنة الماضية أي منذ انعقاد المؤتمر الثاني من أحداث مهمة. لقد تأسست أحزاب شيوعية جديدة وتطورت أحزاب أخرى حسب الخطط التي وافقت عليها الأممية، وعلى المؤتمر أن يناقش هذه المسائل، لكن النقاش سوف يتناول بشكل أساسي «حركة آذار» في ألمانيا. لقد سبب تطور هذه الحركة وسقوطها اضطرابات عميقة في الفرع الألماني وكذلك في فروع الأممية الشيوعية الأخرى. كذلك واجهت الصعوبات مؤتمر النقابات العالمية الحمراء، ولوحظ نوع من التباعد وأشكال مختلفة من التحفظات وفقدان الثقة بين النقابيين. ولم يكن باستطاعة جمهورية السوفيات كما كانت في أوائل صيف 1921 وما زالت ذكرى كرونشطاط حية من جهة، وعشية تغيرات جدية في السياسة الاقتصادية من جهة ثانية والتي تغذي مختلف أشكال النقد من اليمين ومن اليسار – لم يكن باستطاعتها بالتأكيد أن تعطي للمنذوبين صورة تبدد الشك وفقدان الثقة. ولم أكن أدري إذا كان زينوفييف يجهل أو يريد تجاهل هذا الوضع عندما طلب من فروع الأممية ومن المنظمات النقابية أن ترسل عددا كبيرا من المندوبين في بعثاتها. بعد هذا القرار، الذي يمكن تحديد نتائجه فيما بعد، لم يكن يهتم بمسألة سكن هذه الأعداد الكبيرة من المندوبين، ولم تكن الأماكن مهيأة عند وصول البعثات الأولى مما وضع الرفاق المسؤولين عن سكنها في وضع مضحك، فطلبوا مني عندئذ أن نتصل بتروتسكي. لكن مع علمي بضرورة الإجراءات السريعة الواجب اتخاذها، رفضت أن أزعج تروتسكي بمسألة سكن المبعوثين، إذ كنت أدرك حرصه على عدم التدخل في شؤون الرفاق وخصوصا عندما يتعلق الأمر «ببلاشفة قدامى» أمثال زينوفييف. بيد أن الوقت داهمنا فوافقت على عرض المشكلة عليه، وكما كنت أتوقع رفض أن يتدخل في بادئ الأمر. لكنه عاد واهتم بالمسألة فيما بعد، وقرر الاتصال بزينوفييف. فوجئ هذا الأخير بهذه الصعوبات التي كان يجهلها ووافق على تشكيل لجنة يرئسها سكليانسكي مساعد تروتسكي في شؤون الحرب. وسارت الأمور بنشاط مع سكليانسكي، فتأمنت الأماكن وجهزت واستطاع المبعوثون أن يسكنوها لدى وصولهم. وقع حادث صغير آخر مع البعثة الفرنسية لا يخلو من المعاني، لقد تم القرار بإسكان البعثات وحدها في أماكن مريحة، وتشاء الصدف أن يتم إلحاق مترجمة بالبعثة الفرنسية، فتعلق بها أحد المندوبين في الطريق وادعى فوق ذلك وجود صحافي أميركي معه. ومع علمه المسبق بالقاعدة، فوجئ برفض هادئ ومع ذلك أصر على الاتصال بـ«سلطات» مختلفة.)لقد كان الصحافي الأميركي لوي غانت محررا في الصحيفة الأسبوعية الليبرالية «The nation» ويعمل اليوم كناقد أدبي في مجلة نيويورك هيرالد تربيون).

كان فرنان لوريو وبوريس سوفارين على رأس البعثة الفرنسية، وكانا قد خرجا حديثا من السجن بعد قضاء بضعة أشهر بتهمة «التآمر ضد أمن الدولة»، ولقد أطلق سراحهما بعد أن برأتهما المحكمة.

وأبعد بول ليفي عن البعثة الألمانية التي ترأسها في المؤتمر الثاني بعد أن انتقد بشكل غير مقبول حركة آذار ووصفها «بالانقلاب». وبقيت كلارا زتكين في الحزب الشيوعي مع أن نقدها لهذه الحركة لم يكن أقل قساوة من نقد ليفي.

كلف تروتسكي بوضع التقرير الأساسي حول «الأزمة الاقتصادية العالمية والمهام الجديدة للأممية الشيوعية». وهكذا كانت المسألة الألمانية ومسألة خطط الأممية الشيوعية مسألتين متعلقتين ببعضهما البعض خلال المؤتمر.

استقبل تروتسكي، في بداية السنة، بيلاكون، الذي أتى خصيصا ليتباحث معه حول التكتيك الذي يجدر بالأممية أن تتبعه. ولقد كان ضروري جدا، حسب رأي بيلاكون، أن يصار إلى التزام عميق في تكتيك مذهبي هجومي واستخدام كل إمكانيات جمهورية السوفيات. إذ أن الأنظمة البورجوازية، خصوصا النظام الألماني، مازالت ضعيفة ويجب أن تتم مهاجمتها باصرار، قبل أن يفوت الأوان، بسلسلة من الانتفاضات والاضرابات والفتن.

رفض تروتسكي هذا الرأي منذ سماعه وحاول أن يفهم محدثه أن الحقيقة الأساسية في العمل الثوري تتطلب عدم القيام بالفتن، ومتى أردنا وبأي ثمن كان، فكل عمل عسكري أو في ظروف غير ملائمة قد يؤدي بالطبقة العاملة إلى نتائج مشؤومة. ولكن بيلاكون لم يقتنع، بل بالعكس استطاع أن يكسب إلى رأيه بعض المناضلين المهمين في عدد من فروع الأممية وخاصة الفرع الألماني والإيطالي.

حتى نفهم معاني «حركة آذار» ونتائجها لابد من التذكير بالتمرد العسكري الذي حصل في آذار سنة 1920 والمعروف باسم «انقلاب كاي- لوتويتز». لقد تحالف بعض أعضاء الأركان العامة مع «الفرق المتطوعة» - التي تتألف

من قدامى الضباط المسرحين بعد تخفيض عدد الضباط على إثر معاهدة فرساي – واقترحوا توجيه ضربة حاسمة لجمهورية ويمار. وكان الجنرال فون لوتوتيز وكاي من كبار الموظفين الأساسيين لهذه الحركة. وجه لوتوتيز انذارا للرئيس إيبرت، ويتوجب على الرئيس أن يعين حكومة من الخبراء المحايدين، أي من قدامى موظفي الامبراطورية، مكان الحكومة الاشتراكية، ويجب أن يحل الديسنتاغ وأن يستقيل ايبر، ويتم تعيين رئيس جديد بعد استفتاء عام. أخيرا طرح المتآمرون نوسك – الذي قمع بوحشية التحرك العمالي في تشرين الثاني 1919 – كديكتاتور. ومن ثم توجهت القوات المسلحة إلى برلين في 13 آذار بعد رفض عملية الاستفتاء الشعبي، عندها طلب إيبر المساعدة من الجنرال فون سيكت وشليستر فما كان منهما الا أن تواريا عن الأنظار غير راغبين في التصدي للمتمردين. عندها هرب أعضاء الحكومة إلى درسد ومنها إلى شتوتغارت. أحس كارل لوجين، رئيس الاتحاد العام للعمل، بالخطر ورأى بوضوح كيفية تطويق التمرد. فأعلن الإضراب العام السلاح الأمثل والأمضى في يد الطبقة العاملة. وشكل مع ممثلين عن مختلف التنظيمات العمالية ومن بينها الحزب الشيوعي، شكل لجنة عامة للاضراب. كان هذا الاضراب ضربة معلم إذ وجد الاقتصاد الألماني نفسه مشلولا بشكل كامل وتوقف كل نشاط في البلاد. بلبل هذا الإجراء المتمردين وأجبرهم على ترك السلطة في اليوم الثالث.

بقيت ذكرى هذا الحدث المهم لاصقة بأذهان العمال وحددت السياسة الألمانية لوقت طويل، هذا الحدث الذي حرك البروليتاريا بشكل عام وسيطرت على المحاولات الانقلابية التي قامت بها القيادات العليا للجيش متحالفة مع بقايا آل هوهنزولن بعد هذا الانتصار للطبقة العاملة في سنة 1920، ظهرت حركة اذار كحركة غير واضحة، مشتتة وقلقة وخصوصا بعد الفشل الذي انتهت إليه.

بدت الحركة مصطنعة غير مهيأة منذ انطلاقها من آبار الفحم الحجري في منسفلد من أعمال ألمانيا الوسطى حيث شهدت هذه المنطقة تحركات مستمرة أوحت أنه بالامكان، في ظل هذه الظروف الملائمة، إعلان إضراب عام، في الواقع كان هذا الإضراب في البدء فعالا، ولكنه كان جزئيا في شمنيتز وتورنيخ وساكس، وحدثت محاولات في مدن أخرى ولكنها لم تؤد إلى نتيجة تذكر. في النهاية أجهضت الحركة وكانت العواقب وخيمة جدا.

سمح فشل هذا التحرك، ذي الطابع الغريب، للصحافة البورجوازية ولصحافة الاشتراكيين-الديموقراطيين أن يؤكد منذ اليوم الأول أن موسكو فرضت ووجهت مثل هذا التحرك ولكن هذه الصحافة لم تقدم أي دليل فيما زعمت. ولم يتوقف الأمر عندها بل أن عددا من قياديي الحزب الشيوعي الألماني توصلوا إلى استنتاج مماثل، وقال بول ليفي أن هذه الحركة مستوحاة من باكونين وليس من ماركس. هذا في ألمانيا، أمّا في خارجها فقد سارع بعض الشيوعيين، ومن بينهم بعض قيادي الحزب الشيوعي الفرنسي والتشيكوسلوفاكي، ليفضحوا ما أسموه بالتدخل غير المسموح به من جانب الأممية الشيوعية. وأثيرت عدة نقاشات حامية، قبيل المؤتمر الثالث، تعرض فيها المناقشون لقياديي الحزب الشيوعي الألماني مطالبين بإظهار الدور الذي لعبه الحزب وإبعاد المعارضة. وعلى أثرها تم إبعاد بول ليفي أمّا كلارا زتكين فلقد وافقت على الذهاب إلى موسكو لتتحاور مع لينين وتروتسكي اللذين لم يكونا موافقين، وبدون تحفظ، على تكتيك هذا العمل المغامر. أظهرت الأحداث والنقاشات التي تبودلت قبل المؤتمر أن عليها الوقوف في وجه معارضة شديدة. عرضت البعثة الألمانية، بشكل معمم وممذهب، «تكتيك مارس» تحت شعار «المهاجمة الثورية»، كانت أكيدة من أنها سوف تلقى الدعم من البولونيين والنمساويين والإيطاليين. فما كان من لينين وتروتسكي بعد معرفتهما بضرورة المعارضة الشديدة لمثل هذه الستراتيجية ذات النتائج السيئة على الحركة العاملة، ما كان منهما إلا أن ارتضيا لعب دور «اليمين» مع معرفتهما بإمكانية وجود أكثرية ضدهما خلال المؤتمر.

لقد منيت «حركة مارس»، بالنسبة لبيلاكون، بفشل ذريع، وكان على علم بالنقد الذي سوف يوجهه له الروس، ومن لينين أكثر من تروتسكي، فهو الذي أطلق شعار «المهاجمة الثورية» ويبقى المسؤول عن هذا التحرك. لذا بدأ يحضر الدفاع عن نفسه مستعينا بالتأييد الذي لقيه بألمانيا. وكان يأتي مرارا لمشاهدتي – لم تكن بيننا علاقة وطيدة – وهو يحمل صحيفة «الانسانية» L'humanité ويطلب مني بعض الشروح الدقيقة حول بعض الأشخاص والمقالات والأحداث. لقد كان يبغي من مناورته هذه، كما استطعت أن أتبين، أن يحيد مسبقا البعثات التي كانت تميل إلى إدانته أو يعيق عملها، لذا أخذ يجمع الوثائق ضد البعثة الفرنسية عندما علم أنها سوف تدينه. لقد كان يتصل بالوفود عند وصولها واستطاع أن يحرض جماعة لوكسمبورغ ضد الحزب الشيوعي الفرنسي وضد «الانسانية».

وكذلك استطاع أن يؤلب جماعة بلجيكا الذين لم يكونوا موافقين على شعاره إنما كانت لهم بعض التحفظات على الحزب الشيوعي الروسي ويجهلون تماما مخططات بيلاكون. ولقد استطاعوا التدخل في سير أعمال اللجنة التنفيذية الموسعة. أمّا البعثة الفرنسية فلقد دخلت اللجنة بفكرة مقررة سلفا وهي الطلب من اللجنة بتقديم شروحات كاملة حول موضوع الأحداث في ألمانيا، لقد أنذر البعض بدوافع هذا العمل المثير للشكوك أمّا الانتهازيون الذين أتوا إلى الأممية رغما

عنهم، فلقد كانوا مسرورين لاغتنامهم فرصة فضح التدخل المزعوم من قبل الأممية في نشاط الفرع الألماني، وانطلاقا من هذا التحذير من التدخل في الفروع الأخرى.

قبل البدء بالمناقشة العامة حصل نزاع حاد، لقد بدأت النقاشات كما هي العادة بالتقرير الذي قدمه زينوفييف حول نشاط الأممية خلال السنة الماضية، وكان المندوبون يأتون ليناقشوا، ليشرحوا. ليردوا على النقد، وأخيرا تمت الموافقة على هذا التقرير. ولكن، كما نوهنا سابقا، كانت البعثة الفرنسية معبأة جدا إذ تم إقناعها أن قيادة الأممية هي التي حركت أحداث مارس، وكانت البعثة تطالب من الأممية أن تشرح وجهة نظرها وأن تقوم بنقد ذاتي قبل كل شيء ورفضت الموافقة على تقرير زينوفييف. كان هذا الموقف مثير للدهشة. لم يكن هذا الادعاء وبالشكل الذي أطلق فيه يتناسب مع المركز والسلطة اللذين يتمتع بهما الحزب الشيوعي الفرنسي داخل الأممية. أكثر من ذلك، لقد كان مثل هذا الادعاء عبثيا إذ أن الكل يعلم أن أحداث مارس سوف تناقش بعمق، وهذا ما حاول زينوفييف توضيحه. لكن الفرنسيون تصلبوا في موقفهم بعد دعم الألمان لهم وهذا ما أغضب راديك وجعله يصف، عرضا، الحزب الشيوعي الفرنسي بالاشتراكية-الديموقراطية وبالانتهازية. هنا أعلنت البعثة الفرنسية انسحابها من المؤتمر وأخلت القاعة. لقد كان عمل البعثة الفرنسية مثيرا للاستهجان إذ أن راديك هو مندوب كبقية المندوبين وله ملء الحق في التعبير عن رأيه. التقيت بعد تعليق الجلسة بزينوفييف فقال لي: «يعتقد أصحابك أنهم في البرلمان، إنهم مزعجون بأسئلتهم الاجرائية» فكان جوابي «أنني هنا لا أمثل أحدا ولا أستطيع أن أفعل شيئا، وهم لا يستشيرونني قبل أن يقوموا بحماقاتهم». لقد أتت البعثة، على ما يبدو، بتفويض غريب ولكن محدد بالنسبة لقيادة الأممية وكانت تخشى أن يمنعها اشتراكي في هذه القيادة من الوصول إلى أسرار الأممية، إذ كان هنالك من أسرار. تركتها تناور كما يحلو لها إذ أن مؤتمر النقابات العالمية الحمراء يكفي لاشغالي بمشاكله.

عندما بدأت المناقشة في المؤتمر دافعن البعثة الألمانية بحدة عن أطروحتها حول «المهاجمة الثورية» عندما عرضتها في المؤتمر. كان يجب، حسب رأيها، ابقاء الجماهير في حالة من التأهب ومحاربة السلبية التي كانت تجري محاولات فرضها عليها، لم تكن هذه الأطروحة جديدة على تروتسكي لقد سبق وناقشها مع بيلاكون ورفضها. لكن الأحداث أثبتت أن بيلاكون لم يكن المدافع الوحيد عن مثل هذه الأطروحة، فلقد كان لها مناصرون كثر في مختلف فروع الأممية وما يدل على هذا التأييد ذلك الإصرار وتلك الحرارة التي دافع بها أمثال تالهيمر[7] عن هذه الخطوة، والوفاق التام حول هذا الموضوع بين الحزب الشيوعي الألماني وحزب العمل الشيوعي الفرنسي اللذين نادرا ما يتفقا، والدعم الذي لقيته من فروع مهمة، كان هذا يكفي للدلالة على أن القصة تتجاوز كون هذه الأطروحة هي بنت ساعتها تم اختلاقها لإخفاء الفشل الذي منيت به حركة مارس وإلصاقه بتدخل خارجي.

اعترفت الأطروحات حول التكتيك التي قدمها راديك إلى المؤتمر بأن «حركة مارس» هي خطوة نحو الأمام قام بها الحزب الشيوعي بعدما توحد مع أكثرية المستقلين، ولكنه عاد وشدد على ضرورة إرساء التحرك على قواعد من الدراسة الجدية للموقف وعلى وجوب التحضير له بدقة، لذا فالهجوم ليس دائما وفي كل الحالات التكتيك الصحيح. لم يرض مثل هذا الكلام البعثة الألمانية وحلفائها، فطلبوا من المؤتمر أن يعترف بكون «حركة مارس» هي تحرك جماهيري فرض على الطبقة العاملة بعد افتراءات أرباب العمل والسلطة، وأن الحزب تحمل مسؤولية القيادة وقام بدوره بشجاعة، واستطاع أن يبرهن عن مقدرته في قيادة الطبقة العاملة في نضالاتها حتى الثورة.

عند ذلك أعلن تروتسكي عن عدم تمكنه من الموافقة على مثل هذا، ولكي يبرهن على أن الدراسة الجدية للظروف لم تكن قد تمت بالفعل قبل التحرك قام بعدة اتصال مع عدد من المسؤولين، فكان التناقض بارزا في أقوالهم. لقد أكد البعض أن الوضع كان واضحا والحالة أصبحت لا تطاق: بالتهديد باحتلال روهر ومسألة سيلازيا العليا والأزمة الاقتصادية والبطالة والاضرابات جعل الظروف ملائمة بشكل استثنائي. أمّا بالنسبة للبعض فقد كانت الحالة أكثر تعقيدا: فالعمال لم يكونوا مهتمين بسيليزيا العليا، وكانت النقابات «ضدنا»، وصلت السلبية عند العمال إلى حد لا يصدق، فكان من الضروري إذن تحريكهم بمبادرة ثورية.

استخلص تروتسكي بعد كل هذا أن التأكيد التام الذي يطلبونه بدون أي نقاش وتحليل للأحداث أصبح مستحيلا. وأن اهتمامهم ينصب على امكانية عودتهم إلى ألمانيا بنتيجة لا يبدو فيها أثر للنقد. كانوا يريدون تغطية من الأممية أمام جماهير الحزب. لكن النقد ينبعث من تصريحاتهم عندما تكلموا عن جدار كثيف من السلبية ومن الركود العام وأطلقوا، مع هذا صيحاتهم «إلى الأمام» فكان من واجب الأممية الشيوعية أن تحذر فروعها من مغبة الوقوع في خطأ افتعال الأحداث،

[7] - في الواقع، بقي تالهيمر وفيا للبيلاكون ونشر، بعد عدة أشهر من المؤتمر في 4 كانون الثاني 1922، هذه الملاحظة «لقد انتقد لينين بعنف آراء بيلاكون في المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية. لكن ليقطع حبل الافتراء على الصفات الشخصية لبلاكون أعتقد لينين أن من واجبه انهاء النقاش باعترافه، صراحة وبدون تحفظ، بسيادته الشخصية، بشجاعته وتفانيه الثوري هو ورفاقه هذا في الوقت الذي كان فيه لينين طيلة فترة النقاش ينعث أفكار بيلاكون «بحماقات بيلاكون» و«بلاهات بيلاكون».

ويجب على المؤتمر أن يقول للعمال الألمان أن خطأ ما قد وقع وأن محاولة الحزب في تحمل مسؤولية حدث جماهيري كبير لم تكن تدعو إلى السرور، أمّا الإيطاليون فقد أعلنوا، بقصد دعم تكتيك «المهاجمــــــة» أصبحنا الآن أحرار، لقد تخلصنا من الزعماء الإصلاحيين ويمكننا الآن أن نقوم بمهمتنا، ويمكننا أن نقوم بأعمال جماهيرية وكان جواب تروتسكي لهم «ليس في العالم الا الإنتهازيون. لقد عملتم لإقصائهم من صفوفكم، هذا عمل جيد. ولكن هناك المجتمع الرأسمالـــي والشرطة والجيش، هناك ظروف اقتصادية محددة وعالم معقد.. يجب أن نثبت مقدرتنا على جمع اللغة الباردة للاحصاء مع الارادة المحمومة للعنف الثوري».

لم تستقبل هذه الحقائق الأولية في ساعتها كما يجب ولكنها أعطت في مستقبل قريب ثمارها. ففي دراسة حول «الصــراع الطبقي في ألمانيا خلال سنة 1922» كتب تالهايمر بالنسبة لحركة آذار ما يلي: «لم يكن هذا التحرك إلاّ نزاعا بدأته الطليعة واستباقا للمعركة التي لا يستطيع خوضها إلاّ الطبقة العاملة وحدها. لقــد انتهى إلى انحسار وإضعاف مؤقت لعناصر الطليعة. لم تكن أكثرية الطبقة العاملة مهيأة بعد.. حتى لأهداف مباشرة ومحددة جيــدا وسارت موجة القتال نحو الضعف. لقد سعت الرأسماليــــــة وأعوانها، مستفيدة إلى أقصى حد من انتصارها، لقد سعـــــــــت داخل الطبقة العاملة إلى اضعاف وعزل العناصر القيادية ضمن البروليتاريا التي ركزت نضالها حول مسألة العمل ثماني ساعات يوميا، مسألة الأجور، حق الإضراب.. لكن الحزب الشيوعـــــي تمالك نفسه وبدأ تحركا جديدا بعد أن أدرك أن تحرك آذار كان تحركا غير ناضج» (حولية العمل Annuaire du travail ص 363-364) لم يكن النقاش حول «حركة آذار»، برغم أهميتـــه، إلاّ إيضاحا للموضوعة التي وسعها تروتسكي في تقريره الكبيــر «الأزمة الاقتصادية العالمية والمهام الجديدة للأممية الشيوعيــــة» لقد أدى التحليل الذي قام به إلى ابراز السمات للوضع الراهن «فألمانيا سنة 1921 لا لا تشبه ألمانيا سنة 1918» كما صرح أحد المراقبين للوضع في ألمانيا. وأكدت منشورة «الوقت Le temps» «إن الأزمات التي سوف تأتي يمكن تجاوزها». وقال تروتسكي في نهاية هذا التحليل: «لقد أعطى التاريخ للبورجوازية مهلة يمكن خلالها أن تستجمع أنفاسها. لقد كان انتصار البروليتاريا غداة الحرب امكانية تاريخية ولكنها لم تتحقق. أظهرت البورجوازية عن قدرة في استغلال ضعف الطبقة العاملة.. إلاّ أن الوضع في الحقيقة يبقى ثوريا: فالحالة سوف تكون لنا أكثر ملائمة وفي الوقت نفسه أكثر تعقيدا. لا يمكن أن نحقق النصر آليا، يجب أن نستفيد من مرحلة الهدوء النسبية لنبسط تأثيرنا داخل الطبقة العاملة ونكسب أكثريتها إلى جانبنا قبل حدوث تطورات حاسمة».

قدم مؤيدو «المهاجمة» نقدهم بكل حيوية، لقد أظهروا «جميعـــا»، مهما تنوعوا أكانوا ألمانا أم هنغاريين أم بولونيين أم إيطاليين، لقد أظهروا تلهفا طفوليا وخطرا باستعمالهم عبـــــــارات من هذا الطراز: نقوم بالثورة بإشهار السيف وليس بالقيام بإحصاءات، نحن لسنا بحاجة إلى إظهار ضرورة الثورة وإنمـــا يجب القيام بها، تلعب روسيا السوفياتية، منذ فترة السياســة الاقتصادية الجديدة، دور صمام الأمان للرأسمالية... وانتقد تالهيمــر تروتسكي واتهمه «باختزان طاقة البروليتاريا الثورية». أجاب تروتسكي على كل الإنتقادات بشروحات وإيضاحـــــــات جديدة، وتوصل إلى الاستنتاجات نفسها التي توصل إليها بالنسبة لمسألة التكتيك. لقد شدد، خلال عرضه، على الحدث الأساســـــي الذي كان منسيا أو مهملا، المتمثل بالدور المتعاظم الذي تلعبه أميركـــا في العلاقات الدولية: لقد أشار أن أميركا احتلت مكان بريطانيا و«أصبح الدولار مسيطرا في السوق العالمية».

في 7 تموز عرض لينين تقريره حول «الوضع الداخلي في روسيا السوفياتية ومهام الحزب الشيوعي الروسي. وكان قـد حضر للمؤتمر كراسا تحت عنوان «الضريبة الغذائية» يستعيـــــد فيه عددا من المقالات كان قد كتبها في أوراق متفاوتة، وخص ببعضهـــا النظام الذي سماه«برأسمالية الدولة» مدخل النظام الاشتراكي على حد قوله. وكان قد كتب، في ربيع 1918، كراسا مهما حول الموضوع نفسه «المهام الأساسية الراهنة» حيث يمكن إعادة بعض من مقاطعه المهمة.

«تصبح رأسمالية الدولة، في المرحلة الراهنة، وفي جمهورية السوفيات، خطوة كبرى نحو الأمام.. لا يوجد أي شخـــــــــص، على ما أعتقد، أنكر السمة الانتقالية للإقتصاد الروسي. ليــــس بوسع أي شيوعي أن ينكر أن عبارة «جمهورية السوفيات الاشتراكية» تترجم فقط رغبة السلطة السوفياتية بتحقيـــق الاشتراكية وأن العلاقات الاقتصادية الحالية هي علاقات اشتراكية ماذا تعني إذن عبارة «انتقال»؟ ألا يعني هذا، أنه من وجهة نظر اقتصادية، أن النظام الحالي يتضمن، في الوقت نفسه، عناصر من الرأسمالية وعناصر من الاشتراكية؟ من الطبيعي أن يكون الجواب بالايجاب. ولكن ليس بمقدور الجميع أن يميزوا بين مختلف هذه العناصر. وهذا ما أود توضيحه. يمكن أن نميز بين الأنماط التالية:

1- الاقتصاد البطريركي الذي يبلغ في أعلى مراتبه الاقتصاد الطبيعي.

2- الاقتصاد الريفي التجاري (ويتضمن المزارعين الذين يبيعون القمح).
3- الرأسمالية الخاصة.
4- رأسمالية الدولة.
5- الاشتراكية.

تشتمل روسيا في الوقت نفسه على مختلف هذه الأنماط الاقتصادية والاجتماعية. وهذا ما يشكل طرافتها، .. تصبح رأسمالية الدولة تقدما كبيرا، وهذا جدير باكتساب الخبرة لأن أهم شيء بالنسبة للطبقة العاملة هو القضاء على الفوضى وعدم التنظيم التي يمكن أن تبيد جهودنا إذا لم نقض عليها بنجاح. ولهذا فإن دفع الضريبة المهمة التي هي رأسمالية الدولة تشكل مدخلا للاشتراكية. وهذا أمر لا يمكن إنكاره. تشكل رأسمالية الدولة تنظيما اقتصاديا أكثر تقدما من تنظيمنا الحالي، ولا خوف إذن طالما السلطة بأيدي العمال والمزارعين الفقراء. ولنوضح المسألة أكثر، سوف نعطي مثلا عيانيا لرأسمالية الدولة: ألمانيا، «فالكلمة الأخيرة» هنا هي للتقنية الرأسمالية الحديثة في دولة إقطاعية – رأسمالية. وإذا وضعنا مكان الدولة، دولة أخرى ذات بنية اجتماعية مختلفة تصبح لدينا ظروف تجعل من الممكن إقامة الاشتراكية».

لقد كانت السياسة الاقتصادية الجديدة خطوة إلى الوراء، ولم يكن لينين يفكر في إنكار ذلك إذ أن هذه الخطوات وضعت روسيا في طريق هي مجبرة أن تسير عليها تحت وطأة الإجراءات المختلفة التي تشكل ما يسمى «شيوعية الحرب» ولقد تمكن المندوبون من التأقلم مع هذه التحديات والشروحات، وليس على لينين إلاّ أن يشير إلى المبادئ التي وجهت مهام الحزب الشيوعي. لقد قال: «لقد اعتبرنا دائما أن ثورتنا هي طليعة الثورات في أوروبا، لقد اعتمدنا على الثورة العالمية وبالتالي اعتبرنا أن مهمتنا التاريخية هي التحضير لهذه الثورة. إن وعي الجماهير الثورية لم يصل إلى هذا الحد وكانت عاجزة من أن تطلق الثورة في مكان آخر، بالرغم من ذلك كانت من القوة بحيث منعت البرجوازية من مهاجمتنا» «هناك بعض الأمثولات يجب أن تؤخذ من تجاربنا. لقد أثبتت هذه التجارب أن الفلاحين، بطبيعتهم، لا يمكن أن يكونوا إلاّ تحت قيادة البرجوازية أو قيادة البروليتاريا. إن التحالف الذي عقدته البروليتاريا مع الفلاحين ذو سمة عسكرية بحتة، يدعم الفلاحون العمال، قبل كل شيء، لأنهم يرون، وراء البيض، قدامى الملاكين المتلهفين للعودة إلى ملكياتهم. لقد أعطت البروليتاريا الأرض للفلاحين وبفضل ثورة أكتوبر استطاع الفلاحون الاحتفاظ بالأراضي التي طردوا منها الملاكين واستولوا عليها. بالمقابل يتوجب على الفلاحين أن يقدموا المنتوجات الغذائية من أجل إعاشة المدن: هذه هي المصادرة. قبل نهاية الحرب المدنية ولدت ظروف جديدة تضمنت مهاما جديدة، لقد تم ارساء قواعد السياسة الاقتصادية الجديدة من أجل تحقيق هذه المهام».

عندما أراد لينين الإجابة على الانتقادات التي أطلقت، شدد بشكل خاص على تيراسيني الذي عارض مقولة «اكتساب أكثرية الطبقة العاملة» بمقولة الأقلية الفاعلة وإعادة أطروحة «المهاجمة» بقصد التحرك المستمر.

كان جواب لينين صارخا: «يجب على المؤتمر أن يقف بحزم بوجه هذه الطفولية اليسارية. يقول تيراسيني أننا نحن البلشفيك لم نكن أكثرية في أكتوبر. هذا صحيح، ولكننا استطعنا أن نكسب أكثرية سوفياتات العمال والفلاحين وكان معنا نصف الجيش على اقل تقدير. **لقد انتصرنا بوجود عشرة ملايين عامل وفلاح مسلح**».

أعادت الكسندرا كولونتاي النقد المعروف «للمعارضة العمالية»، ويتلخص هذا النقد بالمكانة الكبرى المعطية للتقنيين على حساب مبادرة الطبقة العاملة وإمكانياتها. فانبرى تروتسكي ليرد عليها، قال: «من وجهة نظر المبادئ، مما لا شك فيه أن إمكانية البروليتاريا ومبادراتها هي أكثر من كافية وأن الإنسانية ستتحول جذريا بفضلها. ولكن لم نزعم أبدا أن الطبقة العاملة تستطيع بناء المجتمع الجديد منذ حدوث الوعي عندها. ما يمكن أن تفعله هو خلق الظروف الاجتماعية والسياسية الضرورية. بالإضافة إلى ذلك عندما تسيطر سيطرة مباشرة على السلطة يمكنها أن تجد القوى الثانوية الضرورية لها».
قدم الألماني كوونين تقريرا مطولا حول «بنية الأحزاب الشيوعية طرقها وعملها». وتمت مناقشته ومصادقته في جو اللامبالاة الذي سيطر في أواخر المؤتمر. لقد كان الهدف من هذا التقرير هو مساعدة الأحزاب الشيوعية الناشئة في مهمتها الصعبة، لا تفتقر هذه الأحزاب إلى الإخلاص والصدق التدريبي اللذين يلهبان القاعدة، إنما النقص في الكوادر والنقص في الخبرة تمنعها من الإفادة إلى أقصى حد من القوى المتوافرة لديها. إلاّ أن كوونين لم يقترح سوى نسخة متواضعة عن الحزب الشيوعي الروسي. لقد خلا الحل من أي اجتهاد وتلافي الفوضى في الصعاب الحقيقية وجانب المواضيع الحقيقية. لقد كان هذا الحل ضارا أكثر منه مفيدا وأدانه لينين بشدة في مؤتمر مقبل. لقد توصل بعض المندوبين الذين اشتركوا في هذا المؤتمر إلى استنتاجات مقلقة، إذ لم يبق شيئا يذكر من الحماسة الثورية التي كانت الطابع المسيطر في بدء المؤتمر إنما على العكس لقد أحسوا بالشك والارتياب. لقد كان زينوفييف يريد أعدادا ضخمة في البعثات، وهذا ما أدى إلى أنها حوت فيما حوت صحفيين وأساتذة وكتابا لم يتوان البعض منهم إلى الإعلان أنهم ليسوا شيوعيين وأنهم أتوا إلى المؤتمر لدراسة هذا الوجه أو ذاك من

أوجه النشاط السوفياتي. لقد ساعدت الاختلافات في وجهات النظر التي ظهرت بالنسبة للتكتيك، والفشل الذريع في بولونيا وإيطاليا، ساعد كل هذا لإشاعة نوع من الانفعالية بين المندوبين. أدت هذه الانفعالية لخلق جو من الارتياب في النهاية.

4- النقابات العالمية الحمراء تعقد مؤتمرها التأسيسي

انعقد مؤتمر النقابات العمالية في ظروف غير ملائمة ولأسباب تختلف عن تلك التي ذكرناها سابقا. كان العمل التحضيـــــري، الذي امتد خلال السنة المنصرمة، يهدف إلى تحقيق البرنامج الذي وضع منذ تشكيل المجلس الأممي المؤقت: كان هذا البرنامج ينطوي على الجمع في أممية واحدة كل من التنظيمات النقابية، التي بوسعها الالتزام المطلق، والأقلية النقابية الإصلاحية، إذ أن التطور المستمر لهذه الأقليات – التي ما برحت تزداد عددا وتأثيرا – يسمح بالتأمل ان بوسعها دحر المقاومة التي يبديها الزعماء الاصلاحيون ودفع التنظيم بكامله نحو الأممية النقابية الجديدة.

لكن الأمور جرت بشكل مختلف.فبعد المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية ابتعد كل من بستانا، مندوب الاتحاد الوطني للعمل، وأرماندو بوركي الأمين العام للاتحاد النقابي الإيطالي، ابتعدا عن الأممية الثالثة وتحولت انتقاداتهم للنظام السوفياتي تدريجيا إلى انتقادات فظة. بيد أن هذين التنظيمين كانا قد صوتا للالتزام بالأممية الثالثـــة.

وعليه يحدث فراغا مهما بدون هذين التنظيمين وبدون الأعضاء النقابيين الثوريين الذين يمثلهم هذان التنظيمان. لكن الأمر تعدى كل هذا. لقد كان لموقف بستانا وبوركي تأثير جدي في الأوساط النقابية عامة وفي فرنسا خاصة. لقد قفزت، إلى المرتبة الأولى، مسالة العلاقات بين الأممية الشيوعية وبين النقابية العالمية الحمراء، وكذلك أيضا مسألة العلاقة بين الحزب والنقابات. انحصر النقـــاش في هاتين المسألتين وكأن المقصود معرفة من يضع القوانين للآخر الحزب أو النقابة. في حين أن قبل الحرب، وفي فرنسا مثلا، وافق الاتحاد العام للعمل على اللقاء مع الحزب الاشتراكي وأن يتحركا سوية في المجالين الوطني والعالمي عند اشتداد خطر الحرب. عندما انحازت القيادتين: قيادة الاتحاد العام للعمل وقيادة الحـزب الاشتراكي، إلى سياسة الحكومة المحاربة تشكل حلف عفوي يضم الأقلية الاشتراكية والنقابية مع بعض الفوضويين. وتم، في تلك الفترة، انعقاد مؤتمر زميروالد حيث تم تشكيل لجنة لإعـــادة العلاقات بين الاشتراكيين والنقابيين والفوضويين والدعوة للالتفاف حول برنامج مشترك وعمل مشترك. ولقد كان الاعتقـــاد السائـــد بأن إذا ما وجدت صعوبات حول مسألة العلاقة بين الحزب السياسي والنقابات فبالامكان تخطي مثل هذه الصعوبات.

لكن الأمور سارت بشكل سيء خلافا لهذه التوقعات المتفائلـــة. لقد تم طرح عبارة «الارتباط العضوي» للأمميتين خلال النقاشات ودارت مختلف المساجلات حول هذا الموضوع. في فرنسا، لقد فهم «النقابيون الخلص» هذا الكلام على أنه التحاق النقابات بالحزب، وهذا ما يرفضه بشكل مطلق النقابيون الثوريون على حد زعمهم. وهكذا وجدوا أنفسهم، صدفة، في قيادة الأقلية النقابية شكلوا بعثـــة إلى المؤتمر تواجدت فيها مختلف الاتجاهات النقابية، ولكن من يذهب إلى المؤتمر بتفويض صوري لمعارضة كل اقتراح «للإرتباط العضـــوي؟».

كان لمسألة العلاقات بين الأمميتين مكانا بارزا في جدول الأعمال الذي وضعناه للمؤتمر. وكان على زينوفييف أن يقدم التقرير الأساسي وتم تكليفي بإعداد تقرير آخر يكون بمثابة مشاركة. لقد عالجنا المسألة بطريقة مختلفة بالرغم من كون النتائج التي توصلنا إليها غير مختلفة.

لقد وجدت أنه يجري الحديث، وبطريقة غير ذكية أحيانا، عن «مزاعم نقابية»، واقترحت التذكير أن مثل هذه «المزاعم» لم تمنع النقابيين من أن يمثلوا الصف الأول في المقاومة وفي الدفاع عن ثورة أكتوبر. لكن في اللحظة الأخيرة أصبح نوع من التغيير ضروريـــا. لقد وجد زينوفييف، عشية المؤتمر، أنه لا يتمتع بتأييد زائد وأن النقابيين، على خطأ أو على صواب، لا يحبونه. وهو الذي أظهر قليلا من بعد النظر عندما انفجرت الأحداث في كرونشكاك، ولكنه لم يفهم بشكل حسن التطور الذي طرأ في الأوساط النقابية. لقد قرر، بعدما لاحظ هذا الجو غير الودي، بأن يتخلى عن تقريـره وأن ينسحب من المؤتمر. وقال لي لوسوفكي، عندما أخبرني بهذا القرار: «لن يكون هناك غير تقرير واحد بدلا من التقريرين، وهذا التقرير هو تقريرك». فأجبته أن هذا مستحيل، ويعني انهيار عملي الشخصي وهذر الجهود التي كنت سوف أبذلها من أجل الوصول إلى تسوية بين وجهات النظر التي لم تكن على خلاف مبين والتي تجب، في كل الأحوال، الا تمنع التواجد في أممية واحدة، ويجب أن يتم إيجاد أساس المشاركة بين رجال لهم آفاق سياسية مختلفة ولكنهم مخلصون لقضية الثورة الشيوعية. ولقد اضطررت للرضوخ لإلحـاح لوسوفكي. عملت البعثة الفرنسية على تعقيد مهمتي. لقد كان لـــي بين أعضائها أصدقاء يوافقون على موقفي وعلى وجهات النظر التي سوف أدافع عنها ولكنهم لم يكونوا الأكثريةولا في موقع القيادة بالرغم أنهم الأكثر أهلية بينهم. اختار الآخرون ناطقا باسمهم، مجهولا حتى الآن، وهو فوضوي متقلب ومزاجي كرس نفسه منظرا للنقابة الثورية وأثاروا مسالة

إجرائية: لقد سمعوا أن موضوع العلاقات بين الأمميتين قد تم نقاشه في مؤتمر الأممية الشيوعية. وهذا موقف فريد لأشخاص يدعون الرغبة بجهل الأحزاب السياسية. وكرروا مرارا أن بعثة الحزب كانت تشترك في مؤتمر الأممية الشيوعية. أكان هذا هوسا عند الفرنسيين؟ لقد كان المقصـــود، من كل هذا، شيئا مغايرا ولكنني لم أنتبه أنا شخصيا إليه إلاّ فيما بعد وسوف أتحدث عنه لاحقا.

لم تعد الأكثرية الساحقة تتحمل الفرنسيين في المؤتمر، وخاصة عندما أراد هؤلاء «النقابيون الخلص» طرح أنفسهم كمعلمين، وإعطاء الدروس للبعثات الأخرى، وصياغة المبادئ الحقيقية للعمل النقابي بشكل ديكتاتوري، وهذا ما أغضب المؤتمرين، فراحوا يصرخون «إنكم تتحدثون عن إضراب عام ولكنكم لم تقوموا بإضراب أبدا، نحن الذين نقوم به».. لم يكن لديهم شيء يجابهـــون به هذا الكلام، إذ أن العمال الفرنسيون لم يقوموا خلال فترة ما بعد الحرب المضطربة إلاّ بإضرابين، الأول قام به عمال سكك الحديد وكان الثاني من المفروض أن يثير إضرابا عاما، ولكن قياديي الاتحاد العام للعمل لم يوفروا جهدا من أجل إحباطه. عارض الاشتراكيون – الديموقراطيون الذين ما زالوا يحتفظون ببعض العداء للنقابيين، عارضوا ما أسموه بالموقف الفرنسي غير المسموح به، وطلب أحدهم – ديمتروف (البلغاري) الذي يحضر للمرة الأولى إلى موسكو ويشارك في مؤتمر – طلب بكل بساطة طردهم من المؤتمر.
لقد لقيت كل تشجيع من البعثة النقابية الاسبانيـــة، بعكس ما جرى معي والبعثة الفرنسية. تألفت البعثة الاسبانيـة من أربعة أعضاء شبان، مناضلين متحمسين هم: نين ومورين من كاتالونيا، أرلانديز من فالنسيا وجيوز إيبانييز من بسكاوا. وكانوا يمثلون الاتحاد الوطني للعمل. أرسل الاتحاد مندوبيه وكان متحفظا في قراره ولم يعطه بشكل نهائي إلاّ بعد المؤتمر. وكانت المفاجأة الجميلة عندما استنتجت عدم الفرق بين موقفه وموقفي الذي دافعـت عنه أمام المؤتمر. لقد انقاد أرلانديز وحده، الذي كان سهل التأثير، إلى مواقف «النقابيين الخلص» وكان يسبب لنا بعض المتاعب وقد انتهى عضوا في الحزب وستالينيا كذلك بستانيا الذي انتهى قائد «للحزب النقابي» الذي أنشأه. كان للفوضويين عضو خامس، رديـــف في البعثة ويدعى ليغال، وكنا نراه قليلا، إذ أنه انفصل عن بقيـة البعثات، وشكل جبهة تضمه مع معارضي الارتباط!

أطلعني لوسوفسكي على النص النهائي الذي يحوي خلاصة النقاشات وكان هذا النص موقعا من كل أعضاء المكتب ومن بينهم توم مان. وكانت إحدى الفقرات تنص على «الارتبـاط العضوي» بين الأحزاب السياسية والنقابات. وكان هذا جوابا للموقف المثير الذي أخذه «النقابيون الخلص» والبعثة الفرنسية. ولقد تمكنـت في مناسبات أخرى أن أضع نصا أخف لهجة، إذ أن النص الأول يمكن أن يظهر غير ذي فائدة ويثير السخط ويعطي للاصلاحيين سلاحا ضد الأقلية التي سوف تستعمله، لقد كان هذا واضحا بالنسبة لي كما كان بالنسبة لأصدقائي، وكل ما استطعت الحصول عليه هـو ألاّ يكون «الارتباط العضوي» كشيء مفروض بشكل مطلـق إنما كشيء موصى به «كمرغوب فيه كيدا».

بالرغم من هذا النقاش غير المجدي والوقت الذب هـدر، استطاع المؤتمر أن ينهي جدول الأعمال وأن يقوم بعمل مفيد. لقـد تم التوصل إلى برنامج مشترك ودرس بطريقة معمقة مسائـل التكتيك من أجل نضال مزدوج:

أولا: الوقوف في وجه الهمجية الرأسمالية في الوقت الذي تسعى فيه البرجوازية لاقتناص الإصلاحيين عندما تروعها الثورة.
ثانيا: العمل للتصدي لرغبة الانشقاق عند الزعماء الإصلاحيين.

اتخذت البطالة في بعض البلدان طابعا جديدا بأبعاد استثنائية وأصبحت تهدد باستمرارها، لم تعد تستطيع جماهير واسعة من العمال إيجاد عمل لها في المصانع، ومن هنا ضرورة إيجاد الرابط الذي يوحدها داخل النقابات مع رفاق العمل.
لقد وصل ايرل براودر، مساعد وليام فوستر، إلى موسكو ممثلا عن العصبة، وكان وصوله قبل عدة أسابيع من افتتاح المؤتمر واستطاع، هكذا، الاشتراك في النقاشات التحضيرية حيث تعرض البعثات وجهات نظرها. ولقد مر برادور في فرنسا لدرس الحركة النقابية الثورية، وتحالف هناك مع قياديي الاتحاد العام للعمل وبشكل خاص مع بيير مونات الذي ساعده في دراسة اللغة الفرنسية. لقد أدى به ما رآه وتعلمه في فرنسا إلى تطوير أفكاره حول التكتيك لقد اقتنع بأن النشاط والجهد المبذولين في التنظيمات يمكن استخدامها بنفعية أكثر للعمال داخل النقابات حيث تمكن محاربة الإصلاحيين بفعالية أكثر من الداخل. وهذا هو الرأي الذي دافع عنه في أميركا. لقد أدهشني موقف براودر، خلال الاجتماعات المصغرة. لم يكن يتدخل في النقاش إلاّ لتأييد لوسوفسكي وبكلمات مختصرة. في حين أن وجهات نظر لوسوفسكي لم تكن متفقة مع وجهات نظر العصبـــة. لقد حاولت أن الفت انتباهه لمناقشة مثل هذه الأمور، ولكـــن جهودي باءت بالفشل، لقد كان يريد في الظاهر مثل هذا التأييد الذي لم يجد براودر نفسه حتى لتبريره. فهمت بعدها أن فوستـــــر أرسله مسبقا لتحضير الأجواء. لقد كان ماضي فوستـر مثقلا، لقد كان خلال الحرب شريكا للحلفاء قام بحملة لدخول أميركـــــا الحرب وباع خلالها «قسائم الحرية». ونظم بعد الحرب وبمساعدة الاتحاد العمالي الأميركي إضرابا كبيرا لعمال الصلـــب. كانت هيمنة أرباب معامل الصلب قوية جدا

واستطاعوا ضرب مقاومة العمال والحصول على إذن قانوني بملاحقة «قيـــادة» الإضراب. كان موقف فوستر يخلو من الصلابة أمام المحاكم بحيث أثار هزء الزعماء الإصلاحيين. لم يأت فوستر إلى موسكو إلاّ بعد عدة أسابيع من انتهاء المؤتمر وتميزت هذه الزيارة بالسرية... مع الوقت أصبح فوستر من قياديي الحزب الشيوعي الأميركي.

كان فيكتور كودوناش، من أعضاء البعثة الفرنسية الأصدقاء، من أول الموافقين على أعمال اللجنة في الأممية الثالثة وقام بأعمال الأمانة العامة عندما كان بيير مونات موقوفا بتهمة «التآمـر»، وأصبح بعد الانشقاق الأمين العام المساعد للإتحاد العام الموحد للعمل. بعد ظهر أحد الأيام وبينما كان آتيا إلى الكريملين بمفـرده سمع أحدهم يناديه «بالفرنسي؟» وكان صاحب هذا الصوت لينين بالذات متوجها بسرعة نحو كودوناش لمحادثته. واستمر الحـوار حتى قاعة المؤتمر حيث طلب منه لينين، قبل الدخول، أن يحدثـــه عن الحركة العمالية وعن رأيه بالمؤتمر وعن انطباعاته. بعدها أتى كودوناش ليحدثني عن هذه المغامرة غير المألوفة. لقد تأثر كثيرا ببساطة لينين وحميمية كلامه وبكون استمرار الحوار وكأنه بين صديقين اعتادا الحوار عندما يلتقيان صدفة.

5- ختام إقامة مدة 17 شهرا

لم تكن البعثات على عجلة من أمرها عندما انتهت المؤتمرات، لقد وجد المندوبون الحياة شيقة في موسكو وخصوصا الفضوليون منهم، وكانوا يتحدثون، كمراقبين، عن النقاشات وعن القـرارات التي تم اتخاذها في المؤتمرات. وكانوا يسخرون من حدة صوت زينوفييف، لقد أحبطهم الزعماء وخصوصا لينين الذي كان يختلف كثيرا على نمط «الثوري الروسي» الذي خبروه في الغرب والذي أحبوا ملاحقته في موسكو. في مطلق الأحوال كان الرحيل ضروريا، وخصوصا عندما تحول النقاش عن المسائل الدسمة التي طرحت في المؤتمر إلى المسائل العادية، وعليه ازدحمت المكاتب التي تنظم الرحيل بالمندوبين.

مددت إقامتي لبعض الوقت. كنت قد جمعـــــــت، خـــلال الـ 17 شهرا، كمية من الأوراق والملاحظات المتوجب تنظيمها، وكان يتوجب علي الانتظار حتى ينهي مارتان ترجمة البرقيات والتقارير الديبلوماسية التي كان يجب أخذها إلى فرنسا. وفي اليوم المحدد لسفرنا أتى تروتسكي لوداعنا في المحطة.

لقد قادنا القطار حتى روفال حيث استقلينا مركبا ظريفا لنصل إلى ستاتيـــن. كنا عشـــرة مندوبيـن. لقد تمتعنا بالعيـش الهنيء بعد التقشف الذي عشناه في موسكو: نزلنا في غرف مريحة وكان كل ما نطلبه مؤمنا من الأشياء النادرة حتى أنواع المآكل الفاخرة. كان البحر هادئا والمركب ينساب بدون أي ارتجاج، لقد كنا مسترخيـن في بحر ن الهدوء عندما انتشرت إشاعة أقلقت مضاجعنا «نحن جميعا موضع معاينة». لقد بدأنا نجتمع جماعات صغيرة لمناقشة الأمر ودرس ما يجب عمله والإجراءات التي يجب اتخاذها، إذا كان الموضوع يتعلق بعملية توقيف في ستاتين فيجب التنبه منـــذ الآن. لقد كان بيننا أحد البولونيين الذي ظهر حزينا بشكل استثنائي ولكنــه ما لبث أن قال لي كأنه قد وجد مخرجا لفمه ومفتاحا لبؤسه «إنها غلطة تروتسكي أيضا، ما الذي أتى به إلى المحطة». لم يكن باستطاعتي إلاّ طأطأة الرأس أنني كنت المسؤول... في الواقـــع لم يدم حزننا طويلا، لقد عادت إلينا قابلية الطعام واسترجعنا جميعا بسرعة ابتهاجنا باستثناء البولوني المسكين... أقلعنا إلى ستاتيـــن بدون أي إشكال. ولكن من ذا الذي يلهو بنا؟ لقد كان يسافر معنـــا على المركب ناقل البريد للأممية الشيوعية، وكنت أعرفه، لقد كان رجلا مرحا، يقوم بواجبه كاملا ويميل إلى التشكيك. لقد أصبح واضحا أنه هو الذي كان يعبث على حسابنا فأطلق هذه الشائعـــة.

(1922)

1- العودة إلى موسكو – الجبهة الموحدة: شيابنيكوف وكاشين

أوصى المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية الأحزاب الشيوعيـــة اتخاذ «التوجه إلى الجماهير» شعارا لها وذلك بقصد استقطاب أكثرية الطبقة العاملة، وهذا ما يجنب الأحزاب الشيوعية خطر الانغلاق على ذاتها ويحذرها من التورط بأعمال لم يتم تحضيرها بشكل كاف.

كانت «موسكو» تفهم جيدا التغييرات الأساسية والثانويـــة التي طرأت على الوضع العالمي وفي بعض البلدان، بالرغم من اتهامها أحيانا بعدم معرفتها بالخطوط السياسية لبعض الأمم الديموقراطية. يمكن الاستنتاج أنه منذ أوائل سنة 1922 بدأت المبادرة الثورية تخبو وظهر التردد عند العمال، فيما كانت البرجوازية، شبه المحتضرة في أواخر الحرب، تستعيد ثقتها بنفسها وتبدأ بالهجوم وهذا ما قامت به ببعض النجاح، والتكتيك المناسب الناتج عن هذا الوضع هو التشديد على المطالب المباشرة للعمال. وبفضل هذا التكتيك لا خوف على الأحزاب الشيوعية أن تبقى معزولة عن الطبقة العاملة، بل يمكنها، بالعكس، تأليب الأكثرية الكبرى من البروليتاريين حول برنامجها.

لم يعط المؤتمر، بصدد ممارسة هذا التكتيك، إلاّ إشـــارات عامة قد يساء فهمها. رأى لينين ضرورة، استكمال قـــرارات **المؤتمر الثالث**، لإيضاح شكل محدد للممارسة وأسمى التكتيـــك الجديد «**الجبهة الموحدة للبروليتاريا**». اصطدمت ردة البرجوازية، منذ الآن، بمجموع العمال التي فرقتها الانشقاقات السياسيـــة والنقابيـــة.

أقرت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية تكتيك «الجبهـــة الموحـــدة» في جلستها المنعقدة في 4 كانون الأول 1921. شرح زينوفييف هذا التكتيك وبرره في خطاب مهم، وعرض راديك، بشكل ممتاز، أساس هذا التكتيـــــك ومعناه. كتب في هذا الصـــدد: «وجه الحزب الشيوعي الألماني الموحد، بعيد المؤتمر وبعد الانشقاق داخل الحزب الاشتراكي-الديموقراطي المستقل، وإلى الحزبيين الاشتراكيين-الديموقراطيين وإلى النقابة المركزية «كتابا مفتوحا» يدعوهم فيها إلى العمل المشترك من أجل الدفاع عن المصالح المشتركة للطبقة العاملة. لقد وجدت أكثرية أعضاء الحزب هذا التكتيك ممتازا، ولكن هذا صدم، في الوقت نفسه، بعض مناضلي الحزب وبعض مناضلي الأممية الشيوعية: إذ «كيف يمكن أن نقترح عملا مشتركا على أناس وصمناهم بخيانة البروليتاريا». وكان لطبيعة المطالب المطروحة في «الكتاب المفتوح» الأثر نفسه، إذ لا يوجد فيها كلمة واحدة حول ديكتاتورية البروليتاريا. لقد تفادت، بلهجة متعقلة ومعتدلة، كل مبالغة ذات طابع دعائي... كانـت الجماهير تعتبر، بوجود ردة فعل أرباب العمل، ان كل انشقاق جديد هو بمثابة جريمة. هذا في الوقت الذي يتوجب فيه على الشيوعيين الاقتراب أكثر فأكثر من الجماهير. ولكن كيف؟ بالتأكيد على ضرورة ديكتاتورية البروليتاريا؟ ولكن لم يبق قسم كبير من العمال في الأحزاب الاشتراكية-الديموقراطية لأنهم لم يفقدوا الثقة بالطرق القديمة. يبقى الطريق الوحيد، إذن، للاقتراب من هذه الجماهيـــر غير الشيوعية هو أن نستلهم من بؤسها الحاضر وأن ندعمها في مطالبها المباشرة. يبرهن الحزب الشيوعي أكثر من أي وقت مضى، بتحمله هذه المهمة، ضرورة النضال من أجل ديكتاتورية البروليتاريا. عند انفجار الأزمة ونظراللتفكك الحالي للنظام الرأسمالي، يفضي نضال الجماهير الواسعة، من أجل زيادة الأجور الذي يعوض إلى حد ما عن غلاء المعيشة المتزايد، يفضي إلى إظهار التناقض بين البروليتاريا والديموقراطية البرجوازية وضرورة تحقيق مطالب أكثر حيوية كمراقبة العمال للإنتاج مثلا. ويجبر في الوقت نفسه الزعماء الاشتراكيين الديموقراطيين إلى التوجه نحو اليســـار أو إلى الإفلاس. ولا يحسم هذا الأمر عن التعرض لمسألة ديكتاتورية البروليتاريا أو مسألة الديموقراطية، حيث يمكن خلق التعارضات، ولكن يصبح عنصرا حاسما في ساعات العمل وعند التعرض للخبر اليومي حيث يكون الوضوح على أشده في أذهان العمال.

«إن خير دليل على صحة تكتيك الحزب الشيوعي الألماني هي المقاومة العنيدة التي أبداها الزعماء الاشتراكيون-الديموقراطيون والزعماء النقابيون. لقد قام الحزب الشيوعي **بخطوة إلى الوراء**، هذا صحيح، لقد اكتفى بالتعرض إلى **المطالب المباشرة**، هذا صحيح أيضا، ولكن بدلا من أن يضعف ازدادت القوة الاستقطابية عنـــده. لقد نجح الاشتراكيون-الديموقراطيون بتدارك الضربة لكن الحزب استطاع أن يوسع مواقعه في النقابات وأن يدعمها. لقد أصلح «الكتاب المفتوح » الأخطاء التي سببتها ممارسات «أحداث أيار». ككل يتغير في تكتيك حزب كبير، لم يكن هذا الأمر نتيجة تأملات نظرية، ولم يكتشفه أحد. عندما عرضته اللجنة المركزية في جمعية عمومية لمختلف ممثلي الفروع اتضح أن عددا كبيرا من رفاق المقاطعات يعملون في هذا الإتجاه. لقد ولد هذا التكتيك من الحاجات العملية للحركة الألمانية، كما أنه يتجاوب مع حاجات

البلدان الأخرى». لقد كان الاستشهاد بهذا المقطع الطويل ضروريا لأنه يصف بدقة معنى هذا التكتيك الذي سيكون، لأشهر عديدة، موضع نقاش. وتمكن الملاحظة هنا أن لا علاقة له مع «الجبهة الشعبية» التي طرحت فيما بعد أو مع «حصان طروادة».

لقد تم طرح «الجبهة الموحدة» بكل صراحة ووضوح كما هي: **أداة لحشد الطبقة العاملة انطلاقا من مطالبها المباشرة، ولكن دون إخفاء الهدف الذي هو الثورة الاشتراكية، هذا الهـــدف الذي يوجه التكتيك من خلال التطور المعتاد للحركة، والذي يعيد للطبقة العاملة ثقتها بنفسها والثقة الثورية:**

لم يرحب قياديو الأحزاب الاشتراكية-الديموقراطية وزعماء النقابات الاصلاحيون بتكتيك الجبهة الموحدة، لقد وصفوه كتراجع عن الأممية الشيوعية تارة، وطورا كمناورة. لم يكن هذا العداء الذي أبدوه مثيرا للدهشة، إنما المدهش هو الجواب الذي تلقته الأممية من الأحزاب الشيوعية. لقد كان لهذا التكتيك، بالإضافة إلى قيمته الذاتية، أثرا مهما وغير متوقع داخل الأممية، إذ أبرز الحالة الحقيقية للأحزاب الشيوعية عامة ولقيادتها خاصة. كيف يمكن لأحزاب جديدة، لا يزيد عمرها عن السنتين، تشكلت بظروف مختلفة، كيف يمكنها أن تكون فروعا في الأممية، وأندادا لحزب كبير تتعاطى معه على أساس برنامج مشترك ونشاط مشابه؟

لقد تم الإصرار على الطابع المميز للأممية الجديدة: لقد كان هذا الحزب ممركزا بشدة، يناقش مشاكله بمؤتمرات تعقد سنويا، حيث كانت النقاشات مطولة وحرة، ولكن القرارات المتخذة تلزم الجميع. لا يبدو هذا الوضع مشابها للأممية الثانية حيث تبقى حرية التحرك متروكة لكل حزب. لعل الازدراء الذي تم إظهاره حيال هذه الأممية يحمل على الاعتقاد أن كل الذين إلى الأممية الثالثة كانوا متفقين حول هذا المفهوم الأساسي. لكن يظهر أن تكتيك الجبهة الموحدة، منذ الوقت الذي عرض فيه على الأحزاب الشيوعية أن الأمر لم يكن كذلك.

أثار هذا التكتيك ردات فعل مختلفة، راوحت بين الموافقة المتحفظة – لم يكن التكتيك مناسبا – والرفض المطلق. وقيل عنه أنه تراجع وتنازل من قبل الشيوعية. تطور هذا التكتيك في ألمانيا حيث كان للحزب قاعدة عمالية عريضة، من دون عقبات، عند ممارسته للمرة الأولى، وكانت ألمانيا لا تزال تحت تأثير السبارتاكية وأثير **روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت** وخصوصا في برلين حيث لاقى معارضة صاخبة ترددت أصداؤها في الخارج.

بيد أن المعارضة الأكثر طرافة التي أثيرت في وجه الجبهة الموحدة كانت تلك التي أثارها الحزب الشيوعي الإيطالي، ولا عجب فإن تشكيل الحزب نفسه لا يخلو من الطرافة أيضا، إذ يختلف هذا التشكيل عنه في الأحزاب الشيوعية الأخرى ولا يندرج في النموذج نفسه. لم يكن في قيادته أحم من قدامى الحزب الاشتراكي، وكانت تخضع بجملها للبورديغيين (نسبة إلى بورديغا) في كل الأحوال. لقد ترك بورديغا ومن كان حوله من الشيوعيين بصماتهم في برنامج الحزب ونشاطه، وكان هذا الأثر متحررا كلية من كل اتجاه نحو اليمين أو الوسط. كانوا بأكثريتهم من العناصر الشابة والمثقفة والنشيطة ولكنهم كانوا على هامش الحركة العمالية أو فوقها، وكان الحزب الشيوعي، بالنسبة إليهم، كجند الصدام للثورة وقيادته تلعب دور هيئة الأركان العليا. وهكذا اعتقدوا أن باستطاعتهم تلبية دعوة الأممية. شعار جبهة موحدة في النقابات؟ نحن لا نقف ضده، يمكن أن تقام اتصالات بين النقابيين الشيوعيين وبين الإصلاحيين بقصد العمل المشترك من أجل مطالبهم. لكن الأمر لا يطرح بالنسبة للحزب إذ يجب أن يحافظ على نقائه الثوري ولا يمكن أن يعرض نفسه للتعامل مع القادة الاشتراكيين الذين تخلى عنهم.

بلغ الإضراب أعلى الدرجات داخل الحزب الشيوعي الفرنسي ووضعت الجبهة الموحدة الحزب بموضع الأزمة. لقد أعلنت أكثرية قيادته رفضه، ووجدت هنا مناسبة للتوجه بصراحة ضد قيادة الأممية الشيوعية. لقد ظهر الحزب، الأقل شيوعية بكل تأكيد، متشددا إلى أقصى حد، ويمكن لدراسة تشكيل قيادته أن توضح بكل بساطة هذا التناقض. إنها تضم بعض الصحافيين والنواب الذين تركوا الحزب القديم، وكانوا قليلي التعلق بالحركة النقابية وكانت اللفظية طاغية عند الأكثر صدقا بينهم، وكانت الأكثرية الساحقة من أعضاء هذه القيادة تتحمل بصعوبة انتقادات الأممية الشيوعية. لقد اعتقدوا أن هذا التكتيك سيسمح لهم بالثأر في نقاش حيث يستطيعوا هم نضح «انتهازية» قيادة الأممية الشيوعية وعدم تجانسها، لقد كانت صحافة الحزب تزخر بالانتقادات من كل نوع، الساخرة والناقمة، وذلك من دون أن تعرض بنزاهة مضمون هذا التكتيك. اجتمعت اللجنة القيادية لمناقشة الأمر وخرجت بنتيجة لا تتوقف عن حد الإعلان عن «عدم إمكانية» تطبيق هذا التكتيك، وإنما «قدرت» أنه «يمثل أخطارا يجب أن تؤخذ حيالها بعض الضمانات». ودعا، إثر ذلك، أمين عام الحزب فروسار، إلى المجلس الاستثنائي لأمناء المقاطعات العامين حيث انه كان متأكدا من الموافقة التي سوف يلقاها. وهكذا عقد المجلس في باريس في 22 كانون الثاني سنة 1922.

كان الحزب لا يخلو من اتجاه يساري، يضم خصوصا الملتزمين الجدد المخلصين بصدق للثورة الروسية، لقد كان هذا الاتجاه هو الذي فرض التجانس في الأممية الشيوعية وكان مؤهلا دائما للموافقة على قراراتها، ولكنه قام بهذا العمل، هذه المرة، من دون حماس يذكر. بالرغم من ذلك توجه أحدهم إلى المنصة ليدافع عن التكتيك، بعد أن أدانه أمناء المقاطعات العامون (وعددهم 46) ووافق عليه (12) بفتور، وقام بمداخلة اعتبرت مأساة حقيقية، فهو الذي أطلق، في هذه المناسبة، العبارة التي أصبحت شهيرة فيما بعد «نتف ريش الطيور». لقد أشار أن هذا ما هو إلاّ مناورة ذكية تسمح بتجديد الأحزاب الاشتراكية والإصلاحية من أعضائها عضوا اثر عضو كريش الدجاج. ويمكن أن نتصور بعدها الرج والمرج اللذين سادا في «الخم» بين فرح المتفرجين العظيم ووجوم أصدقاء «ناتف الريش».

أمام هذه البلبلة التي أثارها تعثر الفهم، تم فرض نقاش عام. كانت قيادة الأممية الشيوعية قد قررت جمع لجنة تنفيذية موسعة منذ البدء. كانت هذه اللجان الموسعة، بعد أن تحولت إلى لجان دائمة عمليا، بمثابة مؤتمرات مصغرة. التحقت البعثات التي أرسلتها الفروع بأعضاء اللجنة التنفيذية الدائمين. وهكذا أصبح عدد المشاركين يربو على المئة. ثم عقد الاجتماع من 21 شباط إلى 4 آذار سنة 1922 في الكرملين، في قاعة ميتروفانوفسكي حيث عقد المؤتمر الأول في آذار 1919 وتم إقرار الأممية الثالثة. لقد كانت السجالات مفيدة للغاية إذ أن الإطار العام والسمة المميزة تفترض الالتزام بالرصانة، يجب على المرء أن يكون دقيقا ومحددا وكفوءا لتقديم البراهين الجدية لتبرير المواقف التي يتخذها والتفسيرات التي يعطيها وخصوصا الاتهامات التي يطلقها. لم يلبث الفرنسيون، الذين كانوا عدوانيين بشكل استثنائي، أن يتبنوا هذا الأمر. أمّا الذين كانوا أكثر اعتدالا بينهم فلقد دعموا المقولة التالية: إن تكتيك الجبهة الموحدة هو بدون هدف بالنسبة لفرنسا. لقد أكدوا أن «المنشقين» - الذين خرجوا من الحزب اثر التصويت على الالتزام بالأممية الثالثة – لم يكونوا إلاّ أقلية، لم ينجحوا إلاّ بجلب أكثرية النواب إلى جانبهم ولم يكونوا يطبعون إلاّ أعدادا قليلة من صحيفتهم، «أمّا نحن فكنا نؤثر في الطبقة العاملة كلها بصحيفتنا «الإنسانية» وكان الأمر كذلك بالنسبة للنقابات. كان الانشقاق، الذي أراده الزعماء الاصلاحيون، بالنسبة إليهم مضرا.

هناك بعض الصحة في هذه التأكيدات لكن الصورة تبدو في كل الأحوال أكثر تفاؤلا. لقد أظهر الانشقاق النقابي، بشكل لا لبس فيه، أن «جوهو» وجماعته لم يتوصلوا إلى قيادة الاتحاد العام للعمل إلاّ بفضل المناورات والتزوير. لم يبق معهم إلاّ عددا محدودا ولكن لا يمكن التغاضي عنه. هنا تبدو وحدة الجبهة البروليتارية أكثر ضرورة لأنها تعيد العمال إلى النقابة وإلى العمل النقابي بعد أن استبد بهم اليأس وخرجوا من التنظيمات النقابية بأعداد كبيرة ناهزت المليون عاملا.

أمّا الذين تشنجوا في موقفهم فلقد شكلوا مجموعة مختلطة ودافعوا عن يسارية متطرفة ولكن لفظيا. انزعجوا كثيرا من تروتسكي – المكلف بتقديم التقرير – عندما أظهر، بالاستناد إلى المقالات التي كتبوها في باريس ولم تكن لديهم الشجاعة لجلبها معهم إلى موسكو، أن التصلب اليساري ليس إلاّ رغبة الانشقاق – إرادية كانت أم لا – عن الحركة العمالية وتفسيرا مخطئا للتكتيك المطروح وعداء واضحا للأممية الشيوعية.

أبدى الإيطاليون مساعدة للفرنسيين لم يكونوا يأملون في الحصول عليها. كان موقف الإيطاليين، كما رأينا، مختلفا. لم يتذمروا أبدا من «ديكتاتورية موسكو». كان توغلياتي – المدعو حينذاك باركولي – يترأس البعثة، وكان قدر كاف من الثقافة بحيث استطاع مجابهة الانتقادات التي انهالت عليه من كل جانب. تصدى لوناتشارسكي لتوغلياتي، وكان الأول يتقن الإيطالية وبوسعه التحدث مع الإيطاليين بسهولة، فما كان من توغلياتي، أخيرا، إلاّ أن وقع على تصريح مشترك مع الفرنسيين.

يمكن الاستنتاج من القرار الذي اتخذته اللجنة أن النقاشات أظهرت أن تكتيك الجبهة الموحدة لا يعني مطلقا إضعافا لمقاومة الإصلاح إنما يتمم التكتيك المتخذ في المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية ويطوره ويعطي ممارسة دقيقة لشعار «التوجه إلى الجماهير»، وكان مكتب اللجنة مكلفا، تؤازره البعثات الأخرى، بإيقاف «الإجراءات العملية التي يجب اتخاذها في كل بلد وبدون تحديد مهلة لها، هذه الإجراءات التي تساعد على ممارسة التكتيك الذي يجب تكييفه حسب الوضع في بلد».

أعلنت الأقلية، بعد انضمام الاسبان إلى الفرنسيين والإيطاليين (لا يمكن للإسبان الادعاء، كما فعل الفرنسيون، أنهم لا يواجهون إلاّ حزبا اشتراكيا ونقابات صورية)، أعلنت بعد اظطرارها للرضوخ للأكثرية «يمكنكم أن تتأكدوا، في هذه المناسبة كما في كل مناسبة أخرى، إننا سوف نبقى منضبطين وأمناء لقرارات الأممية التالية».

لم تتوقف اللجنة التنفيذية عند حد نقاش مسالة التكتيك فقط إذ أن جدول أعمالها ينص على قضايا أخرى من بينها مسألة داخلية في الحزب الشيوعي الروسي. لقد تم الإفصاح عن رسالة «المعارضة العمالية» الموقعة من 22 عضوا. لقد ورد في هذه الرسالة أنهم إذا قرروا التوجه إلى اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية بالتحديد فذلك لأن مسألة الجبهة الموحدة ستناقش

فيها، وأضافوا: «إننا، كمناصرين للجبهة الموحدة كما فسرتها أطروحات الأممية الشيوعية، نطرح أمامكم برغبة صادقة مسألة وضع حد للعراقيل الموضوعة أمام وحدة هذه الجبهة داخل الحزب الشيوعي الروســـــي... ان القوى البيروقراطية في الحزب المتحالفة مع النقابات تسرف في سلطتها وتتجاهل قرارات مؤتمرات مؤتمرنا الداعية إلى تطبيق مبادئ الديموقراطية العمالية. لقد تم منع بعض مناصرينا، في النقابات وحتى داخل المؤتمرات، من حقهم في التعبير عن إرادتهم في انتخابات اللجنة المركزية... تؤدي مثل هذه الطرق إلى الاحتراف والعبوديـــــة».

بعثت هذه الرسالة إلى لجنة من بين أعضائها كلارا زتكين وكاشين وتيراسيني. ونص القرار المتخذ بالإجماع حول هذه الرسالة: «لا يمكن الموافقة على اعتراضات المقدمة من الرفاق، فالمخاطر التي يلحظوها لم تكن مطلقا مهملة من قبل قيادة الحزب الشيوعي الروسي، والطريقة الفضلى لمحاربتها تكمن في التحرك داخل الحزب كمناضلين منضبطين». وكان كاشين هو المكلـف بوضع التقرير أمام اللجنة. لم يكن هذا الخيار موفقا إذ أنه لا يمكن لأحد غيره أن أن يملك المواصفات لتقريع قدامى الثوريين الروسيين وإعطاء النصائح لهم. لقد كان مشهورا، منذ بدء الحـــــرب العالمية الأولى، لعلاقته بموسوليني وشوفينيته وانتقاداته للبلشفية وإمكانيته الخارقة في السير مع التيار. لقد رأى شيابنيكوف، الذي عاش وناضل في فرنسا، في هذا الاختيار تحقيرا جديدا. لقد قال لي بحدة عند تركه اللجنة «لا يمكنكم أن تجدوا، أحســـن من هذه، الرداءة لإدانتنا».

ضاعفت الحرب الإمبريالية التي استمرت ثلاث سنوات والحرب الأهلية التي استمرت ثلاث سنوات أخـــــرى، ضاعفت المشاكل المتراكمة. كانت روسيا السوفياتية تصل بالجهد إلى بناء البلاد المهدمة وتجميع الموارد لتنظيم اقتصاد السلام عندما تنقض عليها كارثة جديدة. لقد أفسدت موجة من الجفاف الإنتاج بأكمله إذ أمتدت من أوائل الربيع واستمرت خلال فصل الصيف كلـــه. لقد أحرقت الشمس كل المزروعات. لقد كان هذا كارثة بعد ست سنوات من عملية الهدم وامتدت المجاعة إلى مقاطعات بأكملها. ولم يكن الجفاف شيئا جديدا في روسيا، لقد اجتاحها عدة مرات خلال النظام القيصري وكانت المرة الأخيرة سنة 1891. وبالرغم من ذلك لم يمتنع أعداء السوفيات من جعل البلاشفة مسؤولين عن هذه الكارثة وهذا ما أعطاهم مبررا جديدا ليصموا آذانهم عن النداءات التي أطلقتها الجمهورية السوفياتية في كل العالم مستنجدة بكل الذين ما زالوا يتمسكون بمعنى التضامن الانساني. لقد وجد الذين اعتمدوا على التدخل المسلح لإسقاط النظام في هذه المجاعة حليفا متأخرا يمكن أن يثأر لهم. حتى الذين لم يعميهم الحقد كانوا ينتظرون بفارغ الصبر اللحظة التي يضطر فيها السوفيات للرضوخ لشروط الغرب، وكان يتم الحديث عن «روسيا المحتضرة». وهذا ما فعلته «أوروبا الجديدة» عندما نشرت مقالا كبيرا تحت عنوان «الغرب في مواجهة روسيا المحتضرة» حيث أكد الكاتب على رغبة الغرب في قهر الويلات، وتابع متحدثا عن وجوب وضع تخطيط إجمالي. يذهب الغرب إلى روسيا، كما يذهب المستكشف إلى أقصى المستعمرات، مع مواد طرق الحديد وتجهيزات صحية. وعندها فقط يصبح عمله مستمرا. يجب أن تفرض الضمانات بكل تأكيد».

وهذا يعني بكل وضوح استعمار روسيـــا. لكن هؤلاء كانوا على عجلة من أمرهم. لقد تن اغتيال روسيا بكل وحشية، ولكنهـــا لم تصل إلى مرحلة الاحتضار. لقد مرت روسيا بتجارب جد قاسية، ولكن هذه الأخيرة كانت أكثر إيلاما إذ أنها فجعت بأفلاذ أكبادها.

2- الأزمـــة الاقتصاديـــة العالميـــة. لويد جـــورج يقترح مؤتمر «كان»

كان لروسيا السوفياتية مشاكلها الداخلية. وكان من الطبيعـــي أن تنشأ الأممية الشيوعية وتبنى مع بعض المشاكل. لكن خلال السنوات الأولى من السلام، لم تجد القوى الكبرى في العالم أمامها طريقا واحدا فبعد فترة قصيرة من التقدم المصطنع نشأت أزمة اقتصادية حادة بهذا القدر أو ذاك حسب البلدان. لقد وفرت أوروبا الجديدة كما خرجت بعد المعاهدات لفرنسا الإمكانية لتصبح القوة الكبرى في القارة. كما سمح لها امتلاكها مناجم الحديد في اللوريـــن أن تفرض شروطها على ألمانيا لتحصل على الفحم الضروري من الروهر، ضمنت المعاهدة الصغيرة بين تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا ورومانيا وبولونيا أمانها في أوروبا الوسطى.

لكن البرجوازية الفرنسية لم تكن بحجم يسمح لها أن تقـــوم بدور كهذا، أمّا بسبب خسارتها في الحرب – مليون ونصف من القتلى – وضعفها، أمّا بسبب عدم تملكها القدرة والنشاط من أجل إدارة المشاريع الضخمة. لقد كانت تحتقر المخططات الواسعة لتتقوقع في فكرة الثأر من ألمانيا. لم يكن بإمكان وطنييها المحترفين التفكير بغير عبارات المطالب الاقليمية: الألزاس واللورين وإقليم السار الضفة اليسرى من نهر الرين حيث حاولوا عبثا إقامة «كسيلينغ»[8]. وكان همهم الأول «على ألمانيا أن تدفع الثمن».

تبدو بعض التصريحات، التي أعطتها شخصيات مختلفة إلى روبير دوجوفونيل، مفيدة، صرح راتونو: «لا يريد الفرنسيـون نظاما كهذا (الاشتراك مع ألمانيا في مشاريع كبيرة مشتركة). إنهم حانوتيون يعيشون في خوف تحقيق مشروع كبير حيث يبدو أن أصحاب المشروع يكسبون المال» (سياسة اليوم ص 219). وصرح بارتيس رئيس رابطة الوطنيين: «لقد أرادوا الضغط على تطور صناعتنا وتوجيه أمثل شيء من نشاطنا نحو التوسع الاقتصادي وهكذا نخطأ سعادتنا» (ص 68). وصرح تارديو «إن هذه المسائل هي قبل كل شيء أخلاقية». (ص 82).

لقد أفشلت هذه السياسة المؤتمرات المتكررة التي حاول الحلفاء خلال حل المشاكل لما بعد الحرب، ووجدت فرنسا نفسهـــا معزولة ومتعارضة مع أميركا التي أخذت تذكرها بديونها، مع إنكلترا القلقة لنشوء تبادلات تجارية ضخمة ضرورية لاقتصادها، ومع إيطاليا التي تزاحمها على سوريا التي أوكل الحلفاء شأنها لإنكلترا، في أيار 1915، كثمن لدخولها الحرب إلى جانبهم.

لقد عيل صبر إنكلترا المهددة بجيش كبير من العاطلين عن العمل، فدعت إلى عقد مؤتمر تدعي إليه كل الأمم لدراسة مسألة إعادة بناء الاقتصاد الأوروبي. تم اجتماع تحضيري في «كان». وقع حادث مفاجئ في نهايته: لقد طلب من بريان – كان رئيسا للمجلس حينذاك – العودة إلى باريس وأرغم على الاستقالة. وكان ميلليران وبوانكريه قد أعدا، في غيابه، مؤامرة ضده. وعاد بوانكريه إلى السلطة وأخذ حقيبة الخارجية وجعل بارتو نائب رئيس للمجلـــس. كان بريان قد حقق عملا يتطلب القوة خلال حكمه مع الجبهة الوطنية. أراد بوانكريه أن يتم وضع شروط للقبول بروسيا كعضو في المؤتمر. وهنا أيضا وضع في الدرجة الأولى مسألة المال: يجب على روسيا أن تدفع مثل ألمانيا، أن تدفع الديون عن النظام القديم، أن تدفع ديون الحرب، أن تدفع المبالغ التي صرفتها فرنسا عندما دعمت المشاريع المضادة للثورة ودعم جنرالاتها البائسين. وهذا ما دفع صحيفة «الديلي نيوز» الليبرالية الانكليزية أن تسال بونكريـــــه عن استعداده للطلب من الانكليز والأميركان الضمانات عينها التي يفرضها على روسيا السوفياتية. في نهاية مؤتمر «كان» دعيت روسيا السوفياتية رسميا للاشتراك في المؤتمر العالمي الذي سوف يعقد في شهر آذار في «جين» أشار راديك إلى مغزى هـــذا التغيير، في سياسة القوى الكبرى حيال روسيا، وأهميته: لقد اضطرت الحكومات البرجوازية لتقبل روسيا السوفياتية وللتعامل معها بعد أن عجزت عن قهرها بالسلاح». وهذا ما اضطـــرت صحيفة «الوقت» إلى الاعتراف به عندما كتبت هذه الجملة الحزينة: «بالرغم من جرائمه، يدافع النظام عن استقلال الأمة ويتحـــــــدث باسم الشعب الروسي».

كان من الممكن، بعد الحرب، في أوائل سنة 1919 أن يعقد مؤتمر عام يشترك فيه البلاشفة لو انتصرت أفكار الرئيس ويلسون. لقد لاقت اقتراحاته معارضة من بيشون، وزير خارجية كليمانصو، الذي كان يحاول التدخل عسكريا لقلب البلاشفة بدلا من أن يعقد مؤتمرا معهم. حاول ويلسون أن يفهم منافسيه أنه لا يمكن قهر البلاشفة بقوة السلاح. ولقد وجد آذانا صاغية عند لويد جـــورج الذي كان يخشى تحركا ثوريا في إنكلترا، أعلن هذا الأخير، لينقذ المظاهر، أنه يجب ألاّ يوضع البلاشفة على قدم المساواة مع أعضاء المؤتمر الآخرين، ولكن يجب دعوتهم «وفقا لتقاليد الدعوات التي كانت توجهها الإمبراطورية الرومانية لرؤساء الدول المجاورة والخاضعين لها». كان يجب أن يعقد المؤتمر في بريكيبو، إحدى جزر بحر مرمرة. ولكنه لم

[8] سياسي نرويجي، أعدم في أوسلو سنة 1945. كان رئيسا لحكومة موالية لألمانيا منذ سنة 1940. المترجم

يعقد، لأن من يسمون بحكام روسيا غير البلاشفة رفضوا اللقاء بهم، وكان يعوز كليمنصو الوقت حتى يتم التخلي عن فكرة المؤتمر بحد ذاتها.

3- مندوبو الأمميات الثلاث في برلين

هكذا دفعت صعوبات الوضع الداخلي الدول الكبرى لمحاولة إيجاد مخرج لمشكلة إعادة بناء الاقتصاد الأوروبي وحتى العالمي. ولكن ألا يمكن للمنظمات العمالية أن تقول شيئا، أتترك، مـــرة أخرى، ممثلي القوى الرأسمالية يتحركون بمفردهم؟ في نهاية مؤتمراتهم لم يتوصلوا إلاّ لزعزعة الاقتصاد الأوروبي، وسوف لا يحاولون إعادة بنائه على حساب الطبقة العاملة عندما يدركون فشلهم؟ أخذ الاتحاد العالمي للأحزاب الاشتراكية، المدعو الأممية الثانية والنصف لأنه يقع بين الثانية والثالثة، أخذ مبادرة الدعوة لمؤتمر يجمع ممثلي الأمميات الثلاثة يعقد في الوقت نفسه الذي يتابع فيه مؤتمر الدول الكبرى أعماله (لقد اقترح هذه الفكرة دانـوا ستينينغ) ويضع برنامج عمل خاص من أجل إعادة بناء أوروبا.

عقد « الاتحاد العالمي للأحزاب الاشتراكية» مؤتمره الأول في فيينا من 22 إلى 27 شباط بعد عدة اجتماعات في برنـــــاد وانسبرغ. يستند برنامجه على «نضال الطبقات الثورية»، ويدعو إلى ضرورة الدفاع عن روسيا السوفياتية والالتزام بعمل عام ضد التجاوزات الإمبريالية للوفاق «لا يمكن للبروليتاريا العالمية الوصول إلى هذا الهدف إلاّ إذا ما اتحدت على قاعدة المبادئ الاشتراكية الثورية وإرادة لا تتزعزع في مواصلة النضال، وجمعت قواها كلها في تنظيم عالمي قوي».

لا يمكن أن تكون الأممية الثالثة هذه المنظمة «لأنها تدعي إخضاع الأحزاب كلها للجنة قوية واحدة»، وكذلك أيضـا «ما يسمـــى بالأممية الثانية» لأنها «عاجزة عن جمع قوى البروليتاريا الحية»، ولأنها «منذ الآن وصاعدا تشكل عثرة في طريق الوحدة الاشتراكية العالمية».

كان الاتحاد يشتمل، عند تأسيسه، على الأحزاب الاشتراكية-الديموقراطية في كل من النمسا ويوغسلافيا وليتوانيا وروسيا (المنشفية)، وعلى المستقلين في ألمانيا، وعلى الأحزاب الاشتراكية في كل من فرنسا والولايات المتحدة، وعلى حزب العمل المستقل في بريطانيا العظمى والحزب الاشتراكي الألماني في تشيكوسلوفاكيا وعلى قسم من الحزب الاشتراكي السويسري والمنظمة الاشتراكية اليهودية «بولي-زيون». كان الاتحاد يؤكد، على عدم كونـــــه أممية، ولكنه «اتحاد سيصبح وسيلة لتشكيل أممية».

كانت الأحزاب الاشتراكية التي ضمها هذا الاتحاد هي تلك الأحزاب التي رفضت الانضمام إلى الأممية الثانية، وكانت تأمل في عدم الذهاب إلى موسكو ولكنها ترفض في الوقت نفسه اللقاء مع أحزاب نوسك وشيدمان وفاندرفلت وهندرسون. كانوا يوجهـون إليهم الانتقادات بحدة. وبالرغم من ذلك كانوا يتحالفون معهم، في نهاية الأمر، عندما تطرح مسألة قرار مهم. كانوا يتكلمون كثيرا ويعملون قليلا: هذه هي المأساة الشخصية للزعيم المنتفي ليون مارتوف. قررت اللجنة التنفيذية الموسعة، عندما أخذت علمـا بمبادرة أممية فيينا، إرسال بعثة إلى الاجتماع المقترح. وأضافـــت أنها تقترح، من جهتها، بإشراك كل الإتحادات ونقابات الوسط، الوطنية منها والعالمية في هذا المؤتمر: اتحاد النقابات العالمي في أمستردام، اتحاد النقابات العالمية الحمراء، الاتحاد العام للعمل، الاتحاد النقابي الإيطالي، الاتحاد الأميركي للعمل، المنظمات شبه النقابية ولجان المعامل. واقترحت أيضا أن يضاف إلى جـدول الأعمال «التحضير للنضال ضد الحروب الإمبريالية في المستقبل وإعادة بناء المقاطعات المتهدمة وإعادة النظر في معاهدات فرساي الامبريالية. ويجب تطبيق تكتيك الجبهة الموحدة في هذا المجال». وانتهت اللجنة التنفيذية إلى القول بأن إمبرياليي العالم بأسره قد انتقلوا إلى هجوم منظم ضد الطبقة العاملة في الوقت الذي «انخفضت فيه الأجور وتمت زيادة ساعات العمل اليومية وتعاظم فيه بؤس العاطلين عن العمل».

لقد تمت الدعوة إلى المؤتمر في الثاني من نيسان في برلين بعد أن وافقت الأممية الثانية على اقتراح اتحاد فيينا.

كان راديك وبوخارين على رأس بعثة الأممية الشيوعيـة ومثل فويوفيتش الأممية الشيوعية للشباب، وكلارا زتكن عن الحزب الشيوعي الألماني، ومثل بورديغا الحزب الشيوعي الإيطالي وفروسار الحزب الشيوعي الفرنسي، وأتى سميرال ممثلا الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي ومثلت أنا بدوري النقابات العالمية الحمراء.

وضع القسم البرلماني في الحزب الاشتراكي-الديموقراطي الألماني تحت تصرفنا القاعة الكبرى للريشتاغ. جلس المندوبون حول الطاولة بشكل حرف T. جلس فرتز ادلر الذي كان يترأس الاجتماع مع مندوبي اتحاد فيينا وأحاط به من الجانب الأول مندوبو الأممية الثانية ومن الجانب الثاني مندوبو الأممية الثالثة. القى فريتز آدلر الخطاب الافتتاحي المتفائل ثم تبعته كلارا زتكن وأعلنت ما كان يجب أن تعلنه في فتح باب النقاش في المؤتمر، لقد كان نقدا للقرار الذي اتخذته اللجنة التنفيذية.

كان للأممية الثانية جيوشها أيضا: الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني، حزب العمل، حزب العمل البلجيكي، وكان من زعمائها فندرفلت، دوبروكار، هيزمن (الأمين العام للأممية قبل 1914) وتكلم رامزي ماك دونالد أولا باسمه الشخصي. كانت لهجة الخطاب معتدلة، وبدون أن تكون مشجعة لأنه أراد أن يضع شروطا لحضور الأممية الشيوعية ولمتابعة أعمالها. لقد قال يجب على الأممية الشيوعية أن تقلع عن النقد الذي توجهه لزعماء أحزاب الأممية الثانية، وأن تتخلى عن ممارسة عملية إنشاء نوايا لها، ويجب أخيرا أن يطلق سراح الاشتراكيين المعتقلين في روسيا. وبعد ذلك تبعه ويلز، الذي أراد أن يظهر بمظهر قائد الحركة الاشتراكية-الديموقراطية الألمانية، وفندرفت اللذان تكلما بالاتجاه نفسه الذي تحدث فيه ماك دونالد، وعارض فندلفلت، علاوة على ذلك، إدخال إعادة النظر بمعاهدة فرساي في جدول الأعمال: «إننا نتعرض لخطر الوقوع في لعبة شين»[9].

أشار راديك إلى الميزة المستهجنة لمثل هذه الإدعاءات. لقد تجاوبنا مع دعوة فيينا، إننا لا نضع شروطا على أحد، إننا لا نهتم إلا بتنظيم الدفاع عن العمال ضد الهجمة الإمبريالية، ولكن «إذا أردتم أن يكون المؤتمر للنقاش والسجال فنحن مستعدون لذلك، ولكن يصبح هذا اللقاء بدون هدف».

لم تكن هذه النقاشات وفظاظاتها شيئا جديدا، فلقد الفتها أحزاب الأممية الثانية، في ألمانيا ضد برينشتاين وأتباعه التحريفيين. في فرنسا، خلال عملية دريفوس ومن بعدها عند دخول ميللران الوزارة إذا كال أتباع «كاسد» الشتائم لخصومهم، ففي المؤتمر الذي عقد عشية الحرب العالمية الأولى، اتهم كاسد جوريس «بالخيانة العظمى للإشتراكية» لنه وافق مع كيرهاردي – فايان على إعلان الإضراب العام استنكارا للحرب. أمّا بالنسبة للتنويه، فلقد مارسها الاصلاحيون بدون تردد عندما رأوا ضرورة لذلك وللدفاع عن سياستهم، وفعلوا ذلك من دون أن يصرحوا به.

عندما رفع الرئيس الجلسة استطعنا أن نرى سيراتي يتحدث بحيوية مع أوتوباور. لقد كان سيراتي منزعجا في الحزب الاشتراكي الإيطالي وقد تم قص جناحه اليساري. كان ينظر دائما إلى موسكو، لقد قيل عن تجمعه الصغير أنه الأممية الثانية وثلاثة أرباع. سمعنا باور يقول لسيراتي وبصوت عال، عندما هما بالافتراق: «إنني لست موافقا معك» وقالها بلهجة لا تقبل الرد. خلال الترجمة غامر أحد الشيوخ بالتقدم إلى ناحيتنا. إنه كاوتسكي. لقد اندهش الذين لم يكونوا قد شاهدوه سابقا، لم يكونوا يتمثلون «زعيم» نيوزايت لفترة ما قبل 1914والمدافع عن الأرثوذكسية، لم يكونوا يتمثلونه هكذا.

كتب راديك وحده الجواب النهائي لبعثتنا على المقترحات التي عرضت في المؤتمر. كان الاتفاق، كما يبدو، يسيطر على بعثتنا، لقد جمعنا راديك ليقرأ علينا نص الجواب قبل ارساله إلى فريتز ادلر. فوجئنا، عند القراءة، أننا نلتزم بمسالة تفوق قدرتنا. كنا أحرارا في القرار حول الشطرين الأولين (نقد الأممية الثانية، التخلي عن سياسة التنوية) كممثلين للجنة التنفيذية في الأممية الشيوعية، ولكن بالنسبة للشرط الثالث المتعلق بمسألة السجناء الاشتراكيين فإن الحكومة السوفياتية وحدها هي التي تملك حق التقرير في مصيرهم. وهذا ما أشار إليه بوخارين، ولقد دعمت أنا شخصيا بوخارين في هذه الملاحظات، لكن راديك خاطب بوخارين بكل قساوة وقال له، بعد أن قذف بالملف على الطاولة: تكلف أنت بالجواب بما أنك تنتقد ما قمت أنا به».

كما كان من السهل التوقع، عاتبنا لينين عند عودتنا إلى موسكو. ولقد قيم المؤتمر ونتائجه بمقاله تحت عنوان «لقد دفعنا الثمن غاليا». «ماذا يمكن أن نستنتج؟ في بادئ الأمر يمكننا أن نستنتج أن الرفاق راديك وبوخارين وسائر أعضاء البعثة قد أخطأوا. أيعني ذلك أنه يجب علينا تمزيق الاتفاق الذي وقعوه؟ كلا، لأن ذلك هو نتيجة خاطئة. يمكننا أن نستخلص أن الديبلوماسيين البرجوازيين كانوا، هذه المرة، أكثر مهارة من دبلوماسيينا. لم يكن خطأ راديك وبوخارين والآخرين كبيرا، إنه خطأ صغير بالقدر الذي نستطيع فيه منع أعداء روسيا السوفياتية من تنظيم مؤامراتهم بنجاح. إنهم يعرفون مسبقا، منذ الآن فصاعدا أنهم يستطيعون التصويب على الشيوعيين مع إمكانية لجوء هؤلاء إلى مؤامرات، كمؤتمر برلين، تمنعهم من إعادة التصويب على الامبرياليين».

لقد توصل القرار إلى إمكانية تأسيس مفوضية من تسعة أعضاء – ثلاثة عن كل أممية – تتابع أعمال مؤتمر «جان» وتدعو إلى مؤتمر عمالي عالمي. لم يوقع مندوبو الأممية الثانية على هذا القرار إلا شكليا، كانوا لا يريدون بأي ثمن مثل

[9] - شين: صناعي ألماني (1870-1923) أحد أبطال الحزب القومي في ألمانيا في سنة 1920. كان من ألد أعداء معاهدة فرساي وسبب بمشاريعه تخفيض قيمة المارك سنة 1923.

هذا المؤتمر، لقد حددوا خيارهم نهائيا: إنهم يريدون التعامل مع البرجوازية. كانوا يناورون لمنع المفوضية من الاجتماع، وبالفعل لقد انتهت هذه المفوضية من دون أن تعيش حقيقة».

4 - جان[10] ورابلو[11]

ارتدى المؤتمر العالمي في «جان»، لمجرد انعقاده، طابعـا هاما إذ إنها المرة الأولى، بعد الحرب، يمكن فيها لممثلي الأمم جميعا الجلوس حول طاولة واحدة، وانتهى فيها التصفيف بين حلفاء وأعداء. لكن هذا لا يعني أنه سوف يجد الجميع أنفسهم على أرضية واحـدة من التفاهم أو أنهم سوف يحققون الحد الأدنى من الوفاق. لقـد أشارت العملية السياسية الصغيرة التي كانت سببا في إنهاء الاجتماع التحضيري في «كان»، إشارة إلى أن فرنسا تعتزم التصلب في مواقفها، وهذا ما أظهرها، أمام العام، تلعب دور شيلوك[12] غير المستحب. أظهر بريان تفهما للأحداث وللأوضاع الأوروبية، ويعود ذلك ربما لتربيته الاشتراكية الثورية، وهذا ما كان يفتقده معظـم القادة السياسيين الفرنسيين. لقد اقترح بريان أن تدريس الخطـوات التي تؤدي إلى السلام مع النمسا وألمانيا بشكل ملائم، ووضع، فيما بعد، مشروع اتحاد أوروبي اصطدم بالعراقيل التي وضعها الوطنيون المحدودون والذين أثارت فيهم الحرب النعرات الوطنيـــة. إذن كان لبوانكاريه الأسباب الكافية التي تجعله يحذر من بريان. وأرسل بـارتو إلـى «جـان» ليتأكد مـن ضـبط الموقـف. وكـان بارتـــو هذا قد نـشأ فـي جـو سياسـي نفسه الـذي نـشأ فيـه بوانكاريـــــــــه، وكان عديم الفهم في الاقتصاد مثله، ومتعصبا ضد الألمان، ويكن الحقد عينه لروسيا السوفياتية.

ظهر منذ البدء لمختلف المشاركين في المؤتمر أنهم أمام فرنسا الدولة التي تشكل حجر عثرة أمام أي فهم صحيح للاقتصاد الأوروبي. بالنسبة لبريطانيا، كانت، أكثر من أي وقت مضـى، بحاجة ماسة إلى إعادة التبادل التجاري. لقد خرجت من الحرب، وهي أيضا، منهكة، وكانت ثمار النصر مرة جدا، واستطاعـــت مع الحلفاء أن تنزل الهزيمة بعدوتها القارية، ولكنها الآن أمـــام أميركا التي تنافسها على دور الحكم الذي ترغب فيه، والذي طالما مارسته في أوروبا. ولكنها أظهرت تفهما للحقيقة وكان سياسيوها أكثر استعدادا للتكيف مع الظروف والأوضاع المتغيرة. أمّا بالنسبة لايطاليا فإنها كانت تدعم مساعي الوفاق نظرا لعدم تمكنها من إيجاد فرص العمل لقسم كبير من الأيدي العاملة عندها. لكن لا شـــيء ينفع أمام التصلب الفرنسي. لقد فرضت فرنسا على روسيـــا شروطا تعسفية تضارع تلك التي تم فرضها على ألمانيا في معاهدة فرساي. لقد كانت فرنسا تعتقد أن روسيا منهكة لدرجة أنها سوف تضطر معها للقبول بمثل هذه الشروط. لكن النتيجة كانت مغايـرة لهذه التوقعات: توصلت روسيا السوفياتية وألمانيا إلى عقد اتفاقية رابللـــو.

غضب الشوفينيون الفرنسيون إذ أن هزيمتهم كانت نكراء، وكذلك أيضا اغتاظ ممثلو الأمم الأخرى من الموقف العنيد والأحمق الذي أخذته فرنسا ومنع التوصل إلى حد أدنى من الاتفاق. ذكر راديـــــــــك، بعدهـــا مارتـــو (الـــــذي وضع كتابـــا عن ميرابـــو) بطريقـــــة لا تخلـــو من الخبث بعبـــــارة لخطيب الجمعية التأسيسية «: لا تلـــــزم المعاهـــــدات التي يوقعها الطغاة سيادة الشعب».

شجبت أميركا تصرفات نيلسون، لم تكن تريد الدخـول في عصبة الأمم، ولكنها كانت تتابع عن كثب القضايا الأوروبية، وسياســة دول أوروبا. كانت تتابع باهتمام أكثر الأحداث المتعلقة بالدول المدينة لها، ولم تلبث أن أظهرت استياءها من فرنسا. طلب الشيخ الأميركي ماك كوميك، في أوائل كانون الثاني سنة 1922، «طلب من وزير الخارجية أن يبلغ مجلس الشيوخ عن مصاريف الدول الأوروبية التي هي مدينة بالمال لأميركا وعن أسباب عجزها الدائم، وخصوصا الأموال التي ترصدها هذه الدول للتسلـــح، وما هي الفائدة السنوية التي يجب أن تدفعها كل من الدول المدينـــــة إلى الولايات المتحدة». وأضاف: «إذا كانت السياسة الفرنسيـــــة قد عزلت فرنسا عن حلفائها الأوروبيين خلال الأربعة عشر شهرا الماضية، فإن هذه السياسة ذاتها قد أدهشت الشعب الأميركـــي خلال الأسابيع الماضية».

لقد كان الشيوعيون يأملون أن مؤتمر «جان» سوف يساعـد على تشكيل جبهة عمالية موحدة، ويستطيع أن يحـــــرك المنظمات العمالية والاشتراكية التي تدعم المندوبين السوفيات في هذا المؤتمر، وذلك بطرح الأسس الصلبة لإعادة بناء الاقتصاد الأوروبي، لكن شيئا من هذا لم يتحقق لقد تابعت الطبقة العاملة المؤتمر كمشاهدة فقط. في فرنسا، صعد الشيوعيون، أعداء الجبهة الموحدة، حملتهم ضد الأممية الشيوعية، واستغلوا صفاء كـلارا زتكين لتوريطها بجماعتهم. كل ذلك بعد أن التزموا بمقررات اللجنة التنفيذية. احتجت كلارا زتكـن، المناضلة القديمة على هذه التصرفات، لكن رسالتها التي نشرت في «الإنسانية» كانت مناسبة لتجديد الهجوم ضد الأممية الشيوعية.

---

[10]- وتدعى أيضا جنو وهي مرفأ إيطالي مهم تقع في جنوب غربي إيطاليا على البحر الأبيض المتوسط. وهي مدينة جميلة ولها صناعة مزدهرة: حديد وصناعات بحرية وتكرير النفط وصناعة الأقمشة. (المترجم)

[11] - مرفئ إيطالي صغير وهي محطة حمامات تقع شرقي «جان» (المترجم)

[12] - مرابي شهير في مسرحية شكسبير «تاجر البندقية» (المترجم)

عقدت الأممية النقابية الهولندية، في الوقت نفسه، اجتماعـــــا في روما، اكتفت خلالـه بالتظـاهر اللفظـي وأقرت توصـية تدعو إلى الإضراب العام ضد الحرب.

5- محاكمة الاشتراكيين-الثوريين

لقد تم البدء في محاكمة الاشتراكيين الثوريين في 23 أيار في موسكو. أبلغت كلارا زتكن فريتز ادلر موعد الافتتاح في 8 أيار باسم بعثة الأممية الشيوعية، بالعبارات التالية:

«أبلغكم باسم بعثتنا ما يلي:
1- لقد تم قبول هيئة الدفاع التي ذكرتموها في رسالتكـــــم في محاكمة الثوريين الاشتراكيين، وكذلك أيضا، ثم قبول الاشتراكيين-الثوريين الثلاثة الذين أبلغتم عنهم. سوف تعمل الحكومة السوفياتية كل ما في وسعها لتسهل دخولهم إلى روسيا. يمكن للمسافرين أن يحصلوا على تأشيرات الدخول من سفارة روسيا في برلين، وتم تعيين المحاكمة في 23 أيار. إننا نناشدكم إبلاغ المعنيين بالأمر، بأسرع وقت ممكن، بهذا التاريخ.
2- ترجو بعثتنا منكم إبلاغ مندوبي الاشتراكية-الديموقراطية الألمانية إلى مفوضية التسعة ما يلي: لقد قيدت السلطات الألمانية حرية عمل بعثتنا في ألمانيا. منع وزير داخلية بروسيا الرفيق راديك من الكلام علانية في دوسلدورف بينما سمح لقائد رفلت الذي وقع معاهدة فرساي، وذهب وزير الخارجيـــة إلى ابعد من ذلك عندما منع الرفيق راديك من الذهاب إلى دوسلدورف.
3- صدرت مذكرة توقيف بحق فليكس وولـــف، أمين عام بعثتنا، بتهمة المشاركة في أحداث آذار سنة 1921، نحن ننتظر التدخل المباشر لمندوبي الاشتراكية الديموقراطية بكل القوة المطلوبة لوقف هذه الاجراءات. في حال الرفض، سوف تدرس بعثتنا إمكانية نقل اجتماعات المفوضية إلى موسكو حيث يتمتع ممثلو مختلف الاتجاهات بحرية تامة ومتساوية».

تأجلت الجلسة الأولى إلى 8 حزيران لإفساح المجال أمام هيئة الدفاع لتنظيم عملها. تألفت هذه الهيئة من فاندرفلت، وروزينفلد تيودور ليبكناخت، موته، واتر ومن بعض المحامين الروس كجدانوف ومورافييف وتاغر.

كانت التهمة واضحة. لقد سعى الاشتراكيون-الثوريـــون للتعامل مع الأميرال كولتشاك في الأورال عندما قرروا شن حـــرب لا هوادة فيها ضد النظام السوفياتي، تعاملوا أيضا نع دانيكين في الجنوب ودعموا كل التحركات المضادة للثورة، لقد طلبوا مساعدة السفارات وقبلوها، ورضخوا لإغراءاتها للقيام بأعمال تخريب مجرمة، وأعدوا عمليات اغتيال للقادة السوفيات وكانوا هم المسؤولين عن اغتيال أورتيسكي وفولودارسكي وأعدوا **محاولة اغتيال لينيـــن.** لقد كانت مختلف التهم إليهم مقرونة بالأدلـــــة بشكل لا يتمكنوا فيه حتى من التفكير برفضهـــا. بالرغم من ذلك كان دفاعهم مستميتا، وأثاروا مسائل تتعلق بالشكليات واعترضوا على التفاصيل الثانوية. وأعطوا تبريرا عاما لأعمالهم: كانـــت الحرب التي شنوها ضد النظام السوفياتي إجراء موجها ضـد البلاشفة لحلهم الجمعية التأسيسية، لقد ظهروا كأعداء سياسييـــن قرروا بشكل قاطع عدم إنكار أية من أفكارهم.

أجاب بياتاكوف – الذي كان يترأس المحكمة – على فاندرفلت الذي اعترض على حيادة المحكمة بما يلي: «لقد رفض الاشتراكيون دائما الادعاء بحيادية المحاكم، إن المحاكم، في البلدان البرجوازية، هي أجهزة بيد الطبقات المسيطرة لإنزال العقاب، أمّا في روسيـا فإنها تدافع عن مصالح الجماهير العمالية. إنها تدرس بموضوعية القضايا التي تطرح عليها».

لا يمكنني إعطاء الإنطباعات الشخصية حول هذه المحكمـــة التي كانت الأولى من نوعها. لقد كنت مضطرا للعودة إلى باريس قبل أن تبدأ. لقد دافع المتهمون عن أنفسهم بصلابة خلال النقاشات وكانوا يتمتعون بحرية تامة في عملهم هذا، وإذا كان من الممكن الاعتراض على آرائهم السياسية فلا يستطيع أحد أن ينكر شجاعتهم الشخصية وروح التضحية لديهم أو أن ينسى الماضي التاريخي لأحزابهم. لم تكن المسألة تتعلق بمسألة الحط من قدرهم أو إجبارهم على أن يحطوا من قدر أنفسهم، لقد كانوا أمام المحكمة يتمتعـون بكامل قواهم ويملكون كل الوسائل غير مجبرين على التراجع عن قناعاتهم. **وكان الذي يتزعمهم هو غوتز.**[13]

كان للشهادة التي أدلى بها بيار باسكـــــال تأثيرا كبيـــرا. لقد استطاع أن يشاهد عن كثب التحركات الخفية، بوصفه عضـــوا في البعثة العسكرية الفرنسية، التي قام به رؤساؤه من أجل الثورة المضادة، يقول: «لقد فكيت بنفسي رموز برقية

[13]- «لعب غوتز دورا مهما، وراء الكواليس خصوصا، في الاشتراكية-الثورية. لقد كان ارهابيا ينحدر في أسرة ثورية مشهورة، وهو أقل ادعاء وأكثر نشاطا من أصدقائه السياسيين المقربين منه، لكن بصفة «ممارس» كما كانوا يدعونه، فكان يهتم فقط بعمليات الطبخ ويترك للآخرين المسائل الكبرى. يجب أن نضيف أنه لم يكن لا كاتبا ولا خطيبا وكانت قوته تنبع فقط من سلطته الشخصية التي اكتسبها خلال سنوات السجن «تروتسكي، تاريخ الثورة الروسية ص 216-217».

كانت تتحدث عن مسألة الإرهاب، إنني اؤكد بشكل قاطع أن البعثة الفرنسيـــة قد شجعت محاولات الاغتيال في روسيا. عندما عدت إلى مبنى البعثة في اليوم التالي لمحاولة اغتيال لينين، أتى نحوي الجنرال لامبرن وقال لي وهو يحمل جريدة في يده «أسمعت ماذا يقولون عنا؟». لم أجاوبه بشيئ. فاستطرد قائلا: «لا أدري إذا كان لوكهـــارت[14] موجود في روسيا للقيام بشيء ما، ولكني أنا هنا لا أقوم بأي شيء». لكنني عندما رأيت الانفعال على وجه رئيسي شعرت بشكل واضح أن نفي هذه الاتهامات، الذي لا مبرر له بوجودي، يمكن تفسيره بعصبية المذنب. (مراسلات دولية، 23 حزيران 1922).

بصدد محاولة اغتيال لينين كتبت صحيفة الحزب الاشتراكي الثوري **التي تصدر في سامارا** حيث يتواجد معظم أعضاء اللجنة التنفيذية. كتبت مقالا بعنوان: «عقابا وليس ثأرا».

«أصيبت السلطة البلشفية – السوفياتية بضربة قاسية: لقد جرح لينين وأقصي الرئيس المشهور «للسوفناركوم» (مجلس مفوضيات الشعب) إلى حين أو إلى الأبد (اخترقت الرصاصة رئته).

«إنها ضربة موجهة لسلطة السوفيات، إن هذا النظام عاجز بدون لينين، إن هذا النظام هو جبان وأحمق بدون لينين

«من هم إذن الشخصين الذين أطلقا النار على زعيم دولة العمـــــــال والفلاحين؟.. هذا ما نجهله. لكن وبما أن العمل قد حصل بعد اجتماع عمالي يمكننا أن نفترض، كما فعل تولودارسكي أن العمال هم الذين عاقبوا لينين، في كل الأحوال إنها عملية في الأوساط الديموقراطية».

كتب تروتسكي مقالا، ثم نشره عشية المحاكمة، حيث أعطى لمحة تاريخية خاطفة عن الحزب الاشتراكي الثوري. كتب يقول:

«ها أن الحزب الاشتراكي-الثوري في روسيـــــا يثير الانتبـــاه العام من جديد، ولكن ليس كما فعل في ثورة شبـــاط. قد يحدث أحيانا أن يعيد التاريخ ذكرى حزب أو رجل بعد دفنه.

امتد الحزب الاشتراكي-الثوري سنة 1917 خـــــلال عدة أشهر أو عدة أسابيع في روسيا، لكنه اختفى بالسرعة ذاتها، تسمح لنا المحاكمة الحالية أن نلقي نظرة على قدر هذا الحزب المدهش.

أطلق **بليخانوف،** منذ السنوات الأولى من هذا القرن اسم «الاشتراكيين-الرجعيين» على الحزب الاشتراكي-الثـــوري. لكن هذا الحزب لعب دورا ثوريا في النضال ضد القيصرية وضد العبودية. كان يحرض الفلاح، ويدعو الشبيبة الطلابية إلى النشاط السياسي، ويجمع تحت رايته عددا كبيرا من العمال المرتبطيـــن ماديا أو أخلاقيا بالريف وينظرون إلى الثورة ليس من وجهة نظر بروليتارية، طبقية إنما من وجهة نظر غير محدودة عن «العمل». كانوا يسعون للقتال الشخصي ويقدمون حياتهم من اجل اغتيال أعوان القيصر. انتقدنا هذه الطريقة الإرهابية، لكن خلال المظاهرة كان يحدث أحيانا، حتى لأكثر العمال الماركسيين تفانيا، أن يقاوموا الشرطة والكوزاك جنبا إلى جنب مع عمال «نارودنيكي». التقى الطرفان فيما بعد في السجون أو في المنفى في مجاهل سيبريا. منذ ذلك الوقت انفصل الاشتراكيون-الثوريون في بتروغراد، الذين كانوا مستعدين أن يقدموا حياتهم للطبقة العاملة، انفصلوا عن المثقفيـــن من نمط أفكسانتييف وعن الفلاسفة من أبياع كانـــــط ونيتشه الذين لا يتميزون بشيء عن البرجوازية-الصغيرة الفرنسية الجذرية.

تضافرت الحرب والثورة لتفكك الحزب الاشتراكي-الثوري . وكان انهيار زعماء هذا الحزب سريعا لأن الأحداث الكبرى تفرض اعطاء أجوبة واضحة ومحددة».

انتهت عملية التفكك هذه بانشقاق خطير في الحزب: التحق الزعماء بكولتشاك ودينيكين، بينما توجهت جماهير العمال والتحقت بالمدافعين عن النظام السوفياتي.

في نهاية السجالات والنقاشات صدر الحكم بالإعدام على أربعة عشر متهما لكن اللجنة التنفيذية اتخذت قرارا بأن «لا يطبق هذا الحكم إلا إذا تابع حزبهم سياسته الإجرامية تجاه روسيا السوفياتية وتصعيد الحملات والتجسس ومحاولات الاغتيال وتسميم العقول».

[14] - عميل شخصي للويد جورج في روسيا. أنظر كتابه: «مذكرات عميل بريطاني».

6- الذكرى السنوية الخامسة لثورة تشرين –المؤتمر الرابع للأممية الشيوعية

تجب الدعوة إلى انعقاد المؤتمر الرابع في شهر تموز حسب القاعدة التي تتبعها الأممية الشيوعية – يعقد مؤتمر عن كل سنة- ولكن جرى تأخير هذا الموعد بضعة أشهر حتى يتناسب انعقاده مع الذكرى الخامسة لثورة أكتوبر. تم انعقاد هذا المؤتمر من 9 تشرين الثاني حتى 15 كانون الأول من سنة 1922. تم نقل المؤتمر، مرة جديدة، إلى بتروغراد حيث جرى إعلان النظـــام الجديد. كانت الجلسة الافتتاحيـــــة في 5 تشرين الثاني الساعة التاسعة والنصف مساء في «بيت الشعب».

استعرض زينوفييف أحداث السنوات الخمس الماضية. في 7 تشرين الثاني تم تنظيم الاجتماعات في كل أنحاء المدينة، وكان عددها يربو على المئتين. تم تعييني للذهاب إلى كرونشطاط مع لوسوفسكـــــي. ذهبنا أولا إلى نادي البحارة حيث رأينا بعض الأشياء المتنوعة التي تذكر بالتحالف الفرنسي – الروســـي - «لبحارة كرونشطاط» - ووجدنا هنا موضوعا جيدا لخطاباتنـــا: حلف بين الحكومات، البارحة، من أجل الحرب، وحلف اليـــوم، بين البروليتاريا من أجل تحرير العالم. لم تسمح لنا زيارتنا الخاطفة من التأكد من وجود بعض الأثر في القلوب لأحداث السنة الماضية المؤسفة إذا ما وجدت، يمكننا أن نستنتج فقط أنه خيـــــــم جو مؤثر على الاجتماعات.

عدنا إلى بتروغراد متأخرين عند المساء. لقد كان النهار متعبا وعند وصولنا إلى الفندق لم نفكر إلاّ بالراحة. واستطعنا التملص من الاحتفال الكبير الذي يجري في إحدى قاعات الفندق الكبير بمناسبة هذا العيد الوطني.

كان موضوع الاستقبالات والولائم موضوعا يطرح دائمـــا مشكلة جدية بالنسبة للشيوعيين الروس وخصوصا عندما يتعلق الأمر بوفود أجنبية. أيجب أن يعاملوا حسب نظام روسيـــــا السوفياتية أم تجب معاملتهم حسب الضيافة الروسية التقليديـــة؟ طرحت المسالة للمرة الأولى في ربيع سنة 1920 عندما أعلنـــت بعثة عمالية مهمة عن زيارتها لروسيا. لقد ناقشت اللجنة المركزية الموضوع لمعرفة إذا ما سوف تحوي وجبات الطعام على النبيذ. تمكنا في أحد المرات، من حضور احتفال تقليـــــــدي. كان ذلك بعد يوم متعب من اجتماعات اللجنة التنفيذية في الأممية حيث استقطب جدول أعمال هذه الجلسات عددا ضخما من الشيوعيين الروس. ابتدأت الجلسة منذ الصباح واختتمها زينوفييـــف بعد الظهر. انتقلنا بعد تعليق الجلسة إلى قاعـــة مجاورة حيث وجدنا أنواعا مدهشة من المقبلات تم وضعها على طاولات مغطاة بأغطية جميلة بيضاء. بعدها قدم لنا الغذاء الفخم. لقد كنا إلى طاولـة كولونتاي. وكنا رأيناها سابقا، ولكن، في ذلك اليوم، كانـــت المناسبة الأولى إجراء حديث جدي معها. سألناها عن «المعارضة العمالية» التي كانت على رأسها مع شليابنيكوف. لكننا لم نحصل على أجوبة شافية، فالحزب الشيوعي الروسي قد أدان المعارضة العمالية ووافقت الأممية على هذا القرار.. مرت الأحداث بسرعة وأصبحت هذه القضية جزءا من الماضي.

كانت قاعة القصر الكبرى، حيث عقد المؤتمر، مزدحمة بشكل استثنائي قبل افتتاح الجلسة في 13 تشرين الثاني. وكان جميع المندوبين في أماكنهم في حين جلس المستمعون في القسم المعد لهم. خصصت الجلسة السابقة لمناقشة تقرير زينوفييـــف. أمّا الآن فالكلام سيعطى للينين. وكان أصيب منذ أوائل أيار بمرض تصلب الشرايين الذي أشغله خلال السنة. صفع هذا المرض الجميـــــع في الحزب وفي الحكومة، لقد احتل لينين مركزا مهما لدرجة يصعب معها الاعتياد على فكرة متابعة الثورة من دونه. وكان الجميـــع يأملون أن تكوينه القوي وعناية الأطباء الاستثنائية سوف تتغلب على المرض، عندما وصلنا نبأ قدومه اعتقدنا أنه شفي من المرض.

لم يكن يحضر الجلسات كلها عادة بالرغم من تتبعه النقاشات عن كثب. كان يأتي ويذهب دائمـــــــا، بدون ضجـــة وأحيانـــا من دون أن يلاحظ أحد. أمّا في صباح ذلك اليوم فسوف يتكلم في البدء. كان المندوبون ينتظرونه وهم عرضة لانفعال عميق. عندما دخل إلى القاعة وقف الجميع لـه بحركة عفوية وأنشدوا نشيد «الأممية». عندما استقر على المنصة بدأ بإدلاء تقريره بالكلمات التالية: «أيها الرفاق، لقد تمت تسميتي على اللائحة كخطيـــب أساسي، لكنكم تفهمون أنني لست قديرا لإعطاء تقرير طويل بعد مرضي الطويـــل»... كان تعليق الذين شاهدوه للمرة الأولـــــى: إنه لينين كما كان دائما. أمّا بالنسبة للآخرين فإنهم لم ينخدعوا بالأوهام. كان أمامهم رجل قد أثر فيه الشلل بشكل ظاهر، بـــــدلا من لينين النشيط الذي يعرفونه. لقد تجمدت قسماته وأصبحـــت مشيته الإنسان الآلي. لقد تبدلت لهجته الخطابية المعتـــــادة البسيطة السريعة الواثقة من نفسها إلى أداء كتردد وصعـــــب، كانت أحيانا تخونه بعض الألفاظ فيساعده بشكل سيء الرفيق الذي انتدب لهذا الأمر مما دفع راديك إلى إبعاده وأخذ مكانه.

بيد أن تفكير لينين بقي ثابتا، عرض الأفكار الرئيسية ووسعها بمهارة. لقد كان مجبرا أن يقصر حديثه على مدخل إلى المسائل الأكثر أهمية، كما قال، وكانت المسالة الأكثر أهمية هي مسألة السياسة الاقتصادية الجديدة.

تم عيجاد هذه السياسة منذ 18 شهرا ويمكن الحكم عليهـــــا من نتائجها. إن ما قاله لينين هو أساسي ويطبع الرجل بطابـــــع مميز كما يطبع تقنيته وطريقة عمله. وهذه هي المرة الأخيرة التي تدخل فيها لينين بحياة الأممية الشيوعية، وبهذه الصفة يشكـــل خطابه وثيقة ذات قيمة استثنائية، سأقتصر هنا على إيـــــراد الأفكار التي طرحها. تبدو السياسة الاقتصادية الجديدة صحيحـــــة في كل مكان وتفرض نفسها على الجميع. إذن يجب التنبؤ بها والتحضير لها في كل مكان. ويمكننا القول، إذا ما تفحصنـــــا النتائج، أننا مررنا بالتجربة بنجاح. لقد تمكننا من أن نعطي الاستقرار للروبل – يلزمنا المال الآن لمبادلاتنا التجارية. ويدفع المزارعون الآن الضريبة – ولقد اختفت معظم الاحتجاجات المتولدة من استيائهم. في ميدان الصناعة الخفيفة، تتحسن ظروف العمال ويبدو أن الانطلاق عام. تبقى المشكلة الكبرى في الصناعة الثقيلة حيث ما زال الوضع صعبا. لكن يجب حل هذه المشكلة لأن تطور الصناعة الثقيلة ضروري لبناء مجتمعنا الاشتراكي. لم تلق الامتيازات التي أعطيناها للرأسمال الخاص، والتي جعلت كثيرا من الرفاق هنا وفي الخارج يأسفون، لم تلق أذنا صاغية بين الرأسماليين. فالرأسماليون يقتربون قليلا ومن ثم يبتعدون لأنهم لم يجدوا هنا ما يبحثون عنه: العلاج المباشر لمشاكلهم الحاضرة. هذا هو الوضع: «لقد ارتكبنا كثيرا من الحماقات، بدون شك، ولا أحد أدرى منـــي في هذا الموضوع»... وبعد أن أنتقد بعنف جهاز الدولة انتقـــــل لينتقد مطولا القرار الذي تم التصويت عليه في المؤتمر الثالث والمتعلق ببنية الأحزاب الشيوعية وطريقة عملها وتكتيكها، يقول عن هذا القرار: «إنه ممتاز، لكنه روسي بمجمله.... نحـــن ارتكبنـــــا خطأ كبيرا عندما صوتنا عليه». واستخلص في النهاية هذه العبارة المليئة بالمعاني: «لم نتوصل بعد إلى الصيغة التـــي يمكن بها تقديم خبرتنا الروسية إلى عمال البلدان الأخـــرى». إنه إنذار نهائي بقي حرفا ميتا. لم يصحح الرجال الذين أخذوا مكان لينيـــن هذا «الخطأ الكبير» إنما بالعكس لقد أخذوه منطلقا لهم وأعادوا ارتكابه مرارا وأعطوه أبعادا أوسع.

كان على تروتسكي أن يكمل التقرير الذي لم يستطع لينيـــن حسب تصريحه الافتتاحي، أن يكتب إلاّ مقدمته.

أعاد تروتسكي إلى الأذهان كيفية قيام ثورة أكتوبر والظروف التي اندلعت فيها، قال:

«لم يكن أحد ينظر إلينا بجدية، كان يعتقد أنه بمقاومة سلبية وببعض أعمال التخريب وبتدخل سريع من جانب الحلفاء يمكن قهرنا. وعندما أصبح جليا أن الأمور لا تسير على هذا المنوال تألبت كل قوى الثورة المضادة ضدنا. كان يتوجب علينا إذن أن نصادر أكثر مما كنا نريد وأكثر بكثير مما كان باستطاعتنا عمله. تسمح هذه الوقائع بصياغة القانون الأول: يمكننا أن نؤكد، بالنسبة للأحزاب الغربية والحركة العاملة بشكل عام، أن المهمة ستصبح أصعب بكثير قبل الثورة الحاسمة ولكنهـا أسهل بكثير بعدها. تنبع شيوعية الحرب عندنا من الحرب الأهلية نفسها. لقد كـــان من الضروري إعطاء الخبز للعمال وللجيش وانتزاع كل ما يحتاجه الجيش لمواصلة الحرب من صناعة أفسدتها البورجوازية وخربتها... لو استطاعت البروليتاريا في أوروبا الاستيلاء على السلطة سنة 1919 كانت مظطرة أن تأخذ على عاتقها بلدا متخلفا. لم تكن المواد البديلة التي كنا نسعى إليها مفيذة إلاّ من أجل تأمين حاجات صناعة الحرب.»

تركت شيوعية الحرب هذه مكانا لرأسمالية الدولة. لم يكن تروتسكـــي يستعمل هذا التعبير إلاّ مكرها لأنه يؤدي إلى الخلط، إلاّ أن لينين حدد بوضوح المعنى الذي أعطاه لهذا التعبير.

حلل تروتسكي تعقيدات النظام الجديد: «عندنا حوالي مليون عامل تقريبا. كم يعمل من بينهم في المنشآت المستأجرة؟ 80 ألفا ليس بين هذا الرقم إلاّ حوالي 40 أو 45 ألفا يعملون في مؤسسات خاصة، وتم تعيين عدد منهم في المؤسسات السوفياتية».

بالنسبة للامتيازات الكبرى التي وضعت لائحة بها والتي هي معدة للشركات الكبرى الأجنبية، لخص الوضع كما يلي: كثير من النقاش وقليل من الامتيازات.

.. ثم قال عندنا تعرض لمردودية الإنتاج ان فوائد الاشتراكية تجب أن تثبت نفسها بمردودية أعلى. «هذا برهان لا يمكننـــا أن نقوم به لأننا ما زلنا فقراء. لكن لم يمض على روسيا السوفياتية إلاّ خمس سنوات وإذا أردنا أن نقابل وضعنا مع وضع فرنســا، مثلا، في سنوات بدء «ثورتها الكبرى» نرى أن اللوحة التي نقدمهـا هي أقل تشاؤما. لنأخذ بعض معطيات المقارنة من المؤرخ الفرنسي «تان»: لم تكن باريس تحصل إلاّ على الثلث وأحيانا على خمس كمية الطحين الضرورية لها سنة 1899، بعد عشرة سنوات من اندلاع الثورة، وانخفضت نسبة السكان من جراء المجاعة والأوبئة. لقد ظهر الادراك المسبق الذي أعطى عنه تروتسكي أمثلة كثيرة خلال حياته وخصوصا في كتابه «البروليتاريا والثورة»، لقد ظهر خصوصا

عندما تحدث عن إمكانيات الثورة العالمية. كان بوانكاريه يحكم في فرنسا عام 1922 وائتلف الليبراليين المحافظين في إنكلترا. تكهن تروتسكي بمحاولة ستبرز فيها الميول السلمية والإصلاحية لا محالة: «ستشهد فرنسا بروز أوهام السلمية والإصلاحية التي سوف تأتي إلى السلطة بشكل جبهة مع اليساريين، هذا بعد أن شهدت أوهام الحرب ونشوة النصر... اتكهن بتطور مماثل في إنكلترا حيث ستحل حكومة سلمية وديموقراطية مكان حكومة المحافظين والليبراليين. سيكون لدينا إذن حكومة جبهة اليسار في فرنسا وحكومة عمالية في إنكلترا. ماذا سيحدث في ألمانيا في هذه الظروف؟ ستتنفس الاشتراكية-الديموقراطية الهواء العليل، سيكون لدينا طبعة جديدة من الولسونية على قاعدة أوسع ولكنها لن تدوم كالأخرى. ولهذا السبب إنه من الضرورة بمكان تحضير أحزاب شيوعية صلبة يمكنها أن تقاوم هذه المرحلة من السلمية والإصلاحية. لأن العمال سوف يتوجهون نحوها عندما تسقط الأوهام فتظهر الأحزاب وحيدة تدافع عن الحقيقة ولا تكذب على الطبقة العاملة.

كانت مسألة برنامج الأممية الشيوعية مدرجة على جدول الأعمال، وتم طرح مشاريع كثيرة ودافع أصحابها عنها. كان هذا النقاش مناسبة لنزاع حاد بين بوخارين وراديك. قدم راديك تقريرا عن هجمة رأس المال: لم تكن اللوحة واضحة. انتقدت عناصر اليسار غياب الرؤيا الثورية التي لا يتوانى الوسطيون عن استعمالها عند هجومهم على الشيوعيين. دخل بوخارين في نزاع مع راديك حول مطالب العمال المباشرة، أيجب إفراد مكان لها في برنامج الأممية الشيوعية؟. صرح بوخارين أنه ضد هذا العمل أمّا راديك فقد دافع بحيوية عن مسألة إدراجها. لقد كان جليا أن المسالة تستوجب الدري. وتم القرار في النهاية بإحالة هذه المشاريع إلى لجنة مختصة تضع تقريرا للمؤتمر القادم.

7- الحزب الشيوعي الفرنسي ومصاعبه

إذا استأثر الموضوع المهم الذي تطرق إليه لينين وتروتسكي بانتباه المندوبين فإن حشريتهم كانت مركزة حول مسألة أخرى أقل أهمية.. لقد تم إدراج الحزب الشيوعي الفرنسي، مرة أخـــرى، على جدول الأعمال، كان تطوره صعبا. صوت الحـــزب الاشتراكي القديم على الدخول إلى الأممية الشيوعية بأكثريـــة ساحقة، كما مر معنا، في مؤتمر «تور» في أواخر كانـــون الأول سنة 1920. أصبح الحزب الشيوعي يتشكل من قسم كبيـــر من الحزب القديم[15]. واحتفظ «المنشقون» بأكثرية البرلمانيين وقسما من الكوادر، «زينة الحزب» كما يقول جان لونجيه. اتجهت القاعـــدة إلى الشيوعية بشجاعة، كانت قاعدة صافية تشتمل على العناصر الجديدة والشابة قدامى المناضلين والنقابيين وعلى قسم صغير من الفوضويين.

اتخذت البعثات التي أرسلت إلى موسكـــــــو، كما رأينا، موقفا منفردا في مؤتمر الأممية الشيوعية وفي مؤتمر النقابات العالمية الحمراء. واظهر المؤتمر الأول للحزب، الذي تم عقـــده في مرسيليا في كانون الأول سنة 1921، عن اضطراب وقلق ومناورات غير مستحبة في سير عمل الحزب. لم يعد انتخـاب بوريس سوفارين، مندوب الحزب إلى اللجنة التنفيذية للأمميـــة، في موسكو يبرر الأمر أو يشرحه. هنا قدم رفاقه، أصحاب الميل نفسه، استقالتهـــــم عندما عقدت الجلسة. كانت هذه الأزمـــة الأولى. نددت الأممية بالمستقلين واستنكرت مناورة القيـــادة وفرضت إعادة المستقلين عن استقالتهم.

أتت، بعدها، مسالة تكتيك الجبهة الموحدة. وقد أظهرت كيف تم استقالتها. في حين أن المعارضين قد أعلنوا، في اللجنـــــــة التنفيذية الموسعة، عن خضوعهم لقرارات الأممية. وبعد مضـــي عدة أشهر أعلن فروسار، الذي وافق على الذهاب إلى موسكـــو، أعلن في نهاية النقاش: «أن لهذه الأسباب... تلتزم بعثة أكثريـــة الحزب الفرنسي بنقل القرارات التي سوف تؤخذ إلى الحـزب، وتلتزم بشرحها ونقدها والدفاع عنها.. وأتمنى ألا تستأثر المسألة الفرنسية انتباه الأممية الشيوعية بشكل خاص في مؤتمرها الرابع». وعاد بعدها إلى باريس حاملا توصية إلى مؤتمر الحزب المقبـــل وقد تم توقيع هذه التوصية باسم فروســـار – سوفاريـــــن. كان الاتفاق إذن بين اليسار والوسط، وهذا هو المحور الذي بنـــــى عليه الحزب الشيوعي الفرنسي.

من المفروض أن يتم انعقاد المؤتمر الثاني للحزب في 15 تشرين الأول، قبل انعقاد المؤتمر الرابع للأممية الشيوعية بقليل، الذي سوف لن يبحث بالمشكلة الفرنسية الدائمة، حسب تمنيات فروسار. كان مانويلسكي المبعوث إلى المؤتمر. نظم عدة اجتماعات بين ممثلي الاتجاهين ليرسخ الاتفاق بشكل نهائي. واقترح تعديلا في التمثيل بين اتجاهي الوسط واليسار، في اللجنة القيادية، وعلـى مندوب الأممية أن يحسم الخلافات التي قد تقع عندما يصر أعضاء كلا الاتجاهين على مواقفهما. وأضاف: عندما يرفض الوســـط لا يعد الحزب الشيوعي مستقلا وعندها يصبح ممثل الأممية الحكم ويتخذ القرار المناسب. طالب اليسار بالأكثرية. كانت سلطة مانويلسكي وخطوته ضعيفة حتى أنه تم افتتاح المؤتمر من دون التوصل إلى اتفاق.

انفجرت الفضيحة بعد النقاشات الأولى. صعد «كيـــر»، مساعد فروسار في الأمانة العامة، إلى المنصة ليدلي بتقريـــره. كان رجلا نشيطا يتمتع بإمكانيات جيدة، ويحبه الجميـــــــع وصاحب ميول ائتلافية. وأنطلق في اتهام صارخ لليسار، وسط الوجوم العام، ووصف المحادثات مع مندوب الأممية كمؤامرة تحاك في الكواليس. وهكذا سوف تطبع النقاشات اللاحقة بهذا الطابع. مـــاذا يريد الوسط؟ إنه هو المسيطر على مواقع القيـــادة. ففروسار في الأمانة العامة، وكاشين في رئاسة تحرير «الإنسانية» وتتبعه أكثرية اللجنة القيادية. لكن مسألة الانضمام إلى الأمميـــة تثقلـه فهو لا يتفق دائما مع قراراتها. في حين انه يتحفـــظ دائما من التوجه طرحه ضد الأممية. أيريد اليوم الذهـــــاب إلى أبعد من ذلك؟ في نهاية النقاش، استطاع أن يجمع أكثرية الأعضـاء، ولكنها أكثرية طفيفة، 1698 ضد 1516 لليسار. وامتنـع 814 عضوا عن التصويت معبرين عن استيائهم. بيد أن الوسط[16] طالب بالسلطة كلها. سيحكم منفردا «بالاتفاق مع الأمميـــة» بالرغم من كونه غير متفق مع الرجل الذي يمثلها. ماذا تعني هذه العمليـة المعقدة بالضبط؟ لا ضرورة للتدخل في القضايا السرية لمعرفة ما يجري. فالرجال الذين الذين لا يستطيعون احتمال سلطة الأممية معروفون، والبعض منهم يصرح به علانية. بيد أن الذي يحضـــر هذه المناورات ويوجهها هو الأمين العام نفسه، السيد فروســـــار. إنه لم يتجاوز الأربعين من عمره لكنه محنك في

[15] - أصبح عدد الملتزمين في الحزب الاشتراكي 34 الف عضو بعد أن كان العدد يناهز 100 ألف سنة 1914. عرف هذا الحزب في نهاية الحرب امتدادا ملموسا إذ تلقى في غضون عدة أشهر 150 الف عضو جديد.

[16] - لقد قال كاشين من على المنصة: «أعلن، باسم الوسط، أننا سنحتفظ منفردين بقيادة الحزب».

أمور الحـــزب، لقد اقترب خلال الحرب، من زيمروالد. واعتبره مرهايـم، الذي خبره عن كثب، كرفيق قليل الإيمان، وعندما نظم لونجـه اتجاه الأقلية في الحزب أسرع فروسار للتقارب منه. لقد ضم هـــذا الاتجاه كثيرا من النواب. كان يتم نقد سياسة الحكومة في الحـرب في الوقت الذي كان فيه التصويت يتم على مخصصات الحـــرب. لقد كان هذا موقفا غير خطر وأصبح فيما بعد مفيدا عندما انتصرت الأقلية ووزعت المراكز. أخذ كاشين رئاسة تحرير الصحيفة اليومية بينما حصل فروسار على أمانة الحزب العامة.

كنت قد التقيت بكلا الإثنين في موسكو عند انعقاد المؤتمـر الثاني للأممية، كانا مراسلين «للإطلاع». كان فروســار يجلس وراء كاشيـــن يترك له مجال الرد منفردا. وهكذا أعيدت اللعبة نفسها عندما طلبت اللجنة التنفيذية منهما المجيء إلى موسكـــو. لقد رفض الاثنان بحدة الذهاب إلى موسكـــــو في البدء. وعندما طلب منهما ذلك بإلحاح، ترك فروسار كاشيـــــن يتخبط لوحده إدراكه أنه سوف يرضخ في نهاية الأمر وهكذا يمكنه هو الاحـــتفاء. وهكذا بعد أن رفض كاشين الذهاب وأعلن ذلك بصوت عال بدأ يتحضر للذهاب وفي الوقت نفسه حضر خطابا عاطفيا ليثير الرحمة في قلوب منتقديه.

إن فروسار نفسه هو الذي شرح لي، صدفة، تقنيته فـــي العمل. كان قد اتخذ موقفا صلبا من موضوع المؤتمر التأسيســي للإتحاد العام الموحد للعمل الذي سوف يعقد في ســان-اتيان: خـــلال وجوده في موسكو كأمين عام للحزب جمع مندوبي حزبه قبل المؤتمر ليضعوا جميعا البرنـامج والتكتيك. كانت النقاشـــــات صلبة، ووقف الفوضويون و«النقابيون الخلص» موقفا عدائيا من الحزب الشيوعي وأعضائه لأنهم لم يستطيعوا نيل الأكثرية في الوقت الذي كانوا فيه يسيطرون على الأمانة العامة وعلى اللجنة التنفيذية في الاتحاد العام الموحد للعمل. وعندما تكلم أحدهم، أميـن عام قسم مهم، وقف في وجههم ولكن بطريقة غير سليمة، عندها اقترب فروسار مني وقال لي: «لقد أقنعـــت الأخ». لقد أعجبني هذا التصريح وخصوصا أنه لا يوجد بيننا أي نوع من الصداقة. فيمـــا بعد، أعطاني هذا التصريح مفتاح الأحداث المتكررة، عندما قمت بدراسة لمجمل تطور الحزب الشيوعي الفرنسي: كان فروسار يظل بين الكواليس «يتصنع الإخوان». لقد أقنعهم في المؤتمـــر الثالث للأممية الشيوعية وفي المؤتمر الأول للنقابات العالمية الحمراء كما «أقنع» كير المسكين في مؤتمر باريس، كما «أقنـــــــع»، بشكل خاص، القياديين الجدد في الاتحاد العام الموحد للعمـــل، وكانوا من محبذي الشيوعية وراغبين في دخول النقابات العالمية الحمراء، لكنه كان من السهل أن يثاروا ضد «الفرمانات القيصرية» في موسكـــو، هنا كانت تكمن ورقته الرابحة، لقد أصبح من الصعب تشكيل حزب شيوعي حقيقي انطلاقا من اتحاد عام يقف موقفا عدائيا.
17

ارتدت الأزمة، هذه المرة، طابعا حادا وأصبح من الضرورة وضع حد لهذه المناورات التي تخلق وضعا لا يطاق. تم تشكيـــل لجنة ذات أهمية استثنائية من حيث عدد المندوبين واختيارهـــــم من أجل تحضير السجالات والنقاشات في المؤتمر. لقد تمثلت البعثات، في هذه اللجنة، بأعضائها البارزين، وأعطت البعثـة الروسية المثل بتسمية لينين وتروتسكي وزينوفييف وبوخاريـــن. لم يحضر لينين ولكنه كان يتابـــع النقاشات عن كثب. تقـــــرر مصير الحزب الشيوعي الفرنسي بين أيدي هذه اللجنة، لقد واجهها مجزءا: الوسط بادعائه الحكم منفردا، هذا الادعاء الذي تشكل في باريس لم يستطع أن يقف على رجله في موسكو، اليسار المتعلق بالأممية الشيوعية بعمق ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى القيادة لضعفه. وأخيرا اليمين، الذي تحدثت عنه في مناقشة الجبهـة الموحدة، المتشبث باليسارية اللفظية والذي يكن عداء للأممية الشيوعية. يمكنني أن أحكم على كل فريق بالتجرد، وذلك لأنني لم التزم في الحزب إلاّ بعد عودتي إلى فرنسا في الأشهر الأخيرة من سنة 1921. لقد ظهرت مخاطر طريقة العمل التي أقرت في سنة 1920 من أجل تشكيل الأحزاب الشيوعية، ظهرت هذه المخاطر بوضوح، ورآها زينوفييف وأشار إليها في تقريره عندما كتب: «يتواجد عندنا في الحزب ميولا وسطية واشتراكية- ديموقراطية بالقدر الذي دخلت فيه أجزاء كثيرة من الحركة الاشتراكية – الديموقراطية القديمة». لم يكن الحزب الشيوعي الفرنســي حالة فريدة من نوعها إنما ما كان يميزه بشكل مغضب هو خبـــث عدد من قياديه. كنت قد استلمت العدد الأخير من «النشرة الشيوعيـة» في اليوم ذاته الذي كان يتوجب فيه علي التكلم أمام اللجنـــــة. لقد تم إعادة نشر الانتقادات القديمة الموجهة ضد الأممية الشيوعيـــة، بكل صفاقة، في هذا العدد. وأعطاني هذا الأمر مدخـــلا إلى الموضوع وهذا ما أنهك اليمين. فطأطأوا رؤوسهـــــم خلال القراءة وهم يشعرون باستنكار اللجنة العام. طرحت الســـؤال التالي على ممثلي الوسط: «إنكم تدعون ممارسة القيـــــادة منفرديـــن وباتفاق مع الأممية. لكن من يثق بتصريحاتكم». بدأ، هنـــا، بعضهم بالدمدمة. عندما تكلم تروتسكي في نهاية الجلسة خـص «كير» باسمه ونوه بأنه كان ماسونيا وهذا ما كان يجهله الكثيرون بيننا، كيف يمكن للمرء أن يكون شيوعيا وماسونيا في الوقت ذاته؟ كان هذا الأمر متناقضا.

---

[17] - كتب شامبلان، في مقال حول مؤتمر باريس نشر في «النشرة الشيوعية» 9 تشرين الثاني سنة 1922، يقول: «لم يكن عند مونموسو كلاما قاسيا ليصف به فروسار الذي كان يحاول توجيه الحركة النقابية ضد موسكو وذلك خدمة لسياسته. كنت أتساءل إذا كا كان مونموسو وأصدقاؤه سوف يرضخون، تحت هذا التأثير، ويلعبون هذا الدور هنا وفي موسكو».

[18]

استمر النقاش خلال عدة جلسات. سوف أقتصر هنا على ذكر حادثة واحدة، قصيرة ولكنها مهمة، طبعت الجلسة الأخيرة بطابعها. لم تكن، في الواقع، بعثة الوسط متجانسة، إذ يمكن للمرء أن يلاحظ بجانب المحتكين بالسياسة والحزب أعضاء جدد اعتنقوا الاشتراكية بعد الحرب وبسببها. وتتركز الملاحظة على أحدهم المدعو «جان رونو» الذي كان يحاول دائما على ألاّ يتبع أحد الاتجاهات. كان ينحدر من أصل ريفي. لقد جرح خلال الحرب جرحا بليغا، وتمكن من أن يقرأ كثيرا خلال فترة النقاهة. كان يكتب بشكل جيد، ويعبر بعنف عن غضب الرجال الذين تألموا في الخنادق وعادوا منها مقتنعين بضرورة طرد الحكام وقلب النظام المسؤول عن المذبحة غير المفيدة. حملت الأصول الريفية «رونو» ليعارض الفلاحين، الذين حاربوا في الخنادق، مع عمال المصانع المستفيدين من تأجيل موعد تجنيدهم. يظهر ادعاؤه بأخذ مواقف شخصية ومستقلة، يظهر بوضوح أنه لا يلتزم بالشيوعية وبالأممية من دون تحفظ. كان يريد، أخيرا، أن يكون المناضل غير المنتقد. تبدو هذه التفاصيل ضرورية لفهم الحادثة التي حصلت بعد جلسة طويلة. بعد أن تمت مناقشة جدول الأعمال طلب مندوب الشبيبة الشيوعية الإذن بطرح سؤال. قال: «يتلقى اتحادنا إعانات مالية من أممية الشبيبة الشيوعية، يبدو لنا أنه من الطبيعي أن يساعد المركز أحد الفروع. لكن بعض الرفاق وخصوصا «الرفيق رونو» يهاجموننا لهذا الأمر. أطلب، في هذه الجلسة، من المسؤولين أن يعيدوا إلى ذاكرته أن المسالة هي مسألة إظهار التضامن الطبيعي في منظمة عمالية». ولم يكد هذا ينهي طلبه حتى وقف رونو وتقدم نحو الطاولة وبدأ بشرح مشوش حتى اضطر تروتسكي إلى إيقافه مع شيء من القسوة قائلا له ليس بين الأممية الشيوعية والمعرض، حيث يقوم المزارعون بمساوماتهم بدهاء، شيئا مشتركا. انسحب، عندها رونو مرتبكا. ورفعت الجلسة مع شيء من الامتعاض. بالطبع كان من الممكن لتروتسكي أن يشرح وجهة نظره بروية أكثر كما فعل في اليوم التالي في لقاء خاص. لكن الساعة كانت قد تجاوزت الثانية صباحا ويمكن أن يفهم نفاذ الصبر، فالجميع على عجلة من أمرهم. ولعله قد أسيء اختيار الوقت لطرح مسألة لم تكن من دون أهمية وتستحق مناقشة مطولة. لم يكن رونو الوحيد الذي يعتقد أن على الأممية أن تتصرف بروية وأن تراقب عن كثب الأموال التي توضع تحت تصرف الفروع.

كان الموضوع الصعب، بشكل خاص، هو موضوع علاقة الحزب بالنقابات. كان للحركة النقابية الثورية جذور عميقة في الحركة العمالية الفرنسية. ويتوجب على ثورة أكتوبر وعلى الأممية الشيوعية أن تمحو العداء الذي تكنه النقابات للأحزاب السياسية. بالرغم أن العداء كان قد اختفى فإن الشك ما زال مستمرا ولم يكن بمقدور قيادة الحزب أن تبدده. بالمقابل، بقي بعض التحفظ عند النقابيين، حتى الملتزمين منهم في الحزب، حول مسألة تدخل الحزب في الاضرابات. من جهة أخرى إذا كان على الاضرابات وعلى الحركة العمالية أن تسير بمعزل عن اشتراك الحزب، لا يستطيع هذا الأخير مطلقا أن يصبح حزبا شيوعيا. اتبعت قيادة الحزب هنا، لأسباب شتى، سياسة أقل قدر ممكن من المقاومة، أي أنها كانت تندثر كلية أمام النقابات. إن هذا الموضوع هو صعب بشكل استثنائي. لقد رأيت النقابيين الأكثر تقربا من الحزب يبتعدون عنه عندما يلاحظون أن شبانا مناضلين يتركون العمل النقابي من أجل نشاط انتخابي يؤمن لهم مقعدا في البرلمان. لم تكن سياسة الحزب سلبية فقط. بل كانت أبعد من أن تخفف الاختلاف وأن تقرب وجهات النظر وأن تجد الأسس الصالحة للتفاهم من أجل حركة مشتركة، كانت تسعى لتغذية الخلاف حتى تتمكن من الضغط على موسكو. لا يمكن الادعاء مطلقا، أنه بفضل انقسام العمل هذا بين الحزب والنقابات تسير الأمور لصالح الحركة العمالية الفرنسية. لقد عدد تروتسكي الاضرابات الفاشلة والخسائر الجسيمة التي كان من الممكن تفاديها.

قدمت اللجنة برنامج عمل بعد نقاشات طويلة جرى خلالها درس نشاط الحزب وخصوصيات الحركة العمالية والصراع بين الأطراف والصحافة والمسألة الريفية والسياسة الاستعمارية. وطلبت بالإجماع من أعضاء الحزب المشايعين للماسونية ولعصبة حقوق الإنسان أن يتركوا مباشرة «هذه الآلات البرجوازية التي وضعت من أجل تخدير الوعي الطبقي عند البروليتاريا». اقترحت اللجنة، لإخراج الحزب من الأزمة التي وضع فيها، أن يصار إلى تشكيل اللجنة القيادية على قاعدة نسب الأصوات في مؤتمر باريس، وتسمي البعثات نفسها المسؤولين، وأعلن الممثلون عن قبولهم بهذا الحل من دون تحفظ.

---

[18] - «كان الميل نحو الوسطية في فرنسا استمرارا للعقلية الاشتراكية – الديموقراطية القديمة، لكنه يلبس قناعا غريبا بقبوله كل ما يطلب منه» (خطاب بوخارين في اللجنة).

8- فروسار يستقيل، وكاشين يبقى

في الوقت الذي كان فيه المؤتمر يناقش ويقرر، كان فروسار الذي بقي في باريس، بالرغم من نداءات الأممية المتكررة، يجمع أنصاره وينظمهم ليقف في وجه أي قرار يتخذه المؤتمر وتصبح معه الأعمال الخفية مستحيلة. كان المتآمرون يتشكلون من أكثرية أعضاء اللجنة القيادية ومن قسم كبير من محرري «الإنسانية». كانوا يعتقدون أن بوسعهم الوقوف في وجه الأممية لأنهم يسيطرون على الأمانة العامة بواسطة فروسار وعلى الصحيفة بواسطة كاشين. بيد أن القرارات المتخذة في باريس أوقعتهم في المحنة. فكل شيء أصبح منظما: تشكيل لجنة القيادة وتشكيل مجلس إدارة للصحيفة. لم يستطع مندوبو الوسط من مقاومة ضغط إجماع المؤتمر في موسكو، غير أنهم لم ييأسوا، أوجدوا الأعذار لتأجيل تطبيق القرارات. لقد كان تكتيك فروسار، الذي أعلن عنه صراحة في اجتماع اتحاد «السين»، كان «كسب الوقت». لكنه لم يلبث أن فهم أن هذا التكتيك أصبح مستحيلا منذ الآن فصاعدا، لأنه بالتحديد خبير فيه.

يجب هنا الاختيار، تردد فروسار وأصر على أن يكون في مركز يجعل منه القائد الحقيقي للحزب. وجد نفسه محصورا بين الأممية وبين أنصاره، وبدأ هؤلاء يضغطون عليه، فأحس بفشله فقد استقالته.

انتظمت الأمور بسرعة، ذهبنا، أنا وهمبردروز مندوب الأممية إلى عند كاشين لوضع قائمة بأسماء المحررين في «الإنسانية» بعد أن تم استبعاد كل الذين تآمروا مع فروسار. حاول كاشين أن يدافع عن بعضهم ولكن بفتور، ولم يتحمس إلاّ للاعتراض على إعادة بيير مونات المكلف بزاوية الحياة الاجتماعية.

اعتبر المتآمرون كاشين مسؤولا عن كل هذا فراحوا يفتشون عنه، عبثا، في مكاتب الجريدة، إلاّ أنه بقي طوال الوقت في بيته ليتحاشى الضربات.
[19]

تألب المتآمرون حول فروسار وحاولوا تشكيل حزب صغير، وأصدروا صحيفة أسبوعية ووجهوا كل انتقاداتهم فيها إلى الأممية وإلى الشيوعية. وطلبوا من «الإنسانية» تعويضات عن صرفهم كما لو كانوا يعملون في جريدة برجوازية.

أمّا بالنسبة لفروسار فقد انخرط بسرعة في الطريق التي سبقه بريان ولافال إليها. لقد عاد إلى الحزب الاشتراكي ومن ثم تركه، أصبح وزيرا وانهى حياته السياسية كالعديد من وزراء «بيتان». نشر، سنة 1930، مذكرات عن دخوله إلى الحزب الشيوعي تحت عنوان: «من جوريس إلى لينين» حيث يمكن قراءة ما يلي: «هل كنت شيوعيا؟ بالقدر الذي تمكن فيه من استعادة أجواء «ثور» أشعر بأنه يمكنني أن أعطي جوابا سلبيا على هذا السؤال. لقد سعيت عشرات المرات لأفك ارتباطي بالحزب... لقد كنت، في الواقع، أقرب إلى «بلوم» من لينين» (ص. 177). تصور هذه العبارة جيدا نمط السياسي الصغير المتفرد الذي كانه فروسار. وتكتمل الصورة أكثر إذا ما أضفنا هذه الجملة الواردة في الصفحة نفسها حيث يدعي أنه كان «مخدوعا» بأناس من دون شرف ومن دون ضمير».

يفرض تقديم عرض شامل عن مؤتمر الأممية الرابع أن نفرد مكانا واسعا للفاشية. لقد حصلت الأحداث الحاسمة. استدعى الملك موسوليني لتشكيل الوزارة، وبعد سنة من تعبئة العصابات الفاشية المسلحة التي تعمل في البلاد بالاشتراك مع السلطات وبعدمها وبعد القيام بما اسمي «الزحف على روما» الذي كان خدعة موسوليني الأولى. وصلت الفاشية إلى الحكم في 30 تشرين الأول أي قبل افتتاح المؤتمر ببضعة أيام. لقد تحدث بورديغا، في 16 تشرين الثاني، بانفعال غير مألوف عنده وخصوصا عندما تلا تقريريه عن الفاشية. لقد قال أن «الظروف الخاصة» لم تسمح له بأن يحمل معه كل المستندات. وعرض، في البدء، تاريخا موجزا للحركة الفاشية، متحاشيا ذكر الشخصيات، وذكر بعدها ما أصبح واضحا للجميع «لم تستطع الحركة البروليتارية الاشتراكية الثورية التي تدعمت بعد الحرب بفضل الحماس الذي سيطر على الجماهير، لم تستطع الإفادة من الظروف الملائمة... يمكننا القول انه في سنة 1919 والقسم الأول عن سنة 1920 كانت البرجوازية الإيطالية مستسلمة إلى حد بعيد، وكان من الممكن أن تنتصر الثورة. الطبقات الوسطى والبرجوازية الصغيرة سلبية، ولكنها في نهاية الأمر تنحاز للبروليتاريا». أدت هذه التبسيطية المعروفة عند بورديغا إلى خطأ واضح في تقييم الفاشية: الديموقراطية والبرجوازية والفاشية تمثل الشيء نفسه، إذن «لا أقول أن الوضع ملائم للحركة البروليتارية

[19] - كتب أميدي دونوا، سكرتير التحرير في «الإنسانية»، بهذا الصدد: «لقد كان فروسار يتوهم أنه سيفرض، عاجلا أم آجلا، شروطه على الأممية الشيوعية. بيد أن المقربين من أمين عام الحزب كانوا يعرفون منذ أمد طويل هذا الأمر... لا يمكن للمؤامرات الأكثر حبكا أن تنجح دائما... لقد بقينا حوالي أسبوع على حافة الانقطاع، ولكننا لن ننقطع. أصبح الأمر يتوقف على تطبيق قرارات المؤتمر الرابع... نشر المفصولون الاتهامات، ولجأوا مع فروسار إلى تهديدات كهذه حتى أن فروسار لم يستطع أن ينفذ منها إلاّ بتقديم استقالته من الحزب».

والاشتراكية عندما أتوقع تحول الفاشية إلى الليبرالية والديموقراطية... إن وضعنا ليس مأساويا». كان قد وصل البارحة مبعوث من الحزب يحمل معلومات حول التطورات الأخيرة. قال عنه بورديغا «هذا الرفيق هو عامل ويقود تنظيما محليا في الحزب، إنه يقدم رأيا مهما يوافقه عليه كثير من المناضلين، ويمكننا منذ الآن وصاعد العمل أحسن من ذي قبل».

قيم الرفيق راديك الوضع بدقة أكثر في تقريره حول الهجمة الرأسمالية، وأظهر عن فطانة أكثر فيما يتعلق بفهم هذه الأحداث وبتطورها، قال: «لا أرى في انتصار الفاشية انتصارا ميكانيكيا للقوات الفاشية فقط، إنني أرى فيها الهزيمة الكبرى التي لحقت بالاشتراكية والشيوعية منذ أوائل الثورة العالمية. إن هذه الهزيمة هي أكبر من هزيمة هنغاريا السوفياتية، لأن انتصار الفاشية هو نتيجة العجز الأخلاقي والسياسي المؤقت للاشتراكية ولكل الحركات العمالية الإيطالية».

أمّا زينوفييف فلقد اعتقد بالعكس، بضرورة نشر تفاؤله بين المندوبين: «تتم المناقشة الآن، بين الرفاق الإيطاليين، لمعرفة طبيعة ما يجري حاليا في إيطاليا: أهو انقلاب أم مسرحية؟. من وجهة نظر تاريخية إنها مسرحية. سيتغير الوضع، في غضون عدة أشهر، لصالح الطبقة العاملة». وهكذا يحول زينوفييف الهزائم إلى انتصارات ويعلن عن انتصار الشيوعية... في غضون عدة أشهر.

اكتسبت المسألة الإيطالية، المدرجة على جدول أعمال المؤتمر، أهمية جديدة. لقد سبب تطور الفاشية تحركا ملموسا داخل الحزب الاشتراكي الإيطالي. وجد سيراتي وأصدقاؤه، الذين أرادوا المحافظة على وحدة الحزب بأي ثمن، وجدوا أن التعايش مع اليمين المتمثل بتوراتي وتريفيس أصبح مستحيلا: حصلت القطيعة في المؤتمر الذي تم عقده في روما في تشرين الأول سنة 1922. وترك الاصلاحيون الحزب نعد أن أصبحوا أقلية. بيد أنهم ضاعفوا عدد الأصوات التي تؤيدهم: 29 ألف صوت بدلا من 14 ألف، لأنهم لقوا دعم قياديي اتحاد عام لافارو. نقض داراغونا، بعد المؤتمر، الميثاق الذي يربط الاتحاد بالحزب الاشتراكي وتحصن بموقف استقلالية النقابات وحياديتها. لقد قال: «نحن لا نريد أن نعمل بالسياسة» وأضاف، بينما كان ينحني باحترام لموسوليني «نريد تحركا نقابيا في إطار القانون. هذا ما طرحت به منذ زمن. إن التاريخ يثبت أن اتحاد عام لافرو لا يشترك مطلقا في اللا شرعية. لقد خدعنا كثيرا به في موسكو، خلال المؤتمر الثاني، عندما أكد تعلقه بالشيوعية ووقع معنا نداء إلى كل الثوريين المنتسبين إلى النقابات من أجل تشكيل النقابة العالمية الحمراء. إنه مثل ساطع عن الخطر الواضح المترتب عن وجود أشخاص غير مؤتمين على رأس المنظمات الثورية. إن التيار يجرفهم عندما يكون قويا ولا يستطيعون حصره ولكنهم في الظروف المناسبة يخونونه من دون تحفظ.

عاد سيراتي، الذي لم نره في المؤتمر الثالث، إلى موسكو على رأس حزب قليل العدد ولكنه أكثر تجانسا. واستطاع عندئذ أن يقول: «بعد أن طرد مؤتمر روما الإصلاحيين ومؤيدي القانون مع البرجوازية صوت بالإجماع على الالتزام بالأممية الثالثة».

حلل زينوفييف الوضع الجديد الذي وجد الحزب الإيطالي نفسه فيه، ووصل إلى بعض الاستنتاجات. تطرح الجبهة الموحدة نفسها أكثر من أي وقت مضى أولا، تنبع مسألة الانضمام إلى الحزب الاشتراكي من تصويت هذا الحزب نفسه على الالتزام بالأممية ثانيا. وأضاف: «لقد ارتكب حزبنا أخطاء عقدية، احتمت وأراد أن يتجاهل كل تحرك خارج عن نطاقه. إن لينين نفسه هو الذي لفت انتباهنا إلى وجود «غرور شيوعي» يدعي معرفة كل الأمور ويتبجح بنفسه أكد موسوليني أن الاتحادات الفاشية تضم أكثر من مليون ونصف عضو. إن هذا الرقم مبالغ فيه حتما، هذا لا يهم، المهم هو الدخول في هذه النقابات».

أعلن بورديغا، الذي يتكلم باسم أكثرية البعثة الإيطالية، أعلن عدم موافقته على توصيات زينوفييف. لقد بقي متخوفا من كل عملية انضمام إلى الحزب الاشتراكي الإيطالي، حتى بعد مؤتمر روما، ويجب على الذين يريدون الدخول إلى الأممية الثالثة أن يتألبوا حول الحزب الشيوعي. بيد أنه وحلفائه يتقيدون بالتوجيهات التي يرسمها المؤتمر الرابع، من دون تردد.

خصصت الجلسات الأخيرة من المؤتمر للتصويت على القرارات، حضرت اللجان المختصة هذه القرارات آخذة بعين الاعتبار النقاشات التي تبعت عرض التقارير وعرضت النص النهائي أمام المندوبين في جلسة ضمتهم جميعا. تم تكليف كلارا زتكن بقراءة القرار حول «الثورة الروسية وأبعاد الثورة العالمية». وهذا النص الحرفي لأحد المقاطع:

«يذكر المؤتمر العالمي الرابع العمال في مختلف البلدان أنه لا يمكن للثورة البروليتارية أن تنتصر داخل بلد واحد، إنما تنتصر فقط في الإطار العالمي بما هي ثورة بروليتارية عالمية. إن نضال روسيا السوفياتية من أجل وجودها ومن أجل انتصارات الثورة هو نضال من أجل تحرر العمال والمضطهدين والمستغلين في العالم أجمع».

تبع تصفيق حار قراءة هذا القرار وتمت الموافقة عليه بالإجماع أمّا بالنسبة للهيئة المكلفة بدرس تشكيل اللجنة التنفيذية فلقد عينت البعثة الروسية بوخارين وراديك كمندوبين، لينين، وتروتسكي كرديفين.

ثم عقد المؤتمر الثاني للنقابات العالمية الحمراء في الوقت نفسه في موسكو وفي القاعة الكبيرة من مبنى النقابات. لقد أعد المجلس المركزي أعمال هذا المؤتمر في اجتماعات استمرت من 17 شياط إلى 12 آذار سنة 1922 يلعب هذا المجلس دور اللجان التنفيذية الموسعة في الأممية الشيوعية،

اعترض تطور النقابات العالمية الحمراء نوعان من الأعداء. تابع الاصلاحيون في اتحاد النقابات العالمية في أمستردام سياسة الانشقاق، وسببت مناورتهم في فرنسا انشقاق النقابة المركزية نفسها. ضاعفت النقابات العالمية الحمراء نداءاتها لتمنع هذا الانشقاق، وتوجه مكتبها التنفيذي، في 3 كانون الأول سنة 1921 إلى العمال بهذه العبارات:

«يحضر قادة الاتحاد العام للعمل الانشقاق. بعد أن رفضوا عدة مرات الوحدة العمالية، إنهم يتحضرون الآن لهدمها علانية وهكذا يعزلون العمال الفرنسيين أمام الرجعية. يضاعف جوهو ودومولين ومرهايم تنازلاتهم للبرجوازية. لا يقابل سلوكهم المذهب مع الحكومة ومع الجبهة ألا تصلبهم تجاه العمال الثوريين .... لقد تحطمت بفضل جهودهم، في هذه الساعة، وحدة المنظمات النقابية لسكك الحديد. ويتبع اتحاد الألبسة هذا المنوال. وكم من مرة بكى قياديو أمستردام الوحدة النقابية ولكنهم مستعدون لتحطيمها عندما تحاول أكثرية المنضمين إلى النقابات التخلص من وصايتهم ومن وصاية البرجوازية».[20]

بعد ذلك، وعندما أصبح الخطر كبيرا وجهت النقابات العمالية الحمراء برقية مباشرة إلى أمستردام في 22 كانون الأول هذا نصها: «إن الاتحاد العام للعمل في فرنسا هو على طريق الانشقاق. نقترح مجلسا يضم ممثلين من اتحادكم ومن الأقلية والأكثرية في الاتحاد العام للعمل وممثلين من النقابات العالمية الحمراء يكون مندوبنا: روسمير، نوم مان ولوسوفسكي». انتظر أودجيست، الأمين العام لاتحاد أمستردام، عدة أيام ليرسل هذا الجواب التهربي:

«استلمنا برقيتهم. ما يحصل في فرنسا ليس إلاّ نتيجة تصرفات اللجنة التنفيذية للأممية الثالثة. إنني سعيد لاستنتاجكم أن هذه التصرفات لا تخدم إلاّ البورجوازية. حاولوا تأجيل مؤتمر أقلية الاتحاد العام للعمل, أقترح، تحت هذا الشرط، أن أطلب عقد جلسة في أوائل كانون الثاني مع مندوبكم خاصة. أعطيكم التفاصيل في 28 كانون الأول».

كان الاصلاحيون يخفون رفضهم، بدهاء، عندما يطلب منهم عملا مشتركا من أجل الدفاع عن مصالح البروليتاريا، بوضعهم شروطا يعرفون سلفا عدم إمكانية تلبيتها، كما هي الحالة هنا، وهم لا يفكرون إلاّ بتسجيل نصر غبي.

لقد طرحوا أنفسهم كأبطال استقلال الحركة النقابية، لكنهم في الوقت نفسه، ربطوا كل تحركاتهم بعصبة الأمم والمكتب العالمي للعمل، مخلفات الولسونية هذه التي رأوا فيها أسس ديموقراطية جديدة وضمانات ضد الحرب والفاشية. وعندما انهارت عصبة الأمم وجدوا أنفسهم بين الضحايا، وحتى، في هذا الوقت، رفضوا أن يتعلموا هذه الأمثولة الرهيبة.

في تشيكوسلوفاكيا، أجبر اتحاد صناعة الأقمشة كل منتسب جديد إلى النقابة أن يوقع عهدا يلتزم فيه أن يناضل من أجل أمستردام وأن يحجم عن كل دعوة إلى النقابات العالمية الحمراء، في سويسرا، حيث ارتفع عدد مؤيدي الاصلاحيين إلى 300 ألف ومؤيدي الفوضوية – النقابية إلى 35 ألف، تزاحم كل من الطرفين في حملة من أجل النيل من الثورة الروسية وإطلاق الهجمات ضد النقابات العالمية الحمراء.

أتى الهجوم الثاني، الذي تعرضت له النقابات العالمية الحمراء منذ نشوبها، من الفوضوية النقابية ومن من كانوا يدعون أنهم «نقابيون خلص»، لقد فشلوا، منذ المؤتمر الأول، من فرض وجهات نظرهم. عند عودتهم إلى بلادهم، أخذوا بالثأر عندما شنوا حملة ضارية تطورت بشكل مواز – ولا تختلف كثيرا – عن الحملات التي شنتها الأكثرية الساحقة من الصحف البرجوازية. كانوا يوجهون كل جهودهم لإرباك العمال وتهديم الحماس الذي حملهم إلى الثورة الروسية منذ يومها الأول. لم تكن حملاتهم التي تصادفت مع انحسار المد الثوري في فترة ما بعد الحرب، من دون نتيجة إذ إنها أضعفت إلى حد ما النقابات العمالية الحمراء ولكنها لم تقدم شيءا مفيدا لهم. بيد أنهم، على عكس الزعماء الاصلاحيين الذين أتوا إلى

[20] - لقد كان تكتيك النقابات العالمية الحمراء يخضع للمبدأ المطروح منذ إنشاء الأممية الشيوعية. دافع عنه لينين، بضراوة أحيانا، وخصوصا في «مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية»، ولم تتردد الأممية الشيوعية في كل الذين ما زالت تعتبرهم على خطأ. تظهر كل الوقائع أن رغبة الانشقاق كانت عند الطرف الآخر عند اشتراكيي الأممية الثانية وإصلاحيي اتحاد أمستردام.

موسكو لايجاد الحجج ضد الأممية الشيوعية، كانوا صادقين مع أنفسهم، كان ما شاهدوه في روسيا يختلف عمّا تخيلوه، فبدلا من أن يسعوا إلى فهم الثورة وتطـورها وأن يفرقوا بين الطرق التي اتبعتها الثورة وتلك التي اختاروها طواعية وبين التي فرضت عليهم من قبل الدول الرأسمالية والحرب الأهلية، بدلا من كل هذا كانوا يقتصرون على تأكيدات موجـزة، كانوا ضد الجيش الأحمر وضد ديكتاتورية البروليتاريا التي وافقوا عليها منذ البدء، لقد انصرفوا عن الشيوعية لأنها لم تقض بضربة واحدة على كل آثار التهدم الماضية. لقد عملت النقابات العالمية الحمراء كل جهودها لتبقي النقابيين المخلصين في وسطها، كانت تعمل جاهدة لتبدد كل سوء تفاهم. وجهت في أواخر أيار سنـــة 1922 رسالة إلى أعضاء الاتحاد الوطني للعمل الاسبانـي، لقد رفعت الحكومة حالة الحصار وأصبحت الضمانات الدستوريـة مؤمنة. كان هذا مناسبة، بعد ثلاث سنوات من القمع العنيـــف، لأخذ الدروس من التجارب التي عاشتها الحركة العمالية في كل البلدان وفي هذه المرحلة المليئة بالأحداث المهمة. تقول الرسالـــة، لقد كنا نتوقع أن يعطي، خلال مؤتمر ساراغوســـــا، للرفاق المناضلين توجيهات واضحة، فبدلا من ذلك تم التحضير لهـذا المؤتمر بمناخ طغى عليه هم تحضير الأكثرية والخطابات المحشـــوة بالصيغ الساقطة التي لا ترتبط بالواقع الحالي: لقد توجب، قبل كل شيء، تأمين الأكثرية من أجل القطيعة مع النقابات العمالية الحمراء وانتهت الرسالة إلى القول: هذا هو الخطأ الجسيم إذ لا مكان لمنظمة عالمية أخرى.

نظمت الأقلية، المدافعة عن الالتزام بالنقابات العالمية الحمراء نظمت نفسها بلجان نقابية ثورية واستخلصت معنى التصويت مع القطيعة:

«لقد أكد اجتماع ساراغوسا وجود تيار تطوري ينفي الماضي المليء بالبطولات والتضحيات. أن الاتجاه الذي تم إقراره في ساراغوسا هو أسوأ من الإصلاحية، إن وجهة النظر التي انتصرت تهمل العوامل الاقتصادية بشكل تام». لقد كان قياديو هذا الإتحاد مضللين حتى أنهم كانوا يرفضون خطر وقوع انقلاب يضعهم خارج القانون. والحال أن بريمودي ريفيرا استولى على السلطة في 13 أيلول سنة 1923 في البرتغال، فرض قياديو الاتحاد العام للعمل ديكتاتوريتهم عندما أرادوا أن يفضحوا ما أسموه بديكتاتورية موسكو لقد رفضوا الكلام مع مؤيدي النقابات العالمية الحمراء، ولم يستطع بدفيتوري كارفالهو تقديم تقريره لدى عودته من موسكـو. لقد حصلت القيادة على ما تريد: الانضمام إلى الأممية الفوضوية في برلين، لكن مناوراتها أثبطت. وبالنسبة للأمين العام، دي لوزا «لا تستمر الرأسمالية إلاّ بواسطة الإيحاء الذاتي».

كانت فرنسا في وضع خاص. كان هنالك، منذ الانشقاق، مركزان نقابيان: الاتحاد العام للعمل الذي خرج من هذه المناورات ضعيفا للغاية: لم يتعد عدد المنتسبين إليه 300 ألف عضـــو بالرغم من إعلانه عن وجود 700 ألف عضو في الوثائق الرسمية، المركز الجديد الذي اتخذه لنفسه اسم الاتحاد العام الموحد للعمل وذلك ليشير بوضوح إلى رغبة الوحدة عنده، وكان عدد المنتسبين إليه حوالي 450 ألف عضوا.

عقد هذا الإتحاد مؤتمره التأسيسي في سان-اتيان ما بيـــن 25 تموز وأوائل آب سنة 1922. وتم إبعاد القيـــادة المؤقتـــة التي ضمت الفوضويين و«النقابيين الخلص» من جراء ظروف عرضية. لقد تضمن القرار، الذي تم التصويت عليه بأكثريـــة 743 صوتا مقابل 604 صوتا، الانضمام إلى النقابات العالمية الحمراء مع بعض الشروط: يجب حذف الفقرة 11، من النظام الأساسي، التي تنص على الارتباط العضوي بين الأممية الشيوعية وبين النقابات العالمية الحمراء، وإبدالها بالنص التالي: «يجـــب على النقابات العالمية المراء والأممية الشيوعية أن تجتمع مـــن أجل القيام بأعمال مشتركة عندما تدعو الحاجة، ويجب علـــى النقابات والحزب الشيوعي، في البلدان المختلفة أن تتبع هـذا النهـــج من دون المساس، بالمقابل، باستقلالية هذه المنظمات».
[21]

وهكذا يمكن أن يتم افتتاح المؤتمر الثاني في ظروف مغايرة جدا لتلك التي كانت في السنة الماضية. لا تضيع النقاشات في مواضيع نظرية. إن الوضع واضح. اجتمع المندوبون، نهار الأحـد 19 تشرين الثاني، في القاعة الكبرى من مبنى النقابات، لعقد جلستهم الأولى، وتطرقوا مباشرة إلى تقرير لوسوفسكي حول نشاط النقابات العالمية الحمراء خلال السنة الماضية. طلب المكتـب التنفيذي للنقابات العالمية الحمراء الموافقة على تعديـل الفقـــرة التي نوه بها مندوبو الإتحاد العام الموحد للعمل. ثم حذف الفقـــرة 11 واستبدلها بالنص التالي: « من أجل أن يكون نضال كل التنظيمات الثورية متوافقا، يمكن

[21]- كتب أندريه نان بالنسبة لهذا الموضوع، وكان العضو الأكثر نشاطا والأكثر إطلاعا في قيادة النقابات العالمية الحمراء إلى جانب لوسوفسكي، كتب يقول: «لقد وضع اعتماد هذا القرار حدا للنزاع مع الحركة النقابية الثورية الفرنسية كان التنازل يتعلق، في الواقع، بالشكل. ثم تشكيل لجنة عمل، مباشرة بعد الحرب، ضمت ممثلين من كلا الأمميتين: أظهرت الخبرات اللاحقة للنضالات العمالية ضرورة مشاركة المنظمتين. من جهة أخرى ظهر التمايز واضحا داخل الحركة النقابية الثورية. عادت العناصر الانفصالية إلى مواقعها القديمة وأخذت موقفا عدائيا من الثورة الأممية الروسية، ومن النقابات العالمية الحمراء، بينما الذين استطاعو الإفادة من أمثولات الحرب، من الثورة السوفياتية توجهوا نحو الشيوعية.
(التنظيمات العالمية العمالية، مدريد، 1933)

للمكتب التنفيذي، تحت وطأة الظروف، 1- أن يعقد اتفاقات مع اللجنة التنفيذية في الأممية الشيوعية، 2- أن يعقد اجتماعات مشتركة مع اللجنة التنفيذيـــــة في الأممية الشيوعية لمناقشة المسائل الأكثر أهمية المتعلقة بالحركة العمالية، ولتنظيم العمل المشترك، 3- أن يدعو للتظاهـــر مع الأممية الشيوعية». وتبع هذا التغيير نقاش قصيـــر، فلقد أعلن بعض المندوبين أنهم لم يفهموا لماذا تم طلب إلغـــاء المـــادة 11 واقتراح تبديلها بنص لا يقدم أي تغيير في الجوهر. يجب الاعتراف أن الفرق كان مهما بالنسبة للفرنسيين الذين علقوا التزامهـم عليه.

تم إدراج مسألة العلاقات بين الحزب السياسي والنقابـــات على جدول أعمال المؤتمر الرابع للأممية الشيوعية الذي درى عقــده في الفترة نفسها.

أعلن تاسكا، الذي تكلم باسم البعثة الإيطالية كما أشار هو بنفســه، أعلن أنـه من الممكن أن تكون هنالك ضرورة لتقديم التنازلات لفرنسا أو لأي بلد آخر، لكن هذه التغيرات لم تكن فـي محلها في الأطروحات العامة، لأنه يجب أن يتم تجنب أن تكون هذه التنازلات «شيئا» يساعد على تجذير موقف، من دون مخـــرج، أتى معظم الرفاق إلى هنا لإدانته... وحتى لو صح في فرنســـــا أن على النقابات، من خلال تطورها التاريخي، أن تلعـب دورا قياديـا في الثورة البروليتارية، فإن هذا لا يعد سببا للانصراف عن تكتيك التمركز الشيوعي. إن هذا، بالعكس، يعد سببا إضافيـــا لنمارس هذا التمركز، ونؤمن حصتنا في قيادة الثورة البروليتاريـة. إن الحجة الوحيدة الممكنة لمعارضـة التمركز هي عدم ثقة العمـــال في الحزب الشيوعي. إن هذا يعتبر حلقة مفرغة، يجب تحطيمها بوضوح، إننا مقتنعون أن خلق الظروف لعمل منهجي للشيوعييـن في النقابات هو مسألة حياة أو موت بالنسبة للحزب الشيوعي الفرنسي». (الجلسة السابعة عشر، 20 تشرين الثاني 1922)[22]

تمت تسوية هذا الإشكال بسهولة، هذه المرة، واستطـــاع المؤتمر أن يكرس كل جلساته لمهام النقابات العملية: الدفاع عن العمال ضد الهجمة الرأسمالية وضد منـاورات القادة الإصـلاحيين، كـان يعمد هؤلاء إلـى عمليات الصرف عندما تطرح أية معارضة لسياستهم وذلك لتأمين سيطرتهم على النقابات، وطرحت من جراء ذلك إشكال جديد، يجب جمع المصرفيين وموافقة تحركهم مـــع عمل النقابات، وربطهم بها بطريقة ما وفضح الاتجاه الانشقاقي للاصـلاحيين أمـام العمـال. وأفراد مكـان واسع لمناقشة المهمة الملحة لتنظيم النقابات ونشاطها في البلدان المستعمِرة (بكسر الراء) والمستعمرة.

كان من غير الممكن تفادي انشقاق الأحزاب الاشتراكية بعد الحرب، لقد كانت المفاهيم المختلفة التي تتصارع فيها جذرية حتى أنهـا أدت إلـى القطيعـة بشكل طبيعي، فشيدمان وليبكنخت لم يعودوا يستطيعون الانتمـاء إلـى الحزب نفسه. أمّا بالنسبة للنقابات فمن الممكن إحالة القارئ إلى الصفحات التي تمت فيها مناقشة هذه المسألة وإلى كتاب لينين «مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية» وإلى المناقشات التي دارت في المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية وإلى القرارات التي تمخضت عنه. فبدلا من أن نشق النقابات، كنا نطلب من الشيوعيين البقاء في النقابات الاصلاحية وأن يتعلقوا بها عندما يريد قياديوها طردهم (الشيوعيين) منها، لقد خذلته ذاكرته، فيكتور ســـــرج عندما كتب هذه «المذكرات»، لقد أكد مثلا في مقطـع سابق أن «تروتسكي طرد كاشين وفروسار من روسيا سنة 1920». إن تروتسكي لم يفعل شيئا من هذا ولم يتم طرد لا كاشين ولا فروســار لقد قلت أنهما ذهبا إلى روسيا في تلك الفترة، وخضعا هنالـــك لنظام الحمام السكوتلندي، أي أنه كـان يتم تذكيرهما بارتدادهما خـلال الحرب ولكن في الوقت نفسه كـان يؤخذ تحولهما – المتأخر – نحو ثورة أكتوبر ونحو الأممية الشيوعية كـان يؤخذ بعين الاعتبـــار تركا موسكو بعد أن تعهدا علانية بالدفاع عن الالتزام في الحزب الاشتراكي الفرنسي وعن الالتزام بالأممية الشيوعية، وقد مثلا هذا بمحض إرادتهما.

[22] - كتب فيكتور سيرج في «المذكرات» التي نشرتها له إحدى الصحف، في الوقت الذي كنت فيه قد انتهيت من وضع هذا الكتاب، كتب يقول: «قررت اللجنة التنفيذية (في الأممية الشيوعية) بمبادرة من الروس طبعا، أن تنشئ تنظيما نقابيا عالميا تحتضنه الأممية الشيوعية، يقول المنطق أنه بانشقاق الحركة الاشتراكية تنشق أيضا الحركة النقابية». (2 كانون الأول 1949) توجد، في هذه الأسطر، سلسلة من الأخطاء المدهشة وخصوصا إذا كانت في كتابات فكتور سرج. لا يقول «المنطق» شيئا مما يدعيه (سرج)، يفرض المنطق، بالعكس، أن تميز بين حزب سياسي يجمع أناسا متفقين على برنامج أساسي وبين النقابة التي تضم كل المأجورين.

1- بوانكريه يحتل الروهر![23]

كانت سنة 1923 سنة حاسمة بالنسبة لألمانيا وكذلك بالنسبة للمعاهدات التي تمت بعد الحرب، وليس من باب المبالغة القـــول انها كانت كذلك بالنسبة للعالم أجمع. لقد أيقظ احتلال الروهــر الوطنية الألمانية، ظهر هتلر خلالها. لقد كانت سنة حاسمـــــة بالنسبة لروسيا السوفياتية والثورة البروليتاريـــة. لقد استطـــاع لينيـــن أن يتابع نشاطه جزئيا خلال الشهرين الأولين، لكن في أوائل شهر أيار هاجمه المرض مجددا وأصبح مشلولا حتى وافته المنية في كانون الثاني سنة 1924.

سببت مسألة التعويضات الأزمة إذ انها كانت تطرح خلال كل مؤتمر ولكن لم يصار إلى حلها نهائيا.

لقد تم إنشاء لجنة خاصة تهتم بهذا الموضوع اثر معاهدة فرساي، وكانت الشروط التي فرضتها على ألمانيا غير قابلة للتطبيق كما كانت ألمانيا من جهتها تسعى لخلق الصعوبات في وجه هذا التطبيق لم تحدد معاهدة فرساي قيمة التعويضات المفروضة على ألمانيا، قررت اللجنة في 15 أيار عام 1921 أن تحدد الديون المترتبة على ألمانيا بـ 132 مليار مارك ذهبي. لكن كيف يمكن انتزاع مبلغ كهذا من ألمانيا بدون أن ينهار الاقتصاد الأوروبي؟

لم تعد مصالح الحلفاء متوافقة وكانت تصطدم ببعضهـــا البعض بوضوح أكثر فأكثر. لقد استفحلت البطالة في إنكلتـــرا، وأصبح حوالي مليون عامل عاطلين عن العمل ولا يمكن للصناعة أن تستوعبهم حاليا ولا يمكنها أن تستوعبهم غدا إذ لم يكـــــن بالمستطاع إعادة الاقتصاد الأوروبي إلى وضعه الطبيعي. حاولت الحكومة البريطانية أن تقوم بمسعى في هذا الاتجاه في «جـان»، لكنها كانت تصطدم دائما بفرنسا التي كانت تثير قضية المناطق المنكوبة من أجل إجبار ألمانيا عن الدفع. كانت إنكلترا تجيب بأن عندها هي الأخرى مناطق منكوبة، أغلقت المصانع أبوابها وتحول عمال المناجم إلى البطالة وأصبحت المراكز الصناعية تنظر إلى الفحم المكدس أمامها والذي لا يجد سوقا في القارة.

ستتأزم الحالة في ألمانيا أكثر فأكثر. أزعجت الرقابة التي فرضها الحلفاء الصناعيين وأفقدتهم صوابهم. لقد أثقلت مدفوعات الحرب الضخمة الميزانية. كان الاشتراكيون – الديموقراطيون، حينذاك مشتركين في الحكومة وأحيانا في رئاسة المجلس، وأخذوا يطالبون بطريقة أفلاطونية «بتوزيع منصف لثقل التعويضات» بعد أن حطموا المد الثوري للأيام الأولى. لكن شتاينـس[24]، الذي كان يتكلم باسم أقطاب الصناعة الثقيلة، رفض هذا الأمر، وبقيـت الحكومة ضعيفة بينما كان البؤس يمتد في أنحاء البلاد. كانت العملة تنهار، وكانت كل أزمة تسبب بانخفاض قيمة المارك حتى أصبـح، في أوائل سنة 1922، كل 650 مارك بليرة استرلينيـة، بعد التخفيض الجدي الأول، وتحول القوميون من كل الفئات إلى عدائيين. وكانوا ينعتون الرجال الذين يحاولون التوصل إلى اتفـاق مع الحلفاء بشروط معقولة وقابلة للتنفيذ، كانوا ينعتونهم بالتخريب وتم اغتيال فالتر راثونو (المدير السابق لشركة الكهرباء العامة ووزير الخارجية فيما بعد) بعد أن أعلن في «كـان» عن رغبة ألمانيا بالدفع «في حدود الإمكان»، وكذلك أيضا جرى اغتيال أرزبدغر، في 26 آب 1921 بعد أن وافق على توقيع معاهدة سلام مع الحلفاء.

في فرنسا ولأسباب أخرى كان الوضع الداخلي صعبا، كان الحكام قد مولوا المدفوعات الاستثنائية على شكل قروض، رغبت البرجوازية بمتابعة الحرب «حتى النصر» ولكنها لم تعد تريد أن تدفع، لقد تركت الأعباء الاقتصادية للأجيال المقبلة. لم تستطع الحكومات المتعاقبة أن تضرب أصحاب المنشآت إلا ظاهريا، لقد حقق هؤلاء أرباحا ضخمة وهم يعملون من أجل الحرب. انهارت ميزانية الدولة تحت وطأة المصاريف المتزايدة: ديون قديمة، ديون الحرب، تعويضات على ضحايا الحرب.. وكان العجـــز يزداد أكثر فأكثر لأن بالرغم من فرض حظر التسلح على ألمانيـا، لم تخفف فرنسا من ميزانيتها العسكرية، وكانت الحكومة تجبر على إخفاء قسم كبير منها بحيل قانونية، وتجيب، على حملات الاستياء المتزايدة بفضح «القصور الألماني». وهكذا كانت الأرض خصبة لنشوء تيار شوفيني أوصل إلى المجلس أكثرية قومية وخصوصـا من المصابين «بالخوف من ألمانيا» هذا المرض الذي رفعته الحرب إلى أعلى درجاته.

خلال سنة 1922، كان التوتر يزداد بين ألمانيا وفرنســـا. طلبت ألمانيا بعض القروض، بعد عدم تمكنها من دفع التعويضات التي نص عليها قرار 5 أيار. بعدها، فقط، يمكن أن تدفع. وافق بوانكريه، في شهر آب وخلال اجتماع جديد جرى

---

[23] - نهر في ألمانيا يمر في حوض غني بالفحم (مساحته 4000 كلم^2) مما أدى إلى مركزة صناعية شديدة على جوانب هذا النهر. احتل الفرنسيون حوض الروهر من سنة 1921 إلى 1925 بعد عدم تنفيذ معاهدة فرساي. تهدم قسم كبير من مدنه أثناء الحرب العالمية الثانية. تمت تسوية وضعه في معاهدة فرانكفورت عام 1948. أعيد استثمار المناجم إلى ألمانيا وتولى الحلفاء دور الرقابة عليهم. (المترجم)

[24] - شتاينس هو اقتصادي ألماني (1870-1924). أحد أبطال الحزب القومي في ألمانيا سنة 1920. عارض معاهدة فرساي، بسبب انخفاض قيمة المارك سنة 1923. (المتررجم)

عقده في لندن، وافق على تأجيل دفع الديون المترتبة على ألمانيا لكنه فرض في المقابل شروطا جديدة للرقابة عليها. مع بداية سنة 1923 أصبحت هنالك ضرورة ملحة لعقد اجتماع آخر بين انكلترا وفرنسا وألمانيا، وكان الاجتماع الأخير من نوعه. كانت تراود، بوانكريه منذ فترة فكرة احتلال الروهر، وقبل أن يبدأ بالتنفيذ طلب إلى عدد من التقنيين والعسكريين والمدنيين أن يدرسوا المسألة بتأني وأن يضعوا مخططا دقيقا بذلك. يرغم هذا الإجراء، الذي يعادل العودة إلى الحرب، حسب تقدير بوانكاريه والرجال المحيطين به، يرغم ألمانيا أخيرا، على تنفيذ ما وعدت به. كان هنالك بعض المخاطر إذ أن القطيعة مع إنكلترا أصبحت لابد منها. كان بوانكريه يعتقد أن هذا العمل سوف لن يلاقي في فرنسا إلاّ معارضة غير ذات أهمية. استعمل بريان نفسه أحيانا لهجة تهديدية وأمر بأخذ إجراءات قسرية ضد ألمانيا وصلت إلى حد الاحتلال. لكن هذا الاحتلال توقف عند ثلاثة مدن مهمة في حوض الروهر: ديسبرغ ودوسلدون وروروت، لم يدم هذا الاحتلال كثيرا إذ تم اعتباره اجراءا رمزيا.

عقد اجتماع، لتسوية الوضع استمر من 2 إلى 4 كانون الثاني ظهر خلاله بوانكاريه متصلبا في موقفه وأعلن رغبته باحتلال الروهر كان كل نقاش بعدها غير ذي فائدة، أعلن الإنكليز أنه يتوجب على فرنسا أن تقوم بالمغامرة منفردة واسفوا لعدم تمكنهم من مساندتها متمنيين لها حظا سعيدا، وقد كتموا غيظهم حيال حليف غير قابل للفهم إلى هذه الدرجة. بيد أن بوانكاريه لم يكن وحيدا إذ لم يكد الجنود الفرنسيين أن يدخلون الروهر في 11 كانون الثاني حتى تبعهم فيلق بلجيكي.

أطلق رئيس الرايخ نداء للمقاومة وقد وافق على هذا النداء الرايختاغ بأكثرية وتلخصت الدعوة: بالمقاومة السلبية ورفض الشغيلة العمل لصالح المحتل. وتكاثرت الأحداث، أوقفت الحكومة الفرنسية فريتز تسين مع بعض كبار رجال الصناعة وقضت عليهم.

في فرنسا، وجد الحزب الشيوعي نفسه فجأة أمام التجربة وهو لم يكد ينهي تنظيمه بعد قرارات المؤتمر الرابع للأممية الشيوعية وكان مجبرا أن يتحمل وزر احتلال الروهر. لم يقدم الحزب الاشتراكي إلاّ على معارضة شكلية، فقد كان لا يوافق على سياسة بوانكاريه لكنه أخذ من القضية موقف المتفرج، فرفض الدعوة لإقامة معارضة حيوية لأنه كان يخشى مجابهة مرض «الخوف من ألمانيا» ومجابهة القوميين الذين كانوا يحتضونه، ويغذونه. ولم يفكر أيضا بالقيام بعمل مشترك مع الحزب الاشتراكي-الديموقراطي الألماني.

اهتمت القيادة الجديدة للحزب الشيوعي الفرنسي بإنشاء علاقة مع الحزب الشيوعي الألماني، واشتركت في التحضير لاجتماع فرنسي – ألماني يعقد في «ايسن» من أعمال الروهر كان جواب بوانكاريه على هذا توقيف المندوبين الفرنسيين: كاشين وترين، الأمين العام الجديد للحزب، ومونموسو، أمين عام الاتحاد الوطني للعمل، ووضعهم في السجن. أطلق مجلس اللجان الاستشارية في مصانع الروهر، الذي أخذ مكان القيادات النقابية المنهارة، أطلق الدعوة إلى مختلف الأمميات، إلى المراكز النقابية، إلى الأحزاب الاشتراكية – الديموقراطية وإلى العمال، وطلب منها إرسال مندوبين عنها إلى المؤتمر الذي دعي إليه والذي يعقد في كولونيا. تم عقد المؤتمر، ليس في كولونيا نظرا للصعوبات التي أوجدها المحتلون، إنما في فرانكفورت في 17 أذار. لكن هذا المؤتمر لم يلق النجاح المطلوب إذ أن قادة المنظمات الاشتراكية الديموقراطية الإصلاحية قرروا مقاطعة ومنع أعضائهم من الاشتراك فيه. في فرنسا، لاقى «أسبوع الاحتجاج» نجاحا نسبيا، تم خلاله عقد اجتماع في كل المدن. كان العمال ضد سياسة بوانكاريه الداخلية بشكل واضح ولكن حقدهم على ألمانيا، والذي غذته أكثرية الصحف، انتصر في النهاية، وسمحوا لبوانكاريه أن يتابع عمليته بأمل انتزاع شيء ما من ألمانيا التي ترفض التعويض عن التخريب الذي أحدثته اعتداءاتها.

تدخلت الشبيبة الشيوعية بكل شجاعة، متحدية كل المصاعب وأمنت طباعة «الإنسانية» وتوزيعها بعد أن منعتها السلطات العسكرية، وكانت الصحيفة تحرر في باريس وتطبع في ألمانيا، قامت الشبيبة الشيوعية بحملة نشيطة بين الجنود تدعوا إلى الأخوة مع الجماهير العمالية في ألمانيا. كانت لهذه الحملة نتائج جيدة حتى أن الحكومة الفرنسية اضطرت معها إلى القيام بحملات تطهير بوليسية، وأوقفت العديد من الجنود الشبان وحكمت عليهم مجالس الحرب بعقوبات شديدة، بيد أن الحملة ظلت مستمرة.

في ألمانيا، تضاعفت التحركات والاضطرابات التي سببها الاحتلال. أدى تدهور العملة إلى صعوبات كثيرة في تموين العائلات العمالية وتغذيتها. ولم تعد الأجور تستطيع اللحاق بالأسعار المتزايدة في لارتفاع. واكتنف البلاد جو من البؤس والبطالة والاضطرابات التي أحدثها الجوع. وتم التعبير عن الغضب والتمرد من خلال تيارين مختلفين. دفعت اعتقالات رجال الصناعة ورؤساء البلديات بالقوميين إلى تجييش نفوسهم وزيادة نشاطهم، لقد بذل زعماؤهم جهودهم من أجل أن يجروا وراءهم كل الطبقات للوقوف بوجه محتل يحاول أن يقتطع من ألمانيا قطعة من أرضها ويشجع الحركات الانفصالية وخصوصا بخلقه جمهورية راينان المستقلة. كان الأمر بالنسبة للعمال أكثر تعقيدا. كانوا بكل تأكيد، ضد المحتل، ولكنهم في

الوقت نفسه كانوا ضد «تيسن» و«كروب» وضد أقطاب الصناعة في الروهر الذين كانوا دعامة النظام الـذي قاد ألمانيا إلى الحرب. كانت تظهر، هنا وهناك، حركات عفويـــة تحتل المصانع والمناجم نترة وتستولي على السلطات في المدن تارة أخرى. وظهر اتجاه بين مناضلي الحزب الشيوعـي يدعو إلى مساعدة هذه الحركات وتشجيعها ودعا أيضا العمال إلى العمل المباشر. لكن قيادة الحزب اعتبرت هذه التحركات كانتفاضات صغيرة مصيرها الفشل ويمكن أن تؤدي بالجماهير للابتعاد عن الحزب، ويجب أن يتوجه النشاط العمالي أولا ضد المحتل.

نظم القوميون فرقا للتخريب، قامت بأعمال الاغتيال ونسفت الجسور وسكك الحديد واهتمت بأن تمنع بأي شكل استثمار الفرنسيين لحوض الروهر. وحدث أن القي القبـــــض على أحد زعماء القوميين ويدعى شلاجتر، وحكم عليه مجلس الحرب بالإعدام. وسبب تنفيذ هذا الحكم، في 26 أيار، خضة في طـــول البلاد وعرضها، وأصبح الوضع خطيرا. لقد طال الاحتلال وتأزمت الحالة، عندها قررت قيادة الأممية الشيوعية الدعوة إلى مؤتمر للجنة التنفيذية الموسعة.

تم عقد الجلسة الأولى في 12 حزيران سنة 1923. بعـد أن جرى تقديم التقرير العام المعتاد، افتتحت كلارا زتكـــن النقاش حول «النضال ضد الفاشية»، بعد ظهر ذلك اليوم تدخل سميـــرال وجيبتز في النقاش عندما تقدم راديك إلى المنصة، لقد كان مظهره غير مألوف وكذلك أيضا الخطاب الذي ألقاه، ابتدأ كلامه على هذا النحو:

«استحوذ على فكري اسم شلاجتر ومصيره المأساوي خلال الفترة التي كانت فيها الرفيقة كلارا زتكن تلقي خطابها.

يجب أن لا نقتصر على القاء كلمة عابرة لإحياء ذكرى شهيد القومية الألمانية، لقد علمنا الكثير، لنا وللشعب الألماني، نحـــن لسنا برومنطيقيين عاطفيين ينسون الحقد أمام الجثة أو بديبلوماسيين يقولون: يجب أن نمدح أو نسكت أمام الضريح. يستحق شلاجتر جندي الثورة – المضادة الشجاع، ويستحق منا، نحن جنـــود الثورة، احتراما صادقا، نشرفريكس، رفيقه بالأفكـــار، سنة 1920 قصة، يروي فيها حياة ضابط قتل في معركة ضد السبرتاكية عنوانها: «الذهاب إلى العدم». لقد مات شلاجتر، وإذا كـــان الفاشيون الألمان، الذين لا يريدون خدمة شعبهم، لا يفهمون معنى مصيره، يمكنهم أن يكتبوا على ضريحه: «الذهاب إلى العدم».

اندهش المندوبون. ماذا تعني هذه المقدمة الغريبـــــة؟ إن تتمة الخطاب لا تشرح شيئا بل العكس تدعم الانطباع الأول. أعطى راديك صورة عن ألمانيا المهزومة والتي سحقها المنتصر، قـال: «إن المجانين وحدهم يمكنهم أن يتوهموا أن المعاهدة تعامل ألمانيا بشكل مغاير لمعاملة ألمانيا لروسيا. لقد مات شلاجتر، وأقســـم على ضريحه، رفاق السلاح بأن يتابعوا: ضد من؟ مع من؟»

خلال الاستماع إلى راديك ساد انطباع أنه يقرأ مقـــالا كتبه على عجل وأن المسألة هي مسألة شخصية بحته. كانت نهايـــة خطابه موفقة إلى حد ما: «إننا نعتقد أن أكثرية الجماهيـــر التي حركها حاليا الشعور القومي تنضم لا إلى معسكر الرأسماليين إنما إلى معسكر العمل».

هنا يكمن في الواقع الموضوع الذي طرحه التحرك القومـي، هذا التحرك الذي تطور بطريقة مقلقة والذي قدمت سياسة بوانكاريه له الخدمات الجلى, لقد كان هذا التحرك مقلقا حتى قبل الاحتـــلال وقد حدد مقال، كاتبه تيتل، نشر في «المراسلات الدولية» في 30 كانون الثاني سنة 1922، حدد الخطر الذي يشكلـــه (التحرك) بتنظيمه العسكري وبرنامجه الديماغوجي. قال المقال أن الخطر الفاشي هو حقيقة واقعة في ألمانيا الجنوبية. لقد ارتدت حملات الحزب القومي – الاشتراكي طابعا واضحا: في مدينة بافييـــر ومؤخرا في مدينة ويدتنبرغ: وحشية ضد العمال، وأحداث داميـــة في شتوتغارت وجيسلينغن، وقتل متعمد في كابنغن.

إن المسألة هي مسألة حملة منظمة تستعمل اليـــافطات والبيانات والاجتماعات، إن الحركة القومية – الاشتراكيـــــة هي لا سامية وتهدف إلى نشر فكرة الجرمانية المتفوقة. لقد لاقت هذه الديماغوجية تجاوبا في أوساط الجماهير الخائبة. انتشرت فـــي البدء في الطبقات الوسطى وفي البرجوازية الصغيرة، ولا يمكن أن ننفي وجود أتباع لها بين العمال. لكن الدعم الأساسي كان يأتيهـــا من كبار الصناعيين ومن الملاكين العقاريين. ويرتبط الأعضاء «النشيطون» بقسم يؤدونه أمام الزعماء ويخاطرون بحياتهم من أجـل تنفيذ الأوامر.

استغلوا موقف الشرطة المرحب وأحيانا تلقوا الدعم منها، ويخلص صاحب المقال إلى القول: «لقد توصل القوميون – الاشتراكيون بفضل شجاعتهم إلى مركز جيد في جنوب ألمانيا، لا يمكن أن نشك بأن حيويتهم تزيد من قواهم، بشكل سريع، وقد يشكلون غدا خطرا حقيقيا على الطبقة العاملة.

[25]

إذا كان الخطر القومي – الاشتراكي واضحا ومحددا فإن الوضع لم يكن يخلو من الصعوبة، إن المسألة لم تطرح لنضال واضح ومباشر ضد مستغلي العمال: كان الاحتلال يدفع، نحو القومية – الاشتراكية، شرائح البرجوازية الصغيرة وحتى بعض » العمال الذين كان من المتوجب تحويلهم عنها. لم يكن التصريح الذي أدلى به راديك ليسهل مهمة المناضلين العماليين الذين يواجهون نشاطهم بشكل صحيح، إنما بالعكس ساعد زعماء الاشتراكية – الديموقراطية الذين ظلوا سلبيين أمام تطور القومية – الاشتراكية ساعدهم بطرح مبرر – يكاد يكون ممتازا – لفضح ما أسموه: «تواطؤ القادة الشيوعيين مع الفاشيـــــة» لقد أعادت صحفهـــم نشر خطاب راديك وعلقت عليه وكذلك فعلت صحف الحزب الألماني الشعبي وصحيفة فوسيشي الناطقة باسم الليبرالية – الديموقراطية.

[26]

تولى راديك الإجابة عليهم بمقال يخلو من التحليق الغنائـــي الذي طبع خطابه لكنه محشو باللذع الهجائي والسخرية. فبعد أن كرس بعض أسطر لمحرري «دي تسيت» (الوقت) ومحرري صحيفة فوسيشي، هاجم صحيفة فورفتش (إلى الأمـــام) التي نشرت مقالا بعنوان «راديك يحتفل بعيد شلاجتر». كتب يقول: «تشكل الفاشية خطرا كبيرا، وأكبر بكثير مما يظنه جماعـــة فورفتش لأنهم أظهروا عدة مرات عن عدم تمكنهم من الحساب بشكل صحيح... إن الحزب الشيوعي هو، حتى الآن القـــوة الوحيدة التي تنظم صراع البروليتاريا ضد عصابات الفاشيين المسلحة. لكنه من المضحك الاعتقاد أنه يمكن التغلب على الفاشية بالسلاح فقط. يمكن التغلب على بعض تحركات الأقلية لكن هذا الأمر يبدو مستحيلا بالنسبة للفاشية في ألمانيا وذلك لسبب وهو أن أجهزة الحكومة هي بين أيديهم أو متعاطفة معهم». يجب أن ندفع نحو الاشتراكية شرائح البرجوازية الصغيرة التي ترى في القومية الاشتراكية مخرجا لبؤسها»، لا تسعى الاشتراكيـــة أن تكون صراعا من أجل تأمين لقمة العيش للعمال فقط، إنما تسعى دائمـــا أن تكون مشعلا مضيئا أمام جميع البائسيـــن». توافق فورفتشي على أنه يجب على الألمان أن يناضلوا ضد البنود الجائرة في معاهدة فرساي، لكنها لا تقول كيف يمكن أن تتم قيادة هذا الصراع لأنها هي نفسها لا تعرف ذلك». تضع الحكومة العمالية التي يريـــد الشيوعيون فرضها الأعباء التي فرضتها المعاهدة على أكتـــاف الذين يمكنهم تحملها، وستناضل هذه الحكومة ضد معاهدة فرساي كما ناضل الروس ضد كل محاولة لتقييدهم. وخلص راديك إلى القول: «تكمن إحدى الجرائم الكبرى التي ارتكبتها الاشتراكي – الديموقراطية الألمانية، تكمن في كونها حطمت كل ثقة بالاشتراكية، هذه الثقة المتمثلة بالجماهير الشعبية».

تمت كتابة هذا المقال في موسكو في الثاني من تموز سنة 1923 أي بعد 10 أيام من العظة الغربية حول شالاجتر. لقد تكلم، في المقال، بلهجة مغايرة تماما وطرح المواضيع بوضوح، وإذا مت تساءلنا عن الأسباب التي دفعت راديك لإلقائه: يبدو أن لهذا التساؤل قيمة محددة جدا.

---

[25] - أعلن شترسمان (وزير خارجية ألمانيا) في مؤتمر صحافي عقد في 30 حزيران سنة 1924 للصحافة الأجنبية: «لقد قلت لسفير فرنسا، الذي نقل الي قلق السيد بوانكاريه حول الحركة القومية في ألمانيا، أن على الحلفاء أن يقفوا في وجه هذه الحركة. وأذكر أنني قلت له أيضا أن بعد كل خطاب يلقيه السيد بوانكاريه يزداد عدد أصوات القوميين ما لا يقل عن مئة ألف صوت لقد أخطأت، لكن خطاي يكمن في أنني أعطيت رقما أصغر بكثير من الرقم الصحيح» (أوراق تشترسمان، ترجمة فرنسية، المجلد الأول ص 255)

[26] - المراسلات الدولية، 10 تموز 1923.

2- هامبرغ: اندماج الأممية الثانية وأممية فيينا

وجهت الأممية الشيوعية دعوة إلى الأممية الثانية وإلى الاتحاد العالمي للأحزاب الاشتراكية من أجل تحريك أقصى الجهود العمالية ضد احتلال الروهر وضد معاهدة فرساي وضد نشاط القوميين الخطر. لم تتلق الأممية الشيوعية أي جواب من كلي المنظمتين. إنه مهم جدا وذو دلالة كبرى الاستنتاج أن الأممية الثانية وفروعها تزداد في تلك الحقبة من الزمن. لقد عادت عناصر اليسار إليها بعد أن تركتها وأكدت عدم تعاونها مع الذين خانوا الاشتراكية خلال الحرب. أدى بهم ترددهم أمام الأحداث الحاسمة إلى أن يصبحوا في النهاية، إلى جانب الأممية الثانية، كما أن المستقلين الألمان التحقوا بالاشتراكية – الديموقراطية. جرى التحضير لاندماج الأمميتين في عدة اجتماعات وتمت الدعوة إلى مؤتمر يعقد في هامبورغ يكرس هذا الإندماج، قررت الأممية الشيوعية، بمحاولة أخيرة، أن ترسل إلى هامبورغ بعثة تحاول إسماع كلمتها خلال المؤتمر. وتشكلت البعثة كما يلي: تولى الرئاسة الشيوعي البولوني فالتسكي، مثل لوسوفسكي النقابات العالمية الحمراء وأندرييف الاتحاد العام للعمل الروسي وهكرت الحزب الشيوعي الألماني وتوم بيل الحزب الشيوعي البريطاني وتم تعيين ممثلا عن الحزب الشيوعي الفرنسي.

ذهبنا إلى هامبورغ عبر طرق مختلفة. عقدت البعثة اجتماعها الأول لتنظيم عملها: مراجعة نص الدعوة، ومراجعة نص الرسالة التي يجب نقلها إلى أمانة المؤتمر العامة، والاتفاق على تنسيق مداخلات ممثلي مختلف التنظيمات في حال السماح لهم بالكلام في المؤتمر. لم نكد نبدأ في هذا العمل حتى استدعتني الشبيبة الشيوعية، لقد تمت الدعوة، في الوقت نفسه، لعقد اجتماع مع الشبيبة الشيوعية، كان لاشتراك شيوعي فرنسي، في فترة التوتر هذه بين حكومة ألمانيا وفرنسا، أهمية استثنائية، عقد الاجتماع في قاعة مسرح تبعد قليلا عن المكان الذي عقدت فيه بعثتنا اجتماعها. كان للإجتماع صدى أقل مما كنا نتصور، بقي مثير من المقاعد خاليا، لكن يجب ألا نعزو نصف – النجاح هذا إلى سلبية السكان، لقد كان التيار القومي قويا حينذاك وهو يقوى بالقدر الذي يستمر فيه الاحتلال، ولقد قام العمال بتحركات احتجاجية ضد الشوفينيين وضد حكومة «كونو» كما أثبتت الأحداث اللاحقة عدم سلبية السكان.

أدركت بعثتنا، بسرعة، أن جهودها تذهب أدراج الرياح لقد تصلبت الأممية الثانية بموقفها وخصوصا بعد «النجاح» الذي لقيته، ولم يكن باستطاعة اتحاد فيينا أن يمارس عليها أدنى ضغط لم يسمع خلال النقاشات إلا صوت واحد معارض هو صوت شتاينبرغ، الاشتراكي – الثوري اليساري الذي أصبح يكن عداء للشيوعية ولكن غير مهيأ للإلتحاق بقيادة الأممية الثانية. لقد أعلن مفندا الحجج المقدمة لتبرير الإندماج: «يقال أنه من الواجب علينا أن ننضم إلى الأممية الثانية لأن الجماهير الواسعة من الطبقة العاملة تؤيدها. ألم نر جماهير واسعة تنتقل من الاشتراكية – الديموقراطية إلى الاشتراكية – القومية، خلال الحرب؟ إنكم هنا مجرد أحزاب إصلاحية، يتوجب على الذين لم يتجرأوا على القيام بثورة في بلادهم أن يتحولو بروح الصبر في انتقاداتهم، بالنسبة للخطر الرجعي، أجيب: إن هذا الخطر موجود بكل تأكيد، إن الرجعية موجودة، لكن يجب أن نفتش عليها أولا في أحزابنا، تشكل الأحزاب الاشتراكية – الديموقراطية العامل الأساسي في الرجعية الحالية، ففي ألمانيا ان صحيفة فورفتش هي التي تدافع بجدارة عن مصالح البورجوازية، أتدرون ما هي الأممية الثانية؟ لقد كانت وستبقى أممية القوميين» استقبل هذا الكلام بالصراخ وبالصخب الشديد، لكن هذه الاحتجاجات ظلت بدون أي صدى، لقد تم اتخاذ القرارات النهائية سلفا.
[27]

كان لدينا بعض أوقات الفراغ لأن أمانة المؤتمر العامة تمهلت كثيرا بإعطائنا الجواب. اقترح لوسوفسكي أن نزور المرفأ بعد ظهر أحد الأيام، كان معنا أندرييف، وكان يتقبل مزاحنا، حول اسمه، بروح مرحة، كان يدعى اندريه اندريفيتش اندرييف، وكان قد تحالف مع تروتسكي خلال النقاش حول مسألة النقابات. لدى عودتنا إلى المدينة دخلنا إلى إحدى المقاهي حيث أشار لي أحد المرافقين بطرف عينه إلى يافطة كتب عليها: «يمنع الدخول بتاتا للكلاب الفرنسيين والبلجيكيين». وكتب كلمة «كلاب» بأحرف كبيرة. لقد دفع احتلال الروهر والبؤس الناجم عنه الحقد إلى أوجه ضد الفرنسيين والبلجيكيين، تسارعت الأحداث في شهر آب: انفجر إضراب كبير، اشترك فيه عمال «بنك الدايش»، وأجبر حكومة «كونو» على الاستقالة. تولى شترسمان السلطة وشكل حكومة «الائتلاف الكبير» حيث دخلها ممثلون عن الأحزاب الأربعة، كان البرنامج الذي اعتمدته هذه الحكومة يتلخص: داخليا، بنضال لا هوادة فيه ضد الشيوعية، خارجيا، بالتوجه نحو إنكلترا لإقامة جبهة ضد فرنسا والحصول على تسهيلات جيدة في دفع التعويضات، وبالرغم من الإحباط الذي أصاب إنكلترا حول هذا الموضوع فإنها أدانت الاحتلال ولكنها لم تكن تملك القدرة لوضع حد نهائي له.

[27]- مستشار الريخ بين سنة 1922-1929 (المترجم)

3- قلق قيادة الأممية الشيوعية، الوضع الثوري في ألمانيا

أدت أشهر الأزمة العميقة هذه إلى زعزعة بنية الرايش، وفشلت الحكومة المركزية مرارا في إثبات سلطتها على المقاطعات، ففي مقاطعة بافيير حيث تهيمن القومية لم يظهر فقط الميل الانفصالي إنما ظهرت رغبة فرض قانون المقاطعة على برلين نفسها. في مقاطعتي تورنغن وساكس كانت الاشتراكية هي المسيطرة اشتراكية يسارية وقفت ضد قيادة الحزب الاشتراكي – الديموقراطي. اصبح الوضع خطيرا، وأظهرت برلين عن ضعفها، وبدت القوى الثورية في تورنغن وساكس كمركز المقاومة الحقيقي ضد التهديد الرجعي الوارد من بافيير في هذه الظروف، قررت قيادة الأممية الإجتماع، ليس على شكل اللجنة التنفيذية الموسعة، إنما اجتماعا سريا، يشترك مندوبون عن الأحزاب الشيوعية المتواجدة في البلدان المتاخمة لألمانيا، وذلك للتنسيق فيما بينها وتوفير الدعم الذي يجب أن توفره الحكومة العمالية المقترحة في ساكس والتي تضم اشتراكي اليسار والشيوعيين وتكون بمركز القوة الذي يتم منه دعم التحرك الثوري. لا يمكنني أن أعطي حكما مباشرا حول هذا الاجتماع الهام، إذ توجب علي البقاء في باريس لأقوم بأعباء صحيفة الحزب «الإنسانية» كان كاشين هو المدير ولكنه كان يكتفي بكتابة مقال صغير، يوميا، يتناول فيه موضوع الدعاية بشكل عام متحاشيا الخوض في مواضيع خطيرة مبعدا عنه المسؤوليات، بعد عودة مندوبنا إلى باريس، كان من الصعب معرفة ماذا حدث في الاجتماع: لقد حملوا معهم معلومات متناقضة ومتعارضة أصبح معها من المستحيل معرفة ما دار في موسكو أو ما تم التوصل إليه من قرارات، لقد وردت بعض المعلومات إننا على عتبة القيام بثورة في ألمانيا، وإذا ما صدقت هذه المصادر فإنه من المتوجب إبقاء الحزب الشيوعي الفرنسي في حالة تأهب! كانت بعض مقالات «النشرة الشيوعية» تحمل عناوين كهذه: «على عتبة الثورة الألمانية» «الثورة الألمانية في متناول النظر». لكن لا يمكن كتابة مثل هذه الأشياء لعدم التمكن من الحصول على معلومات أخرى أو مؤشرات تنذر بالثورة سوى دخول ثلاثة شيوعيين في حكومة زيفز الإشتراكية اليسارية.

ماذا حدث في موسكو، إذن؟ وفي قيادة الأممية الشيوعية؟ لقد كان التردد وعدم التجانس، أمام وضع وصف بأنه ثوري، يندران باعراض خطيرة وبتغيير مفاجئ ومقلق يمكن استنتاجه دون معرفة طبيعته أو أسبابه. ألقت الأحداث المهمة التي كانت تجري في ألمانيا، إلى الصف الثاني، كل ما كان يجري خارجها. وهكذا لم يتم درس موقف الحزب الشيوعي البلغاري، كما يجب في مناسبتين مهمتين، كانت بلغاريا توفر أرضا خصبة لنشوء الأحزاب الفلاحية في فترة ما بعد الحرب لأنها أمة تعتمد على الزراعة بشكل كبير: 85 إلى 90% من سكانها يعملون في الزراعة. كان ستامبولسكي، رئيس الحكومة، قائد لأحد تلك الأحزاب المضادة للبرجوازية: لقد اتهم الوزراء السابقين بتوريط البلاد في الحرب، وطرد الضباط البورجوازيين وأنشأ ميليشيا فلاحية. انتصر الانقلاب، الذي قاده البروفسور الكسندر تسانكوف، في صدفيا، نهار 9 تموز سنة 1923، لكن النضال استمر وامتد نحو الأرياف، وشمل هذا التحرك البلاد بأسرها. التزم الحزب الشيوعي، في هذه الأثناء، جانب الحياد، وهكذا ساهم الحزب بسحق الفلاحين وتعزيز مواقع تسانكوف.

حضر قياديو الحزب الشيوعي البلغاري انتفاضة، بتحريض من زينوفييف، وذلك لإصلاح الخطأ الفظيع الذي ارتكبوه بوقوفهم على الحياد. لقد شكلوا «لجنة ثورية للحرب»، ووزعوا الأسلحة وأطلقوا نداء لقيام «حكومة العمال والفلاحين». فشل هذا التحرك فشلا ذريعا. كانت الأممية الشيوعية، وبشكل خاص زينوفييف، مسؤولة عن هذا الانقلاب المحزن.

عندما جرت إعادة لهذه الانتكاسات ولأسبابها، تم طرح التساؤل التالي، بالحاح أكثر: ماذا جرى في موسكو؟ أتى الجواب فجأة عندما قرر زينوفييف أن يشرح الخلافات، التي تطوررت داخل اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي الروسي، أمام فروع الأممية.

لم يستطع لينين معاودة نشاطه إلاّ في الأشهر الأولى من سنة 1922 ولم يستطع حتى القيام بكل الأعباء التي تولاها سابقا. وهكذا، كما رأينا، اختصر كثيرا من التقرير الذي ألقاه في المؤتمر الرابع. تكلم أمام المؤتمر في 13 تشرين الأول وبذل مجهودا كبيرا ساهم بارتداد المرض عليه. اقتنع لينين بعدها أن المسألة تستوجب الانكباب على المهام الأساسية والعاجلة. كان اهتمامه الأول ينصب على مسألة قيادة الحزب. كيف يمكن أن تنظم هذه القيادة عندما يبتعد نهائيا عن العمل؟

كتب ملاحظة، في 25 كانون الثاني، موجهة إلى اللجنة المركزية وكانت بمثابة توصياته الأخيرة، كان يتهدد الحزب حينذاك خطر الانشقاق الذي يجب رأبه بأي ثمن كان.

بذل كل ما في وسعه ليعطي ميزات كل رجل في قيادة الحزب، بدقة متناهية، كان يعتقد أنه إذا ما سويت الخلافات القديمة أو تم تخفيفها تصبح عملية الاتفاق سهلة ويمكن للعمل الجماعي أن يستمر بدونه كما كان يتم خلال وجوده. لقد أبدى تحفظا وحيدا حيال ستالين الذي كان مسرفا بحب السلطة والمستأثر بأمانة الحزب العامة. واشتدت مخاوف (لينين) بعد أن أصبحت

ظواهر الاسراف بحب السلطة واضحة عند ستالين مما دفعه، بعد عشرة أيام، في 4 كانون الثاني 1923، أن يكتب ملحقا، للملاحظة التي وضعها في 25 كانون الأول، وكرسها لستالين فقط: كان الانذار، هذه المرة قاطعا، يجب إبعاد ستالين عن الأمانة العامة.

يسمح مضمون هذا الملحق وكذلك الأحداث التي تبعته في مطلع عام 1923 يسمح بتتبع رأي لينين. حصل خلاف، بعد شهرين من ذلك، بين ستالين والمناضلين الشيوعيين في جورجيا مما دفع لينين، وهنا الحدث ذات الأهمية الكبرى، إلى قطع كل علاقات بستالين، علاقة شخصية كانت أو رفاقية إذ أن لينين وقف بوضوح إلى جانب رفاق جورجيا. ووجه لهم برقيات في 6 أذار هذا نصها:

«إلى الرفاق ديفاني، ماكارادزيه والاخرين (ترسل نسخة منها إلى الرفيق تروتسكي والرفيق كامينيف).

أيها الرفاق، إنني أقف إلى جانبكم، في هذه المسألة، من كل قلبي، لقد أثارت عجرفة اورجونكيدزيه وتواطؤ ستالين وزيرجنسكي استنكاري. إنني بصدد كتابة ملاحظات وخطاب للدفاع عنكم.
«لينيـــــن»

كتب لينين، بالإضافة لرسالته إلى اللجنة المركزية ومداخلاته في مسألة جورجيا، كتب خمسة مقالات في بداية سنة 1923.

عندما عاد إلى العمل بعد الوعكة الصحية الأولى فوجئ بالتطورات التي أدخلتها البيروقراطية. استطاع أن يقيم الوضع بعد أربعة أشهر من الابتعاد الكامل عن العمل: ثقلت الإدارة البيروقراطية غير الكفؤة كاهل الإدارة السوفياتية. اهتم قياديو الحزب دائما بخطـــر البيروقراطية المتزايد وشكلوا مفوضية خاصة لهذا الشأن: مفوضية التفتيش العمالية والفلاحية، يجب على المنظمات العمالية والفلاحية أن تسهر على البيروقراطية لتدرك مساوئها. لكن هذه المفوضية تحولت إلى مثل بقلة الكفاءة وقلة الفعالية.

كتب لينين، بهذا الصدد، في آذار: «لنتكلم بصراحة، لا تتمتع مفوضية التفتيش العمالية والفلاحية بأدنى سلطة... ليس لدينا مؤسســـة أسوأ من مفوضية التفتيش هذه». هنا أيضا وجد لينيـــن أن المفوض المسؤول عن التفتيش كان ستالين. لقد كان لستالين، إذن، أسبابا وجيهة تدفعه لمعرفة ما سوف يحصل إذا تغلب لينين على المرض، في الوقت الذي تدفعه فيه أسباب من نوع آخر لينأور من أجل المحافظة على مركزه في دائرة القيادة إذا ما اختفى لينين. هاجم المرض لينين مرة ثانية، في 9 آذار، لم يعد يستطيع القيام بعدها[28].

كان فكر بعض قادة الحزب منهمكا بما اعتبروه مشكلة الخلافة خلال الأشهر التي كان فيها لينين مشلولا كليا أو جزئيا.

تشكلت لجنة ثلاثية (ترويكا) تضم زينوفييف وكامينيف وستالين. لقد بدأت آثار وجود هذه اللجنة تظهر في آذار سنة 1923 حيث أصبحت مؤسسة حقيقية على هامش الكوادر الشرعية في الحزب. كانت المهمة الأساسية التي تولتها هي إبعاد تروتسكي الذي رأى فيه معظم الشيوعيين في روسيا وخارجها الرجل الوحيد الذي يستطيع الإحلال مكان لينين. كان الأمر يتطلب مناورة طويلة!
بيد أن مشاكل خطيرة قد طرحت: في الخارج بسبب الوضع الجديد في ألمانيا المترتب عن احتلال الروهر، وفي روسيا السوفياتية نفسها بسبب الوضع الداخلي المثير للاهتمام. لقد تم إعفاء الفلاحين من المصادرة، يمكنهم التصرف بفائض إنتاجهم لكن الفرق بين الأسعار الزراعية والأسعار الصناعية كان لا يسمح لهم بالإفادة مطلقا. صور تروتسكي الوضع بصورة تلفت الانتباه: يشبه الأمر «المقص»، يمثل فيه النصلتان الأسعار الزراعية والأسعار الصناعية المتباعدة، يجب أن يتم السعي لتقريبها بانتظار امكانية توحيدها. كان المزارعون مستاؤون ولم يكن مناضلو الحزب بأقل استياء منهم. أعلن 46 مناضلا بارزا من بينهم: بياتاكوف، سيريبرياكوف، برايوجنسكي، أوسنسكي، دروبنيس، السكي، سميرنوف، أعلنوا في منشور نقتطف منه ما يلي:

---

[28] - «أصيب لينين في 22 أيار سنة 1922 بالشلل لأول مرة، أبقت قيادة الحزب النبأ لبعض الوقت، كان لينين، الذي يهتم دائما بصحة رفاقه، كان نبعا لا ينضب من الحيوية، أمّا الآن فمرضه خطير بحيث نجهل إذا كان يمكنه أن يعود إلى عمله. بدأت المناورة من أجل الخلافة مباشرة وخصوصا أن تروتسكي يبدو كوريث محتمل مما دفع بقيادة الحزب للتحالف ضده. هكذا تطورت الظروف التاريخية التي سوف تسمح لستالين أن يصبح زعيما» روث فيشر، ستالين والشيوعية الألمانية، ص 235.

«إن النظام الذي أقيم في الحزب أصبح غير محتمل. إنه يبطل كل مبادرة داخل الحزب. إنه يستبدل الحزب بالآلة... التي تشتغل بشكل جيد إلى حد ما عندما تكون الأمور منتظمة لكنها تستلم، حتما، في مراحل الأزمات وتهدد بالإفلاس الكامل عندما تجد نفسها أمام تطورات خطيرة كالتي نحن بصددها. يعود الفضل بخلق الوضع الراهن إلى نظام الديكتاتورية الجزئية الذي تطور بعد المؤتمر العاشر».

تشكلت جماعات مختلفة للمعارضة. ذهبت كل الاحتجاجات أدراج الرياح. كان هذا «النظام غير المقبول به» هو النظام الذي أراد أعضاء الترويكـــا فرضه على الحزب. لقد كان بالنسبة إليهم، النظام الوحيد الممكن كما صرحوا بذلك علانية عندما فضحه تروتسكي، خلال اجتماع المكتب السياسي، واحتج بحدة ضد التراجــع عن تعاليم لينين وممارساته. لقد كانوا متفقين حول هـــــذه النقطة الأساسية: لم يكن النقاش مسموحا. تقرر الآلة وتعمل عوضا عن الحزب، لكن، بكل تأكيد، يجب ألاّ يجري الإفصاح عـــن ذلك. ولكي يظهروا بمظهر المهتم باحتجاجات تروتسكي وكل الذين طالبوا بالعودة إلى الديموقراطية في الحزب، من أجل كل هذا دعوا إلى التصويت، في 5 كانون الثاني، حول هذا الموضوع، فأيدت اللجنة المركزية بالإجماع هذه الديموقراطية. لكن هذا لم يكن الا واجهة للأحداث، ففي الوقت الذي كان يتم فيه التصويت، كانوا يحضرون تكتيكا يسمح لهم بجعل كل معارضة غير ممكنة: الهدوء في البدء ومن ثم العنف. احتدت الصراعات لأن الذين أخذوا قرار 5 كانون الثاني على محمل الجد، لا يسمحوا بأن يعاملوا كمغفلين. خلال النقاش، الذي كان علينا لبعض الوقت، لمح تروتسكي إلى التفكك الممكن «للحرس القديم» البلشفي، أجابه ستالين بكبريائه المعهودة: كان «الحرس القديم» مقدســـا والاشارة فقـــط إلـــى تفككه تعتبر انتهاكا للحرمات. كان المكتب السياسي، حينذاك، يتألـــف من بوخارين، ريكوف، كامينيف، ستالين، تومسكي، تروتسكي وزينوفييف. أعدم ستالين منهم أربعة: بوخارين وكامينيف وريكوف وزينوفييف. ودفع تومسكي إلى الإنتحار وبعد أن نفى تروتسكي دفع بقاتل محترف إلى اغتياله.

بالرغم من أن أعضاء الترويكا كانوا متفقين على إرساء نظام له المميزات الأساسية لنظام توتاليري فإن صراعا حادا نشب بين ستالين وزينوفييف. لقد كان هذا الأخير مقتنعا بأنه الوحيد الذي يمكنه الاحلال مكان لينين وكان يدعمه كامينيف ويقف بوخارين إلى جانبه. في الواقع لم يكن يفكر أحد بأن ستالين يطمح إلى اعتلاء المنصب الأول.

كانت الأممية تجهل كل هذه الاحتجاجات والقرارات والمناورات والعداءات. لم نعلم بها إلاّ مؤخرا. وبشكل مقتطفات وعادت بنا الذاكرة إلى أحداث لم نكن لنفهم فحواها جيدا ساعة حصولها. سأحاول هنا أن أعطي موجزا عنها من أجل فهم التردد وعدم التجانس والكوارث التي طبعت تلك السنة بطابعها. بدأت الحملة ضـــد تروتسكي في أوائل سنة 1923[29]. لقد كانت الحجة المسوقة دائما ضده أنه لم يكن «بلشفيا قديما». لم يكن لعدد من «البلاشفة القدماء» ماضيا لامعا. لقد تراجعوا عن مواقفهم خلال الحرب أو فـــي أوكتوبر. بينما جابههم تروتسكي بماضيه وبدوره سنة 1905 وفي اكتوبر وبموقفه خلال الحرب، لكن هذا لا يهم، المهم أنه لم يكن «بلشفيا قديما». سرت إشاعـــــة بعدها وتنم على أن المناورة جيـــدة التحضير «يتصور تروتسكي نفسه كبونابرت، يريد تروتسكي أن يلعب دور بونابرت». سرت هذه الاشاعة في أرجاء البلاد كلها وقد ابلغني بها بعض الشيوعيين العائدين من موسكو، لقد فهموا أن شيئا ما يطبخ في السر ضد تروتسكي وطلبوا مني مـــرارا: «يجب أن نبلغه هذا الأمر».

كان تروتسكي، خلال الاجتماعات، العادية للمكتب السياسي، يبذل جهدا ليلفت انتباه الأعضاء على مواضيع الساعة التي كانت لا تخلو من الخطورة. كانوا يصغون إليه ولكنهم لا يقررون شيئا، لأن المكتب السياسي ليس هو نفسه المكتب الذي يعرفه الحزب، لقد تم إبعاد تروتسكي عنه ووضع كويبيشيف مكانه.

شاءت الصدف أن أحضر إحدى اجتماعاته، كان ذلك في أيار سنة 1923 عندما استدعت اللجنة التنفيذية الموسعة لدرس الموقف المترتب عن احتلال الروهر. طلب مني زينوفييف، لدى وصولي إلى موسكو، أن أذهب لأراه في المساء. توجهت إلى منزله فوجدته مع بوخارين، ولما رأيت الدهشة والانشراح على وجهي الرجلين طلبت منهم: «ماذا يحدث إذن؟» قال لي بوخارين وهو يضحك: «لم يعد بالامكان المجيء هكذا إلى عند زينوفييف، يجب المرور أولا إلى الأمانة العامة».

لقد حدثت، منذ المؤتمر الرابع، تطورات كثيرة داخل الحزب الشيوعي الفرنسي، وكان يلح زينوفييـــف في أسئلته حول هذا الموضوع، وهذا ما يشرح تسرعه غير المألوف لمشاهدتي. استمر النقاش طويلا عند مجيء كامينيف وريكوف وتومسكي... زلم أتمكن من رؤية ستالين جيدا – لم أكن رأيته قبلا قط بالرغم من إقامتي المتكررة في موسكو – لأن أولفا رافيتش اقتربت مني ودعتني بلطف إلى الباب قائلة: «إن هذا سوف لن يكون مهما بالنسبة لك، إنهم سوف يتكلمون جميعا بالروسية».

[29] - «خلال سنة 1923 كانت مشاركة تروتسكي في المكتب السياسي محض صورية. كانت المسائل تدرس والقرارات تؤخذ في جلسات سرية تعقد بكامل أعضاء المكتب ما عدا تروتسكي». روث فيشر، ستالين والشيوعية الألمانية ص 236)

كانت القرارات تتخذ في غياب تروتسكي وأحيانا يتخذها زينوفييف وحده، وهكذا كان بالنسبة «للأحداث» التي اندلعت في بلغاريا في تشرين الأول. لقد كان تروتسكي يجهل كل شيء حول هذه العملية الكارثة. وعندما طلب بعض الايضاحات من زينوفييف جاوبه هذا الأخير بكل اقتضاب. «يحدث أحيانا في الحروب أن نخسر فيلقا بكامله».

يمكننا الآن أن نفهم لماذا عاد المندوبون الفرنسيون من موسكو بمعلومات غامضة ومتناقضة ذلك لأن عدم التجانس والتردد يسيطر على قادة الحزب الشيوعي الروسي والأممية الشيوعية، لقد كانوا مهتمين بمسألة خلافة لينين في الوقت الذي يتبعون فيه سياسة تتناقض مع سياسته، وهذا ما دعاهم إلى خداع الحزب مرارا وان يضعوا الاجتماعات غير القانونية والسرية مكان النقاشات العميقة بحيث يمكنهم إبعاد خيرة مناضلي الحزب.

لقد كانت حصيلة هذه الاجتماعات سرية جدا حتى أن تروتسكي لم يستطع معرفة موقف ستالين عن المسألة الألمانية. لقد كانت المرة الأولى التي يشارك فيها ستالين بأعمال الأممية الشيوعية. ولم ينكشف الموقف الذي اتخذه إلاّ بعد ذلك الوقت بكثير، في سنة 1929، عندما نشر براندلر، لدى طرده من الأممية، الرسالة التي وجهها ستالين إلى زينوفييف وبوخارين. تبدو هذه الرسالة مهمة بالنسبة لتاريخ الأحداث في ألمانيا وبالنسبة لحياة الشخص الذي أعلن، في النهاية، أنه ضد الانتفاضة. يقول ستالين في الرسالـــة: «إن من مصلحتنا أن يهاجم الفاشيون في البدء، يؤلب هذا الأمر مجموع الطبقة العاملة جول الشيوعيين (إن ألمانيا هي غير هنغاريا). بيد أن الفاشيين، حسب كل المعلومات، هم ضعفاء في ألمانيا». إن بداية الرسالة هذه تنبئ ببعد النظر. كان زينوفييف يميل إلى الانتفاضة لكنه كان مترددا، كان يفكر حتما ببعض السابقات غير المشجعة. عندما تم القرار من أجل تحضير الانتفاضة، بعد انقضاء الوقت الملائم، فرض على براندلر أن يقود التحرك الذي كان يعارضه. خاب فأل الأحزاب الشيوعية المجاورة لألمانيا، والتي تم وضعها في حالة تأهب، بعد الاستسلام من دون أي نوع من القتال. اتفق ستالين مع زينوفييف لإبعاد المسؤولية عن الأممية الشيوعية بإلصاق المسؤولية ببراندلر. لقد كانت هذه الممارسة الأولى لتكتيك «كبش المحرقة» الذي أصبح قاعدة فيما بعد.

(1924)

موت لينين

أصبح التفكك الذي أصاب الشيوعية واضحا عندما توفي لينين في 21 كانون الثاني سنة 1924. بعد وفاته تطور هذا التفكك بخطى متسارعة. حذر لينين، في مداخلته الأخيرة في المؤتمر الرابع للأممية الشيوعية، حذر شيوعيي مختلف البلدان من التقليد الميكانيكي والأعمى للطرق الروسية. جعل زينوفييف هذا التقليد قاعدة إجبارية. بالإضافة إلى ذلك وبادعائه «بلشفة» الأحزاب، أدخل التوتاليتارية إلى الأممية الشيوعية. كان يقضي على كل معارضة في الفروع بواسطة مبعوثين يرسلهم مقدما إليها. كانت حرب إنهاك حيث ضرب الموظفون سلفا العمال وفرضوا عليهم سجالات لا تنتهي. وترك الأممية كل الذين سمحوا لأنفسهم بتقديم النقد.

في المؤتمر الخامس للأممية الشيوعية الذي عقد في تمـــــوز سنة 1924 ، صرح زينوفييف «لقد حققنا عملية البلشفة مئــة بالمئة». لقد اعتقد أنه وطد مركزه. لم يكن يتصور في ذروة مجده أن أحدهم، بعد عشر سنوات، سيلقنه رصاصة في عنقه في لوبيانكا. هكذا كانت موسكو فر ظل لينين.

انتهى